وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة فرحات عباس – سطيف – الجزائر

رسالــــــة

مقدمة بكلية الآداب واللغات

لنيل شهادة

دكتـــوراه العلـوم

في النقد الأدبي الحديث

إعداد السيد: رابح فروجي

الموضوع:

التجربة الشعرية في شعر بدوي الجبل

أمام اللجنة المكونة من السادة:

- الدكتور صلاح الدين زرال من جامعة سطيف رئيسا
- الأستاذ امحمد عزوي من جامعة سطيف مشرفا ومقررا
- الدكتور حسان راشدي من جامعة سطيف مناقشا
- الأستاذ علي بولنوار من جامعة مسيلة مناقشا
- الأستاذ محمد منصوري من جامعة باتنة مناقشا

السنة الجامعية: 2012/2011

بسم الله الرحمن الرحيم

" وقل رب زدني علمـــــــــــــــــــا "

صدق الله العظيم

الإهـــــداء

إلى كل عاشق للحــق والحــرية والجمــال،

أهــدي هــذه الرسالة.

رابح

ملخص:

التجربة الشعرية في شعر بدوي الجبل

إن مصطلح التجربة الشعرية جديد في النقد العربي الحديث، وإن كان مضمونه معروفا في نقدنا القديم.

وقد أجمع النقاد، وخاصة في العصر الحديث، أن التجربة في التجربة في الحياة أساس للتجربة الشعرية، كما أجمعوا على أن منبع التجربة الناجحة هو النفس عندما تتفاعل مع الحدث فيصوغه الشاعر في شكل قصيدة، عن طريق اللغة والصورة والإيقاع.

والشاعر بدوي الجبل من الشعراء الذين نجحوا في تجاربهم الشعرية؛ وذلك لأنه استطاع أن يوفر لتجربته كل شروط النجاح ، سواء على مستوى المضمون أو على مستوى الشكل. فأما على مستوى المضمون فقد فجرته ينابيع الأحاسيس التي كانت تتفاعل في وجدانه، فارتقت معاني موضوعاته من حدود الحدث إلى أبعاد إنسانية رحبة. ولأن الشاعر كان منحازا إلى القلب شعريا ووجوديا فقد انعكس انحيازه هذا على الموضوع الشعري عنده، فجعله يتسم بالوجدانية وبالتناغم مع منظومة القيم النابعة ـ في تجربته ورؤيته ـ من القلب.

وأما على مستوى الشكل، فإن أهمية المعاني التي عالجتها تجربة بدوي الجبل الشعرية ليست راجعة إلى ارتباطها بتجارب الشاعر في الحياة ولا إلى تفاعله الصادق معها فحسب، بل هي راجعة كذلك إلى طريقة عرضها. وأعني بالطريقة الشكل الفني لتجربته الشعرية من بنية ولغة شعرية وصورة شعرية وإيقاع موسيقي.

الفصل الأول/ ماهية التجربة الشعرية ومصادرها عند بدوي الجبل

ـ ماهية التجربة الشعرية

ـ شاعرية بدوي الجبل ورؤيته للشعر

ـ مصادر تجربة بدوي الجبل الشعرية:

أولا/ المصادر الثقافية

ثانيا/ التجربة النضالية

تتسم الحياة بالاتساع والتنوع والعمق.. والإنسان يعيش إزاءها في تدافع أو صراع. كما أنه يعيش في صراع في الوقت نفسه مع ذاته، وذلك بهدف إحداث التأثير الأمثل في مجريات هذه الحياة ، والوصول إلى ما يرنو إليه من خير وتقدم على جميع المستويات.

والشاعر في صراعه مع أحداث الحياة، يختلف عن بني جنسه برهافة الإحساس ودقته. وهو الأمر الذي تعكسه تجاربه الشعرية المستمدة من معاناته مع تلك الأحداث.

ماهية التجربة الشعرية

إن مصطلح "التجربة الشعرية" من المصطلحات الجديدة في النقد العربي الحديث، وإن كان مضمونه ــ الذي حدده النقاد في العصر الحديث ــ ليس جديدا. فقد تحدث النقاد العرب القدامى عن "التجربة في الحياة" ، وعن أهميتها، وما ينبثق عنها من معان شعرية يحتاجها الإنسان في حياته.

فهذا ابن الأثير(ت637هــ) يشير إلى موضوع "الحكمة" باعتبارها من أهم المعاني الشعرية التي تنتج عن "تجارب الإخوان، فيتأدب بها الغر الجاهل، ويتنبه لها الفطن الأريب"[1].

وورد لفظ "التجارب" عند ابن طباطبا(ت 322هــ)، في معرض حديثه عن المعاني الشـــعرية التي تضمنتها أشعـــار العرب، فيقول: "واعلـــم أن العرب أودعت أشعـــارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركت عيانها ومـــرت به تجاربها"[2].

[1]-ابن الأثير ضياء الدين، الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية. تحقيق حفني شرف. مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة 1958م. ص 60

[2]-ابن طباطبا محمد بن أحمد، عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، 1956م. ص 11.

فالتجربة برأي ابن طباطبا هي أساس الحِكم ــ وكذا الأوصاف والتشبيهات ــ التي وردت في أشعار العرب.

واعتبار التجربة في الحياة أساس التجربة الشعرية ــ مثلما أشار إلى ذلك ابن الأثير وابن طباطبا ــ هو ما أجمع عليه نقاد الأدب في العصر الحديث. كما أجمعوا على أن منبع التجربة الشعرية هو النفس بالأساس، أي أن التجربة تقوم أول ما تقوم على استجابة الشاعر لإحساسه ووجدانه تجاه الموضوع المعالج[1]. وهذه الاستجابة دافعها الاقتناع الذاتي والإخلاص الفني، وليس مجرد المهارة في صياغة القول لبعث الحقائق أو مجاراة شعور الآخرين لغرض من الأغراض[2]، مما جعل هؤلاء النقاد يحرصون على ضرورة توفر جملة من المقومات في التجربة الشعرية وعلى رأسها الصدق، الذي يعنون به صدقَ الانفعال الوجداني تجاه الموضوع، ونقلَ هذا الانفعال عن طريق اللغة إلى المتلقي[3]. أو بعبارة أخرى، صدق "الشاعر في تعبيره عن نفسه وتصويره لما يؤمن به"[4].

إن هذا الأساس النفسي الصادق للتجربة الشعرية هو الذي أشار إليه (ووردزورث– ت1850م) بقوله: "إن الشعر يتضمن الانفعال بصفة دائمة"[5].وهو الأمر نفسه الذي لم يغب عن (ريتشاردز) حين ربط "التجربة الشعرية بالتجربة النفسية "[6].

وقد سبقهما قبل ذلك عبد القاهر الجرجاني (ت471هــ) في الاعتناء بالسياق النفسي

---

[1]- انظر محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت(1982م) ص 391.
[2]-انظر المرجع نفسه، ص 383.
[3]-انظر سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه. دار الشروق، بيروت لبنان، ط5 (1983)، ص 10
[4]- ضياء الصديقي وعباس محجوب، فصول في النقد الأدبي وتاريخه دراسة وتطبيق. الوفاء للطباعة والنشر. المنصورة، مصر. ط1، 1989م. ص 260.
[5]-كولردج، النظرية الرومنتيكية في الأدب والنقد، سيرة ذاتية لكولردج، ترجمة عبد الحكيم حسان، دار المعارف، القاهرة، 1971م. ص 302.
[6]- حسين خمري، الظاهرة الشعرية العربية الحضور والغياب. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م. ص 192.

الذي يتم فيه إنتاج الخطاب أو تلقيه[1].

وعليه، فإن المهم في التجربة الشعرية ليس هو الموضوع، "وإنما المهم وقعه في نفس الشاعر وتشبع وجدانه به، وما يفيض على عقله من تأملاته فيه"[2]. مضافا إلى ذلك "خبرة الشاعر بوسائله اللغوية والخيالية والموسيقية، لتنصهر كل تلك العناصر في قصيدة"[3].

وللعقل المشار إليه هنا، وظيفة ترتيب أجزاء القصيدة حتى تخرج بالشكل الذي يعبر عن الشخصية الفنية لصاحبها، ولتصبح قطعة من حياة الشاعر الوجدانية والفكرية "لا يشترك فيها غيره لا في مضمونها ومحتواها ولا في صورتها وشكلها"[4].

وعالم العقل ــ أو الفكرــ في التجربة الشعرية ليس منفصلا عن عالم النفس، بل هما متمازجان في هذه التجربة ..وليس المطلوب في التجربة لشعرية أن يقوم العقل بالسيطرة على الأحاسيس التي استجابت بصدق للموضوع المعالج، لأن في ذلك تشويها للتجربة الشعرية، وإنما يقوم بتنظيم تلك الأحاسيس. ومعنى ذلك أن التجربة الشعرية في المحصلة النهائية "ينبغي أن تكون تجربة نفسية"[5].

وأما ميدان التجربة الشعرية، فإن كل موضوع –بلا استثناء– يصلح أن يكــون ميدانا لها، إذا تمكن من إحساس الشاعر المرهف، وأثار خياله الخصب. ومن ثَم فإن التجربة الشعرية لا تتوقف عند موضوع محدد أو قريب، أو عند أفق موضوعي محدود،

1-انظر حسين خمري الظاهرة الشعرية العربية. ص 193. ومن كتب الجرجاني الهامة التي كان السياق النفسي فيها حاضرا ـ في هذا المجال ـ في كل النماذج الأدبية التي عالجها، انظر كتابه أسرار البلاغة. مؤسسة الرسالة ناشرون بيروت، لبنان. 2007 .

2-شوقي ضيف، في النقد الأدبي. دار المعارف، القاهرة ط 6، ص 114.

3-المرجع نفسه، ص 139.

4-المرجع نفسه، ص 145.

5-المرجع نفسه، ص 149.

بل إنها "تعانق أحلام الإنسان وواقعه في أي زمان وفي أي مكان"[1].. ثُم تأتي لغة الشاعر بعد ذلك، لتصوغ هذه التجربة بالأسلوب الذي يظهر فيه طبع هذا الشاعر ونفَسه.

وعن طبيعة تعامل الشاعر، في تجربته الشعرية، مع أحداث الواقع وموضوعات الحياة، فينبغي أن ينأى عن الرصد المباشر لها. فإذا ما لجأ إلى المباشرة في رصد هذه الموضوعات وتلك الأحداث فمعناه أنه لا يدرك طبيعة فنه وإمكانيات هذا الفن. وهو حين يفعل ذلك فإنه يفقد وظيفته كشاعر وتأثيره في الحياة[2].

وعلى هذا الأساس، فإن الشاعر لا يعكس في تجربته أحداث الواقع وموضوعات الحياة كما هي في الواقع وفي الحياة، بل كما "أحسها بروحه واستشفها بوجدانه، وتمثلها بدقة إحساسه واكتشفها بعمق بصيرته، وأبرزها لنا حياة جديدة ولحظة مبتكرة، بعد أن عاش لحظات التكوين بما فيها من جهد ومشقة وصبر واحتمال"[3].

وهو بهذا الإحساس الفني بالحياة وما في الحياة، يضمن لتجربته الشعرية المشاركة الوجدانية من قبل المتلقي، كما يضمن لها النجاح في الوقت نفسه. وقد سبق للقاضي الجرجاني(ت366هـ) أن أشار إلى هذه القضية المهمة، وهو يورد نصا شعريا في الغزل للبحتري مضمخا بالإحساس الصادق العميق[4] .. ثم إن التجربة الشعرية بذلك، يكتب لها الخلود لأنها قامت على هذا الأساس النفسي؛ وهو أن صاحبها قد عاش لها وغاص في أعماق نفسه يتأمل ويستجلي المشاعر والحقائق[5] .. "ثم أبرزها للوجود عملا شعريا مكتملا"[6].

---

[1]-صابر عبد الدايم، التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1، 1990، ص 8

[2]-انظر عبد المحسن طه بدر، حول الأديب والواقع، دار المعارف، القاهرة، ط 2 . د، ت. ص 68.

[3]-ضياء الصديقي وعباس محجوب، فصول في النقد الأدبي وتاريخه، ص 262.

[4]-انظر القاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، القاهرة ، 1966، ص 18، وص 27.

[5]-انظر محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص 384.

[6]-ضياء الصديقي وعباس محجوب، فصول في النقد الأدبي وتاريخه ، ص 254.

وأما عن العناصر المكونة للتجربة الشعرية، فهي قسمان:

الأول: وهي العناصر الشعرية، كاللغة الشعرية والموسيقى والصور.

والثاني: "عناصر "لا شعرية" وهي الأفكار، التي هي جزء من عناصر الشعر ما دام يعتمد على اللغة والكلام. وإذن يسمو الشعر بسمو الأفكار، وتهون قيمته بانحطاطها"[1].. وميزان سمو الأفكار أن يتحقق فيها مراعاة الطبع السليم من حيث هو، وما تتطلبه المشاعر الإنسانية من سمو[2].

ولا شك أن الدكتور محمد غنيمي هلال يريد بـــ"العناصر اللاشعرية"، تلك التي يلتقي فيها الشعر والأدب عامة مع الفنون والعلوم الإنسانية الأخرى، كعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والتاريخ، وسواها من العلوم الإنسانية.

وأما "العناصر الشعرية"، فأعني بها تلك التي تمنح للنص الشعري انتماءه إلى عالم الأدب، وتميزه عما سواه من النصوص التي تنتمي إلى العلوم والفنون الإنسانية الأخرى.

إلا أن تمازج هذه العناصر كلها ــ الشعرية واللاشعرية ــ في النص الشعري، تجعلها كلها في النتيجة عناصر شعرية؛ ويكفي للدلالة على وجاهة هذا الذي أقوله، أن الدكتور محمد غنيمي هلال حين تحدث عن "العناصر اللاشعرية"، وضعها بين مزدوجتين، حتى لا يقال له: كيف تفصل في النص الشعري ــ المتمازج العناصر ــ بين ما هو شعري وما تراه غير شعري فيه..؟

وأما ما يساعد على تحقق سمو الأفكار في التجربة الشعرية، فإنني أرى ضرورة أن يكتسب الشاعر أربعة شروط مهمة، وهي:

---

[1]-محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث ص 392.
[2]-انظر المرجع نفسه ، ص 393.

- الثقافة العميقة.
- فهم سنن التاريخ.
- الوعي بطبيعة العصر.
- الوعي بظروف المجتمع الذي يحيا فيه.

إن هذه الشروط، بالإضافة إلى العناصر السابقة، من شأنها أن تكسب التجربة الشعرية العمق والغنى والشمولية.

والخلاصة، أن التجربة الشعرية هي موقف شعري تفاعل معه الشاعر بكل أحاسيسه بعد أن أثر في وجدانه وكيانه، واستغرق فكره وخياله، وعاشه بدقائقه وتفاصيله، ثم صاغه بأسلوبه المعبر عن نفسه وأصالته؛ فأخرجه إلى الوجود عملا شعريا مكتمل العناصر الفكرية والفنية.

وتأسيسا على ما سبق، فإن هناك جملة من الأسئلة المركزية التي يستدعيها موضوع الرسالة، وهي:

ما طبيعة التجربة الشعرية عند بدوي الجبل..؟ وما مصادرها..؟ وما الموضوعات الشعرية التي تضمنتها تلك التجربة..؟ وماهي خصائصها الفنية..؟

ولأن الأسئلة بهذه الأهمية، فقد تكفلت الصفحات الآتية ــ وإلى آخر صفحة من هذه الرسالة ــ بالإجابة.

شاعرية بدوي الجبل ورؤيته للشعر

إن بدوي الجبل من الشعراء الذين تقرأهم مرات ومرات، ولا تمل قراءتهم، بل وفي كل مرة تكتشف في تجربتهم الشعرية جديدا.

وقد لاحظت ــ بعد طول تأن ــ بأن هذه الميزة في تجربة البدوي الشعرية، نابعة من جملة عوامل مهمة تتمثل في شاعريته، واغتناء هذه الشاعرية بالعوامل الثقافية المختلفة، وارتكازها على تجارب الشاعر الصادقة والعميقة مع أحداث الحياة الكبرى التي انغمس في غمارها مذ كان فتى؛ فانعكس عبيرها في قصائده بصورة غير متكلفة.

وأعني بالشاعرية، موهبة الشاعر الفطرية النفسية والذهنية، للإبحار في عالم الشعر. فمن المسلمات في ميدان الشعر أن الإنسان لا يستطيع أن يكون شاعرا أو يتحول إلى شاعر مهما كان عبقريا بمجرد أنه يرغب في أن يكون كذلك، لأن الشاعرية موهبة قبل أي اعتبار، ثم تأتي بعد ذلك العوامل الأخرى المحيطة بالشاعر، والتي لا بد منها لأي شاعر، فتغذي شاعريته ، وتسهم في بلورة طبيعة التجربة الشعرية لديه.

وشاعرية بدوي الجبل لم يختلف حولها الدارسون، بل إن هذا الشاعر قد طلع على الدنيا منذ قصائده الأولى شاعرا كبيرا بإجماع هؤلاء.

فقد نشرت قصائد بدوي الجبل الشعرية الأولى عام 1925م"في ديوان أسماه الشفق"[1]، ثم ضُمت بعد ذلك إلى ديوانه الجديد الذي جمع شعره كله عام 1978م[2].فأطلق على ذلك الجزء اسم "البواكير".[3]

---

[1]-سيف الدين القنطار، بدوي الجبل، دراسة في حياته وشعره، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2000م. ص 29.
[2]-جاء هذا الديوان الجامع لشعر الشاعر تحت عنوان "ديوان بدوي الجبل" طبع في دار العودة، بيروت، لبنان.
[3]- انظر قصائد "البواكير" في المصدر نفسه من ص 433 إلى 553.

فحين ظهرت "بواكير" الشاعر أول ما ظهرت، تلقاها الدارسون ليس بالقبول فحسب، بل بما ينم على نجاح تجربته الشعرية من أول خطوة خطاها عام 1920م[1].

فقد كتب (سليم الجندي) عضو المجمع العلمي بدمشق، معلقا على ديوان بدوي الجبل الأول قائلا :" إن الواقف على ديوانه هذا، ليرى في تضاعيف شعره الشاب من جزالة اللفظ ومتانة التأليف والمعاني الغضة، ما ينم عن موهبة واسعة، وقريحة مطبوعة وحذق في صناعة الشعر"[2].

وكتب العلامة (عبد القادر المغربي) عضو المجمع العلمي بدمشق، واصفا بدوي الجبل ــ بعد صدور ديوان البواكيرــ بــ"الشاعر الذي تمردت عبقريته على ناموس التدرج. ولو أن الأصمعي القائل في شعر أبي العتاهية أنه كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذهب، استشرف ما يبدعه البدوي لهتف به: هذه ساحة لا خزف فيها، إنها سوق الذهب واللؤلؤ والمرجان"[3].

وعندما قرأ الشاعر اللبناني (بشارة الخوري) ــ المعروف بالأخطل الصغير ــ ديوان (الشفق) قال: "إن شعر البدوي أرجح من عمره".[4]

وقد حافظ الشاعر بدوي الجبل – بعد تجربة البواكير– على غنى شاعريته، وزادتها تجاربه في الحياة عمقا. وهذا ما أجمع عليه ثلاثة من الشعراء العرب المعاصرين المعروفين وهم: نزار قباني، عبد الوهاب البياتي، وعلي أحمد سعيد(أدونيس).

---

[1]- انظر سيف الدين القنطار، الأدب العربي السوري بعد الاستقلال، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،1997 م، ص 88.
[2]-عدنان الخطيب، مجمعي افتقدناه بدوي الجبل، مجلة مجمع اللغة العربية، بدمشق، الجزءان الأول والثاني، المجلد السابع والخمسون، يناير/نيسان 1982، ص 240.
[3]-أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1987 م. ص 14.
[4]-المرجع نفسه ص 14. ،

فأما (نزار قباني)، فقد لخص موقفه من تجربة البدوي الشعرية قائلا: "لا تستطيع إلا أن ترفع قبعتك وتنحني باحترام أمام عبقريته"[1]. فنزار قباني بشهادته هذه يعترف بعبقرية بدوي الجبل الشعرية.

ويذهب (عبد الوهاب البياتي)، إلى أبعد مما ذهب إليه(نزار قباني)، فيقول: "من يكتب شعرا بعد بدوي الجبل سنرميه بحجر"[2].. !

وأما (أدونيس)، فيرى في تجربة بدوي الجبل خلاصة الشعرية العربية، فيقول: "إن شعرية الشعر العربي سحابة بعمر التاريخ العربي، وإن شعر بدوي الجبل، يتقطر من هذه السحابة، إنه خلاصة، أعني بأنه مشحون بكل ما تحمله هذه السحابة لغة وأداء وبعدا"[3].

إن كل هذه الشهادات ــ الصادرة عن بعض نقاد الشعر ورموزه ــ تعني من بين ما تعنيه أن تجربة بدوي الجبل، التي امتدت لأكثر من خمسين عاما، حافلة بالمعاني الجديدة الرفيعة، والسمات الفنية الجميلة، التي جعلت صاحبها يتبوأ هذه المنزلة في عالم الشعر، والتي اعترف بها أولئك الدارسون.

ومما ساعد بدوي الجبل على تبوء تلك المنزلة الشعرية رؤيته للعملية الشعرية. وعليه فقبل الغوص في السمات والمعاني التي أشرت إليها، باعتبارها عناصر التجربة الشعرية وتفاصيلها في تجربة بدوي الجبل الشعرية، رأيت ــ طالما أن السياق يتناول الحديث عن شاعرية البدوي ــ أن أقف على رؤيته للشاعر والشعر والعملية الشعرية؛ لأن هذا الحديث يجعلني كباحث، أقف بشكل أعمق على طبيعة التجربة الشعرية عند هذا الشاعر كما فهمها ومارسها، ولنكتشف من خلال ذلك أن البدوي شاعر وصاحب رؤية شعرية في الوقت نفسه.

[1]-هاني الخير، يحدثونك عن أنفسهم، منشورات وزارة الإعلام، دمشق، 1982 م. ص 36.
[2]-نبيل سليمان، الكتابة والاستجابة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000 م. ص 158.
[3]-أدونيس، سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، ط2، 1996. ص 148.

فأما الشاعر برأي بدوي الجبل، فهو ذلك الإنسان الذي لا تخلقه الثقافة الواسعة، وإنما "يصنعه الله وحده"[1]كما قال. بمعنى أن الشاعرية ــ مثلما أشرت سابقا ــ موهبة قبل أي اعتبار. ولذلك فإن البدوي يرى بأن الشاعر "يأتي بين العباقرة، وغني عن الإيضاح أني أعني الشاعر لا الناظم"[2].

فإذا كان الشاعر بهذه المنزلة عند بدوي الجبل، وأنه جاء إلى الدنيا لكي يكون شاعرا، فإن ما يبدعه هذا الشاعر من شعر، برأي البدوي هو إلهام من الله[3].

ويشرح هذا المعنى، من خلال تجربته مع الشعر فيقول:" يحدث لي بعد أن أنظم قطعة من الشعر وأنهيها أن أحار وأتساءل من أين لي هذه الصور والمعاني والألوان؟"[4].

وحيرة بدوي الجبل هذه هي التي جعلته يعجز عن تحديد طبيعة الشعر، ويُقر بهذا العجز، فيقول: "الألفاظ أعجز من أن تحدد الجمال والشعر، وأن تحدد النور، حتى وأن تحدد العطر والنغم، وكل هذه :العطر والنغم والجمال، أجزاء من الشعر، ومع ذلك لا تحدد فكيف بالشعر وهو يجمعها كلها؟"[5]، فضلا عن أن هذه العناصر كلها "العطر والنور والشعر من معدن واحد"[6] ، كما قال.

وعليه فإن "الشعر ضد الصناعة "[7] – كما يبين البدوي– لأن الصناعة بنت الإرادة، والإرادة كما يقول :" بنت العقل، والشعر ترجمان القلب."[8]

[1]-بدوي الجبل الأعمال النثرية. إعداد وتوثيق هاني الخير، مكتبة الشرق الجديد، دمشق، 2001 م. ص 25.
[2]-زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1997 م. ص 78.
[3]-من حوار مع بدوي الجبل، انظر ملحق جريدة الثورة الثقافي، دمشق، ع1(1976/03/11 م).
[4]-زهير المارديني، بدوي الجبل، حكاية شاعر، ص 78.
[5]-هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة. رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1998 م. ص 101.
[6]-عبد الله يوركي حلاق، عشت مع هؤلاء الأعلام، حلب، سورية، 1988 م. ص 107.
[7]-زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 78.
[8]-أكرم جميل قنبس، بدوي الجبل شاعر العربية والعرب، دار المعرفة، دمشق، ط1، 1990 م. ص 18.

وإن شعرا منبعه القلب، لهو جديد في كل الأزمان وجميل في كل البيئات، وتتجدد عطاءاته ما استمرت الحياة الإنسانية على وجه الأرض. وفي ذلك يقول بدوي الجبل[1]:

خير القصائد ما أوحته عاطفـــــة

فسار في كل دنيا غير مغتـــــرب

ومما لا ريب فيه أن بدوي الجبل برؤيته هذه للشعر، يتوافق تماما مع التيار الوجداني في الشعر العربي الحديث، حيث لخص أحد شعرائه الكبار ــ وهو عبد الرحمن شكري ــ رؤيتهم للشعرــ باعتباره تجربة معبرة عن وجدان الشاعر ــ في هذا البيت من الشعر، الذي أثبته على غلاف ديوانه الأول "ضوء الفجر" الصادر سنة 1909 م[2]:

ألا يـــــا طائـــــر الفـــــردو

س إن الشـــــعر وجـــــــدان

وحين نتذكر أن الشاعر مطران خليل مطران هو المعلم الأول لهذا التيار في الشعر العربي الحديث، ولا يغيب عن علمنا إقرار البدوي بأنه متأثر بدعوة مطران التجديدية[3]، وأن مطران واحد من أهم أصدقائه الشعراء[4]، فإننا ندرك منبع رؤية البدوي السابقة للشعر.

وعندما يكون الشعر تعبيرا عن وجدان الشاعر، فإن تكلف الإبداع الشعري هنا يكون مستحيلا. وتلك هي حال بدوي الجبل مع الشعر، والتي يقول عنها: "إذا لم يجئني الشعر

---

[1]-ديوان بدوي الجبل، ص 470.

[2]-انظر محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ج2، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ص 7.

[3]- انظر هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 103.

[4]- انظر المرجع نفسه، ص 112.

عفوا، تعذر علي استحضاره اقتسارا"[1]. ويعلل البدوي حاله هذه مع الشعر بقوله: "الشعر يملكني ولا أملكه"[2]..ومن كان كذلك، يستحيل أن يبدع الشعر بتكلف أو تكليف؛ لأن العمل الشعري يقوم أول ما يقوم على استجابة الشاعر لإحساسه ووجدانه[3]، وليس استجابة لطلب الآخرين. وهو ما يشير إليه بدوي الجبل بوضوح في قوله: "إنني لا أنظم بتكليف"[4].كما يستحيل على الشاعر الحق أن يُفرض عليه أي التزام، أو يُقيد بأي واجب؛ وذلك لأنه لا يستجيب إلا لما يتأثر به وجدانه مما حوله من أحداث الحياة. أو قل إنه لا يتعامل إلا مع أثر تلك الأحداث ومداها في نفسه[5].

وهذا ما ذهب إليه بدوي الجبل حين قال: "لا واجب للشعر، الشعر حر لا يقيد، أنا ضد الالتزام، الشعر ينبع من نفس الإنسان "[6].

فالشاعر بهذا المعنى لا يلتزم إلا بما يتأثر به عاطفيا، وكل ما سوى ذلك ــ كما يقول بدوي الجبل ــ ليس إلزاما فحسب، بل هو "سيطرة على وجدان الشاعر وعبقريته"[7].

وعبقريته"[7].

وعندما يتحقق الإحساس بالحدث أو الانحياز العاطفي تجاه الحدث[8]، لا يصح حينها أن يقال عن هذا اللون من الإبداع بأنه ملتزم، بل يقال عنه بعبارة أدق، إنه تعبير عن وجدان المبدع المتناغم مع الحدث. وفي هذا المعنى يقول بدوي الجبل: "إذا صح للبلبل أو

---

[1]-أكرم جميل قنبس، بدوي الجبل شاعر العربية والعرب، ص 18.
[2]-جريدة الثورة، دمشق، ع:2661(13-11-1971).
[3]-انظر، محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص 391.
[4]-أكرم زعيتر، بدوي الجبل، وإخاء أربعين سنة، ص 37.
[5]-انظر، صابر عبد الدايم، التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث، ص 21.
[6]-هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 116.
[7]-المرجع نفسه، ص 108.
[8]-انظر محمد حسن عبد الله، مقدمة في النقد الأدبي، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، 1975، ص 230.

للنسيم أو للنور أن يلتزم يصح للأديب أن يلتزم، فالأديب يجب أن يبقى حرا طليقا من كل التزام، وكل مكان فرض فيه الالتزام نزل من مستوى الأدب"[1].

وتأسيسا على ما سبق، فإن بدوي الجبل، يلخص تجربته مع الشعر بقوله: "إن شعري مستمد من صميم النفس الإنسانية، إنه حديث المرء عن آلامه وشجونه وغربته وتشرده، ومعاناته وشعوره الصادق النابع من سريرة الشاعر، وما في هذه السريرة وهذا الوجدان من أحزان وآلام"[2].

وبهذه المعاني، يضعنا بدوي الجبل أمام ماهية التجربة الشعرية كما يراها ويعايشها؛ وهي أنها ترجمة لتجارب الشاعر الإنسانية الصادقة والعميقة، التي تتنافى مع التكلف والإلزام، مما ينقذ الشعر من الصنعة التي تهوي به إلى النظم.. وهو بهذه الرؤية، يتفق مع التنظير النقدي العربي والغربي لهذه القضية النقدية.

كما أن تأثره في رؤيته هذه للتجربة الشعرية بدعوة مطران التجديدية التي أطلقها مع بداية القرن العشرين لا ريب فيه.. وقد كان لدعوة مطران أثرها الكبير في تجديد الشعر العربي الحديث، الأمر الذي جعل الدكتور طه حسين يدرك هذا الأثر، فيخاطب صاحبه –أي يخاطب مطران – بقوله: "أنت أستاذ الشعراء، علمت المقلدين كيف يرتقون بتفكيرهم، وعلمت المجددين كيف ينزهون أنفسهم عن الغلو، وعلمت أولئك وهؤلاء أن الفن حر لا يعرف الرق"[3].

وانطلاقا من هذه الرؤية التي اعتنقها بدوي الجبل، فإننا نجده يؤمن ألا شيء يمكن أن يكون بعيدا عن متناول الشعر، شريطة أن يكون نابعا من المعاناة الصادقة، فيقول:

---

[1]-هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 102.
[2]-هاني الخير، يحدثونك عن أنفسهم، ص 30-31.
[3]-سالم المعوش، في الأدب العربي الحديث، الجامعة المفتوحة، طرابلس، ليبيا، ط1، 1993، ص 509.

"أؤمن ألا شيء فوق الشعر"[1]. وهو بذلك متأثر بمطران خليل مطران الذي "كان ديدنه تحويل أي موضوع مهما كانت قيمته إلى مادة صالحة للشعر"[2].

ويلتقي بدوي الجبل في رؤيته هذه أيضا مع ما أجمع عليه النقد الأدبي الحديث، بأن التجربة الشعرية ليس لها ميدان يحدها[3]. أو كما عبر عنها أحد النقاد بأنها لا تتوقف عند ما هو محدود أو قريب[4].

كما يستشف من قول البدوي السابق ــ بأن شعره مستمد من صميم النفس الإنسانية ــ معنى آخر شديد الأهمية، وهو أن الشعر ينبغي ألا ينظم لإرضاء الآخر، كائنا من كان هذا الآخر. وقد عبر عنه بقوله[5]:

أيطمع الشعر بالإحســـان يغمــره

والشعر يغمر دنيا الله إحسانـــــا

فالشعر عند بدوي الجبل له فضل على الدنيا، لأن روعة جمال الحياة تكمن فيه، وبه تتجدد هذه الحياة. ولهذا السبب فهو أسمى من أن ينظم لنيل جزاء أو انتظار ثناء من الآخر، ولو كان هذا الآخر ملكا أو رئيسا أو أميرا.

ويتأكد هذا المعنى أكثر، حين نقرأ قول بدوي الجبل: "في حفلة تتويج الملك فيصل في بغداد في العام 1950م، وكان في حفلة التتويج عظماء الدولة وكبار شخصياتها، ورغم ذلك وقفت وأعلنت رأيي في الشعر، وجعلت الشاعر فوق كل الناس"[6].

---

[1]-هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 115.
[2]-سالم المعوش، في الأدب العربي الحديث، ص 509.
[3]-انظر طه مصطفى أبو كريشة، أصول النقد الأدبي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1996م. ص 249.
[4]-انظر، صابر عبد الدايم، التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث، ص 8.
[5]-ديوان بدوي الجبل، ص 128.
[6]- جريدة الثورة، دمشق، ع: 2661.

والشاعر يشيرــ في حديثه هذا ــ إلى البيت الشعري السابق الذي ورد في القصيدة التي ألقاها في تلك الحفلة[1].

ويقودني هذا المعنى المهم إلى التنبيه إلى أن الأدب والشعر ــ في تجربة بدوي الجبل الشعريةــ ليسا من الترف في الحضارات الإنسانية قديمها وحديثها، كما قد يتخيل بعض من لا علم له ولا اطلاع، بل يكتسيان أهمية بالغة في تلك الحضارات .. وفي ذلك يقول[2]:

تتـــيه حضارات الشعوب بشاعر

وتكمـــل أسباب العلا بأديب

والموضوع الشعري بعد ذلك، لا بد أن يعبر عنه برأي بدوي الجبل، "بأسمى الأشكال"[3]. أو كما عبر أحد نقاد جماعة أبولو الشعرية وهو مصطفى السحرتي بقوله: "إن القيمة الفنية للقصيدة هي في تواؤم تجربتها الشعرية مع صياغة هذه التجربة"[4].

وبناء على ما سبق، فإن الشعر–حين تتوفر فيه كل العناصر والشروط السابقة–يدخل من وجهة النظر النقدية، في التجارب الشعرية الناجحة[5]، والخالدة[6]. ويتفق بدوي الجبل مع مع هذا الحكم النقدي، حين يشير إلى أن الشعر– الذي يتضمن العناصر السابقة– "حديث أبدا مهما امتد به الزمن"[7].

[1]-عنوان القصيدة "يا وحشة الثأر"، انظر ديوان بدوي الجبل، من ص 128إلى ص 138.
[2]-ديوان بدوي الجبل، ص 71.
[3]-ديب علي حسن، بدوي الجبل رحلة الشعر والحياة، دار الساحل للتراث، بيروت، 1999، ص 57.
[4]-سالم المعوش، في الأدب العربي الحديث، ص 539.
[5]-انظر طه أبو كريشة، أصول النقد الأدبي من ص 234إلى 237.
[6]-انظر محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص 384.
[7]-ديب علي حسن، بدوي الجبل رحلة الشعر والحياة، ص 57.

وعليه فإن الشعر ــ كما يضيف الشاعر ــ "لا قديم فيه ولا حديث، إما أن يكون شعرا أو لا يكون"[1]؛ فتتسامى التجربة الشعرية الناجحة بذلك، على عامل الزمن بفضل العناصر والشروط الآنفة الذكر، فتكون جديدة على الدوام.

والحق أننا عندما نطالع التجارب الشعرية الناجحة في كل الآداب ــ مهما كانت موغلة في القدم ــ نكتشف وجاهة هذا الذي أشار إليه بدوي الجبل؛ فنحس ونحن نقرأها وكأنها بنت اللحظة، لأنها تؤثر في الوجدان، وتتجاوب معها النفس فتحس بالنشوة. وحينها لا يبقى لعامل الزمن تأثير في تلك التجارب بعد أن تجاوزته بفضل شعريتها التي أكسبتها النجاح والخلود.

مصادر تجربة بدوي الجبل الشعرية

لقد ساعد على استواء تجربة بدوي الجبل الشعرية، تضافر مجموعة من المناهل المهمة التي ارتكزت على شاعرية الشاعر وأغنتها . وهذه المناهل هي :

أولا/ المصادر الثقافية

إذا كان الشاعر يولد شاعرا، فغني عن البيان أنه بحاجة إلى ثقافة. لأن الثقافة كانت –منذ أن وجد الشعر– العامل الأبرز الذي نمت وتنمو، في حضنه شاعرية الشعراء، وعملت على صقل تجاربهم الشعرية، وهيأت لهذه التجارب أسباب النجاح.

إن الشاعر محمد سليمان الأحمد(1903–1981م)الذي ولد في قرية ديفة الجبلية، بمحافظة اللاذقية[2] والمعروف باسم بدوي الجبل[3]، وَجد في تلك البيئة التي تفتحت فيها

[1]-زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 79.
[2]-انظر أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، ص 6.
[3]-إن الذي أوحى بهذا اللقب، الذي غلب على اسم الشاعر، هو الأستاذ يوسف العيسى صاحب صحيفة " ألف باء"، حين نشر في صحيفته بعض قصائد الشاعر الأولى، واختار له ذلك اللقب؛ لأنه كان بدوي المظهر في لباسه، في حين أنه ينحدر من الجبل. انظر نجيب البعيني، شعراء عرب معاصرون، دار المناهل، بيروت، ط1، 1991م. ص 238.

عيناه المنهل الثقافي العذب، الذي ساعد تجربته الشعرية على الاستواء منذ يومها الأول. وأعني بتلك البيئة مدرسة أسرته، ممثلة في والده الشيخ سليمان الأحمد، الذي كان "من أعلام زمانه فقها ولغة وأدبا، وعنه أخذ أولاده الثلاثة محمد وأحمد وفاطمة، فكانوا كلهم شعراء"[1]. وقد انتخب والده ــ لعلمه الواسع ــ " عضوا في المجمع العلمي بدمشق"[2]،عام 1922[3].

ففي مدرسة والده أخذ الفتى محمد المعروف بعد ذلك بـــ(بدوي الجبل) "الشيء الكثير، وكان ديوان والده مدرسته الحقيقية التي تفتقت عنه القريحة والشاعرية بالبيان الأجمل والمفردات السخية"[4].

ويعترف بدوي الجبل بأجواء أسرته التي تفتحت فيها شاعريته، وفضل تلك الأجواء عليه في الأخذ بيده في عالم الشعر، فيقول: "جو منزلنا العلمي والأدبي إليه يعود الفضل في توجيهي ناحية الأدب. ولو أنني أرى في كلمة توجيه نوعا من المبالغة؛ فالأدب يخلق ولا يصنع أو يلقن. إن في استطاعة الأبوين والمدرسة خلق عالم أو مخترع لكنها مجتمعة تعجز دون خلق شاعر. فالشاعر صنعة الله وحده"[5].

فماذا قدمت "مدرسة سليمان الأحمد" لولدها بدوي الجبل حتى صار مكتمل الشاعرية، منذ انطلاقته الشعرية الأولى؟

قبل تفصيل ما قدمته "مدرسة الشيخ سليمان الأحمد" لابنها الطفل والفتى بدوي الجبل، فحلق في سماء الإبداع الشعري بقوة وتمكن، تجب الإشارة في البداية إلى قضية بالغة الأهمية في التكوين الثقافي لبدوي الجبل. وهي أن وجوده –منذ نعومة أظافره– في

---

[1]-نجيب البعيني، شعراء عرب معاصرون، ص 236.
[2]-أكرم زعيتر، مقدمة ديوان بدوي الجبل، ص 7.
[3]-انظر هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 9.
[4]-نجيب البعيني، شعراء عرب معاصرون، ص 236.
[5]-زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 67.

أجواء منزل والده العالم باللغة والأدب والفقه، له من التأثير القوي في وجدانه وعقله وشعره، ما لا يمكن إغفاله.

ويكمن تأثير أجواء هذه المدرسة لغويا وأدبيا وفكريا، في تكوين الشاعر ــ منذ أن كان طفلا ــ في أنه راح يغرف منها "دون أن يبذل جهدا. وإنما هي أجواء يقيم في قلبها، أو أحاديث يصغي إليها، أو مناقشات يشترك أو لا يشترك فيها، وتبقى في ضميره ووعيــه ولا وعيه، وهي التي تتيقظ وتفد في حينها لتغذي الملكة الأولى التي تطبعت بها النفس"[1]، وهي ملكة الاستعداد الفطري للإبحار في عالم الإبداع الشعري، خاصة إذا ما علمنا أن منزل والد الشاعر كان مركزا دينيا وعلميا لطلاب المعرفة، يرتل فيه القرآن ويجود الشعر[2].

وإذا كان بدوي الجبل قد تلقى علوم اللغة العربية الأولى في مدارس اللاذقية[3]، فإن والده كان أبرز من عمق لديه تلك العلوم حتى استقامت ملكته اللغوية، وصار متمكنا من أساليب القول[4].

وأول منهل غرف منه الشاعر في "مدرسة أبيه" كان تأثره بالقرآن الكريم، وهو ما اعترف به الشاعر حين قال: "بدأت القراءة بالقرآن الكريم"[5]. بل إن علاقة بدوي الجبل بالقرآن الكريم قد استمرت بعد ذلك، "وكان لطول تمرسه بقراءة القرآن أثر بعيد في قوة ديباجته"[6].

---

[1]-إيليا الحاوي، بدوي الجبل شاعر الأناشيد والمراثي ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، ط1، 1981، ص 5و6.
[2]-انظر أكرم زعيتر، مقدمة ديوان بدوي الجبل، ص 7.
[3]- انظر سامي الدهان، الشعراء الأعلام في سورية. ص 228.
[4]-انظر عمر الدقاق، فنون الأدب المعاصر في سورية (1870-1970)، منشورات دار الشرق، لبنان، (دط.دت) ص 409.
[5]-نبيل سليمان، بدوي الجبل مختارات شعرية، المجلس الأعلى للثقافة، دمشق، 2002، ص 7.
[6]-عمر الدقاق، فنون الأدب المعاصر في سورية، ص 409.

ولأن بدوي الجبل قد "شب ونفسه ميالة إلى الأدب"[1]، فقد قرأ على والده دواوين الشعراء العرب الفحول، كـ"المعلقات العشر ودواوين المتنبي والشريف الرضي والبحتري ومهيار الديلمي وأبو فراس والمكزون السنجاري"[2].بالإضافة إلى دواوين أبي تمام وأبي العلاء وأبي نواس وعمر الخيام[3].

كما "قرأ كثيرا من كتب اللغة كالخصائص لابن جني وفقه اللغة للثعالبي والمزهر للسيوطي والجمهرة لابن دريد. وأطال النظر في كتب الصرف والنحو كمغني اللبيب والكتاب لسيبويه وألفية ابن مالك وشرح ابن عقيل عليها "[4].

وقد ساعدته "مكتبة أبيه الغنية بالكتب الأدبية والعلمية والفلسفية والشرعية والتاريخية"[5]أيما مساعدة في تكوينه الأدبي واللغوي والفكري.

وقد أظهر الشاعر بدوي الجبل منذ صباه "ذكاء خارقا في الحفظ، ومقدرة فائقة على استيعاب ما يقرأ؛ فحفظ دواوين فحول الشعراء"[6]، مما ساعده على صقل شاعريته، وبلورة وبلورة تجربته الشعرية المعبرة عن شخصيته ونفَسه بعد ذلك.

ولأن الشيخ سليمان الأحمد عالم بالنحو والدين، ومطلع على الشعر[7]، فقد وفر لابنه محمد ــ بدوي الجبل ــ كل العوامل التي جعلت شاعريته تتفتق وهو فتى. وعلى رأس تلك العوامل دواوين الشعر العربي السابقة، التي تعلق بها الشاعر. إذ من الواضح أن والد الشاعر ــ ومن خلال حرصه على أن يغرف ابنه البدوي من هذه الدواوين ــ كان يدرك

---

[1]-سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر في سورية، دار المعارف القاهرة، مصر، ط2 (د.ت)، ص 346.
[2]-هاني الخير، يحدثونك عن أنفسهم، ص 13.
[3]-انظر سيف الدين القنطار، بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره، ص 25.
[4]-المرجع نفسه، ص 25.
[5]-زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 26.
[6]-عدنان الخطيب، مجمعي افتقدناه بدوي الجبل، مجلة المجمع العلمي ص 223.
[7]-انظر أحمد الجندي، شعراء سوريا، دار الكتاب الجديد، بيروت. (دط.دت). ص 55.

أن الشعر العربي القديم يشكل زادا لا غنى عنه لأي شاعر يبدع بالعربية. وهذا ما ذهب إليه النقاد العرب قديما وحديثا.

ومن هؤلاء في القديم أبو هلال العسكري، حين تحدث عن أهمية الشعر العربي القديم، وذهب إلى التأكيد بأن "حاجة كل متأدب بلغة العرب إليه ماسة، وفاقته إلى روايته شديدة"[1].

ومن هؤلاء النقاد في العصر الحديث الدكتور طه حسين، الذي يرى بأن الأدب العربي القديم "مازال حيا قويا يستمد حياته وقوته من شخصيته العظيمة"[2].

ولذلك فإن بدوي الجبل قرأ أيضا كثيرا من عيون الأدب العربي القديم، كآثار الجاحظ والأمالي لأبي علي القالي والأغاني للأصفهاني[3]، بالإضافة إلى الكامل للمبرد، وصبح الأعشى للقلقشندي، وأدب الكاتب لابن قتيبة، ونهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[4].

فإذا أضفنا إلى هذه العوامل الثقافية التي توفرت للشاعر في مدرسة أسرته، أن والده كان "يستمع إلى قصائده، ويوجه له الملاحظات، وينبهه إلى مواطن الضعف والخلل في قصائده، ليتمكن من إجادة الشعر"[5]؛ لعلمنا سر تمرد تجربة بدوي الجبل الشعرية على ناموس التدرج، حين طلع منذ البداية على دنيا الشعر شاعرا من الفحول[6]؛ وكيف لا يكون يكون كذلك بعد أن وجدت شاعريته البيئة التي هيأت لها كل الظروف لكي تنمو وتكتمل

---

[1]-أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، 1952، ص 138.
[2]-طه حسين، ألوان، دار المعارف، القاهرة، 1970، ص 14.
[3]-انظر سيف الدين القنطار، الأدب العربي السوري بعد الاستقلال، ص 88.
[4]-انظر هاني الخير، يحدثونك عن أنفسهم، ص 13.
[5]-المرجع نفسه، ص 15.
[6]-انظر أحمد الجندي، شعراء سوريا، ص 55.

وتشرق على عالم الإبداع الشعري قوية ناضجة..؟ ولينتخب بعدها –ولهذا السبب– عضوا في المجمع العلمي بدمشق[1].

ولم يكن تكوين بدوي الجبل، الأدبي والثقافي، منحصرا فيما هو قديم. بل إنه "كان يميل إلى الاطلاع على كل جديد"[2]. وكان يقرأ كل ما يقع في يده من كتب أدبية وغير أدبية[3].

كما اطلع على المعارف الأجنبية المترجمة في الأدب والتاريخ والاجتماع والسياسة، لأنه لم يكن عارفا باللغات الأجنبية[4]. بالإضافة إلى أنه "كان يكثر من قراءة الصحف والمجلات"[5].

ومما تشربته شاعرية البدوي من قيم فكرية ونفسية عكستها تجربته الشعرية بعد ذلك، أن البيت الذي ولد فيه كان" بيت نبل وفضيلة سادت فيه العادات العربية الأولى من كرم نفس وحسن جوار وطيب خلق، وسخاء وكرم"[6]. كما أن والده كان من أبرز الدعاة في بيئته إلى تحرير العقل من الأفكار والعادات التي تتعارض مع تعاليم الإسلام[7]؛ فتربى الشاعر" على الإيمان بالله وعلى الحب وعلى قول الحق"[8].

كما لا يمكن إغفال ما للبيئة التي ولد فيها الشاعر من تأثير في طبعه، وهي بيئة جبلية، فانطبع منها في وجدانه قيم "النخوة والألفة والعفة والتقوى، ويتوج ذلك كله بفضيلة

[1]-انتخب بدوي الجبل عضوا في المجمع العلمي بدمشق، يوم 28-06-.1945. انظر عدنان الخطيب، مجمعي افتقدناه بدوي الجبل، مجلة المجمع العلمي. ص 265.

[2]-سيف الدين القنطار، بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره، ص 23.

[3]-انظر عدنان الخطيب، مجمعي افتقدناه بدوي الجبل، مجلة المجمع العلمي. ص 223.

[4]-انظر أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، ص 15-16.

[5]-سيف الدين القنطار، بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره، ص 23.

[6]-زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 22.

[7]-انظر سيف الدين القنطار، بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره، ص 22.

[8]-هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 10.

الفروسية الكبرى"[1].. لنكتشف بعد ذلك، أن أثر هذه البيئة الجبلية وعبير تلك التربية الأسرية، قد ألقت بظلالها الندية على تجربة بدوي الجبل الشعرية، فعكستها دون تكلف من الشاعر[2].

وقد ساعدت هذه العوامل كلها الشاعر بدوي الجبل، على توفير العناصر اللازمة لنجاح تجربته الشعرية فكريا وفنيا وخاصة بعد أن تمازجت مع المصدر التالي.

ثانيا/ التجربة النضالية

إذا كان الإنسان عامة يتأثر بالظروف المختلفة المحيطة بع في بيئته، وبما يمور في زمنه من أحداث، فما بالك بالشاعر صاحب الوجدان اليقظ المتحفز.

وقد كان على رأس الظروف والأحداث التي أثرت في الشاعر بدوي الجبل وبلورت تجربته النضالية، ما مرت به سورية والأمة العربية والإسلامية من استعمار غربي اكتسح الديار. ومن فشل النخب الوطنية السياسية ــ التي حكمت بلدان العالم العربي والإسلامي بعد رحيل الاستعمار ــ في بناء الأنظمة العادلة التي كان يسعى إلى بنائها الشهداء.

ولأن بدوي الجبل كان في قلب تلك الأحداث السياسية الكبرى، فقد أثرت أيما تأثير في تجربته الشعرية.

ولفهم تأثير هذه الأحداث في تجربة البدوي الشعرية، لا بد من الإشارة إلى أن الحياة النضالية للشاعر قد ميزتها مرحلتان مهمتان.

تبدأ الأولى، مع اندلاع الثورات المتتالية ضد الوجود الاستعماري الفرنسي في سورية، وحتى رحيله عنها عام 1946م.

---

[1]-إيليا الحاوي، بدوي الجبل شاعر الأناشيد والمراثي، ج1، ص 6.
[2]ـ انظر الفصول الثلاثة الآتية من هذه الرسالة.

وتبدأ الثانية، مع بروز ظاهرة الانقلابات العسكرية في وطن الشاعر–بعد الاستقلال– وحتى نجاته بأعجوبة من موت محقق، بعد محاولة اغتياله، بسبب قصيدته "من وحي الهزيمة"[1]، التي سجل فيها موقفا جريئا من هزيمة الأنظمة العربية أمام دولة الكيان الصهيوني في حرب جوان 1967 .. بالإضافة إلى ما جرى خلال هاتين المرحلتين من أحداث سياسية مهمة.

المرحلة الأولى

كانت سورية قبل الحرب العالمية الأولى، تئن تحت القهر والظلم، خلال العهد الطوراني التركي، الذي آلت إليه مقاليد الخلافة العثمانية، وخاصة منذ عام 1908[2]. فكان الفتى بدوي الجبل يرنو بتفاؤل إلى الغد الأفضل لوطنه وأمته وهو يستمع إلى الأخبار التي تصله عن ثورة الشريف حسين بمكة[3].

فقد كان الشريف حسين وابنه فيصل، يأملان بإقامة دولة عربية كبرى بعد التحرر من الحكم الطوراني، تعبيرا عن استيقاظ الأمة العربية ووعيها لذاتها. وقد تلقى العرب عهودا من الحلفاء في سنوات الحرب العالمية الأولى بمساندة استقلالهم وإقامة دولتهم. إلا أن العرب قد خفي عليهم أن الحلفاء كانت تحكمهم نوايا أخرى، تتمثل في فك الرابطة الروحية التي جمعت العرب والأتراك لقرون، وذلك تمهيدا لتجزئة الوطن العربي والإسلامي. وهذا ما لمسه السوريون على أرض الواقع؛ فعندما أعلنت سورية الاستقلال عام 1919 وتتويج فيصل ملكا عليها، رفضت فرنسا التي خرجت من الحرب منتصرة هذا الإعلان، فتفجر الصراع على أشده بين فيصل والشعب السوري وبين الفرنسيين.

---

[1]-انظر القصيدة في ديوان بدوي الجبل، من ص 192 إلى ص 207.
[2]-انظر عمر الدقاق، فنون الأدب المعاصر في سورية، ص 13.
[3]-انظر أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، ص 7.

وشهدت سورية منذ ذلك التاريخ ثورات متواصلة ضد الوجود الفرنسي؛ بعد أن أدرك السوريون مكر الحلفاء[1].

وقد بدأ الشاعر بدوي الجبل الانغماس في العمل النضالي وهو لا يزال فتى يافعا. وبالتحديد حين تعرف عليه رشيد طليع متصرف اللاذقية، الذي أعجب بما أنسه فيه من ذكاء عندما قام بزيارة لوالده الشيخ سليمان الأحمد[2].

وعندما اندلعت الثورة ضد المحتل الفرنسي، وتعثرت الاتصالات بين محافظة اللاذقية مع حكومة دمشق العربية رأى رشيد طليع "المتصرف العربي في اللاذقية أن خير وسيلة لنقل بعض الحقائق عن منطقته إلى حكومة دمشق العربية، إيفاد شخص واع يوثق به فيسر بها إليه، وعندما عجم عيدانه وجد أفضلها الشاب محمد بن الشيخ سليمان الأحمد مع طراوته إذ لم يكن قد تجاوز السادسة عشر إلا بقليل"[3]. وفي تلك الظروف تعرف الفتى محمد على الملك فيصل[4].

وفي هذه الأثناء نشبت ثورة الشيخ صالح العلي التي انطلقت في جبال العلويين ضد الاستعمار الفرنسي[5]. فأرسل الملك فيصل وفدا إلى الشيخ الثائر للتفاوض من أجل توحيد عمل المقاومة ضد المحتل[6]. وقد كان بدوي الجبل أحد أعضاء هذا الوفد الذي ترأسه وزير الحربية يوسف العظمة[7].

---

[1]-انظر سيف الدين القنطار، بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره، ص 10-11-12.
[2]-انظر نجيب البعيني، شعراء عرب معاصرون، ص 236.
[3]-عدنان الخطيب، مجمعي افتقدناه بدوي الجبل، مجلة المجمع العلمي. ص 224.
[4]-انظر زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 35.
[5]-انظر سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر في سورية، ص 21-22.
[6]-انظر إيليا الحاوي، بدوي الجبل شاعر الأناشيد والمراثي، ج1، ص 8.
[7]-انظر نبيل سليمان، بدوي الجبل مختارات شعرية، ص 8.

وقد تواصلت مهام البدوي التي قام بها بين دمشق والشيخ العلي، وهي أربع مهام متتالية ما جعل أعين الفرنسيين تراقبه[1]. وعندما استشهد يوسف العظمة في معركة ميسلون الشهيرة بتاريخ (1920/10/24)، واحتل الفرنسيون مدينة دمشق، صدر أمر بتوقيف بدوي الجبل[2]؛ ليقبض عليه ويزج به في سجون المحتلين، الذين "أدموا قدميه ضربا، ومعصميه تكبيلا وتشغيلا. وقد رأى في السجن كيف تستباح أرواح، وكيف يصلب مجاهدون، ثم سيق إلى حمص فبيروت حيث مكث في سجنها أشهرا، فاللاذقية حيث لبث في قلعتها حينا"[3]؛ لنكتشف بعد ذلك كيف أسهمت هذه التجربة النضالية الأليمة منذ ذلك الحين، في تلوين تجربة الشاعر بلونها المتمثل في التماهي مع قضايا الحرية والتمرد على الطغيان بكل أشكاله، والوفاء لكل القيم النبيلة وإعلان الولاء لقيم الحق والعدل والكرامة الإنسانية[4].

وتكفي الإشارة هنا، إلى أن قوات الاحتلال الفرنسي قد صادرت "ديوانه الشعري الأول لأنه كتلة من الجمر يكوي بها جباه الأعداء والغزاة والطامعين"[5]. ودون أن نتغاضى ــ في هذا السياق ــ عن الإهداء الذي تصدر الديوان، والذي قال فيه البدوي:

"إلى الشهيد الراقد في ميسلون، إلى تلك الروح الكبيرة التي تمردت على العبودية وعلى الحياة"[6].. ويعني بالشهيد يوسف العظمة. ولا شك أنه إهداء ذو دلالة واضحة على طبيعة اللون القِيَمي الذي اصطبغت به تجربة بدوي الجبل الشعرية منذ البداية.

وقد استأنف بدوي الجبل بعد ذلك نشاطه السياسي، لينتمي "إلى الكتلة الوطنية التي تشكلت منذ عام 1926م. وضمت في صفوفها آنذاك مجموعة من الوطنيين، تزعمهم

[1]-انظر زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 70.
[2]-انظر نبيل سليمان، بدوي الجبل مختارات شعرية، ص 8.
[3]-أكرم زعيتر، مقدمة ديوان بدوي الجبل، ص 9-10.
[4]-انظر تفصيل ذلك في فصول الدراسة الموضوعية من هذه الرسالة.
[5]-أكرم جميل قنبس، بدوي الجبل شاعر العربية والعرب، ص 37.
[6]-ديوان بدوي الجبل، ص 433.

رجال لامعون من جميع المناطق السورية، تمتعوا بأخلاق رفيعة وثقافة عالية، ونشأة أرستقراطية، وقد خولتهم هذه الصفات قيادة المعركة السياسية من أجل استقلال الوطن. فأظهروا في الحلبة السياسية من الحنكة ما مكنهم من عقد معاهدة 1936.واعترفت المعاهدة بالسيادة السورية، واستعادة وحدة البلاد، والعفو عن المنفيين من قادة الثورة السورية. وهيأت المناخ لانتخابات برلمانية فازت الكتلة الوطنية فيها فوزا مشهودا، وكان الشاعر في عداد الفائزين"[1].

ومع بداية الحرب العالمية الثانية سنة 1939م، أقدمت فرنسا على إلغاء المعاهدة السابقة[2]، واعتمدت على سياسة تفتيت سورية إلى دويلات طائفية، فاضطر الشاعر للفرار إلى العراق، بعد أن عارض رغبة المحتلين في تمزيق بلده[3].

ولأن مقاومة الاستعمار كانت من أهم قناعاته الفكرية والسياسية، فقد شارك بدوي الجبل إعلاميا[4]، حين كان لاجئا بالعراق، في ثورة رشيد عالي الكيلاني التي كان من أبرز أهدافها إزاحة السيطرة الأنجليزية عن العراق[5].

واضطر الشاعر للعودة إلى سورية بعد أن فشلت الثورة الكيلانية عام 1941م[6]، بعد أن قضى عليها الأنجليز[7].وقد شجعه على هذه العودة سقوط باريس في قبضة الجيش الألماني[8]؛ ليتعرض للاعتقال ـــ بعد عودته مباشرة ـــ من قبل الغزاة الفرنسيين، وليزج به به في معتقل كسب على الحدود السورية التركية[9].ويفاجأ ـــ وهو في المعتقل ـــ بفاجعة

[1]-سيف الدين القنطار، بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره، ص 44.
[2]-انظر هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة ، ص 114.
[3]-انظر إيليا الحاوي، بدوي الجبل شاعر الأناشيد والمراثي، ج1، ص 9-10.
[4]-انظر ديب علي حسن، بدوي الجبل رحلة الشعر والحياة، ص 30.
[5]-انظر نبيل سليمان، بدوي الجبل مختارات شعرية، ص 13.
[6]-انظر أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، ص 56.
[7]-انظرزهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 73.
[8]-انظر هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 114.
[9]-انظر أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، ص 56.

وفاة والده الشيخ سليمان الأحمد سنة 1942م[1]، الذي يمثل بالنسبة إليه الأب والمدرسة معا؛ الأمر الذي زاده تمردا على كل أشكال الظلم. كما جعل تمرده على طغيان المحتل أحد أهم المؤثرات في تجربته الشعرية مثلما اعترف بذلك لاحقا[2].

ومن تلك القلعة التي زج بها الشاعر، اقتيد ــ بعد ذلك ــ إلى الإقامة الجبرية في اللاذقية، ليبقى فيها سنة كاملة قبل أن يخلى سبيله[3].

وقد استمر نضال الشعب السوري من أجل نيل حريته. وتابع بدوي الجبل حياته السياسية مناضلا في صفوف الكتلة الوطنية، حتى تحقق خروج فرنسا من سورية عام 1946م[4].

المرحلة الثانية

بعد استقلال سورية، بدأت مرحلة جديدة في حياة بدوي الجبل النضالية، حيث انخرط في عملية البناء الوطني؛ إما نائبا وإما وزيرا[5].

فقد انتخب نائبا في البرلمان السوري الأول[6]. وتقلد الوزارة عن الكتلة الوطنية أربع مرات[7]، وذلك في سنوات 1954، 1955، 1956[8].

وقد ظل بدوي الجبل نائبا في البرلمان السوري حتى قام (حسني الزعيم)بانقلابه في 13 مارس من عام 1949[1]؛ ليدشن بذلك عهد الانقلابات العسكرية في سورية.

---

[1]-انظر نبيل سليمان، بدوي الجبل مختارات شعرية، ص 13.

[2]-انظر ديب علي حسن، بدوي الجبل رحلة الشعر والحياة، ص 36.

[3]-انظر نبيل سليمان، الكتابة والاستجابة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000م. ص 158.

[4]-انظر سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر في سورية ، ص 23.

[5]-انظر نذير العظمة، الله والمرأة والوطن في شعر بدوي الجبل، وقائع الندوة العربية عن الشاعر العربي الكبير بدوي الجبل، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2007م. ص 56.

[6]- انظر نبيل سليمان، الكتابة والاستجابة، ص 158.

[7]-انظر عبد الله يوركي حلاق، عشت مع هؤلاء الأعلام، ص 101، 102.

[8]-انظر نجيب البعيني، شعراء عرب معاصرون، ص 235.

ولما قام (حسني الزعيم) بتشكيل الحكومة، رفض الشاعر المشاركة فيها؛ لأنه رأى فيما قام به (حسني الزعيم) انقلابا على الشرعية[2]، فأمر قائد الانقلاب باعتقال بدوي الجبـــل "لكن محافظ اللاذقية آنئذ (سعيد السيد) والمكلف بالاعتقال هــرّب البدوي بسيارتـــه إلى بيروت"[3].

ولا بد من الإشارة هنا، إلى أن هذا الموقف الذي اتخذه الشاعر من أول انقلاب يقع في بلده، هو نفس الموقف الذي اتخذه من كل الانقلابات التي توالت على حكم سوريا؛ كذاك الذي اتخذه من(سامي الحناوي) حين انقلب على حسني الزعيم[4]. وهو الموقف ذاته الذي وقفه من العقيد (أديب الشيشكلي) الذي قام "بانقلابه في 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1951"[5]، والذي حاول استمالة الشخصيات السياسية في سورية للاعتراف بحكمه "فرضي البعض، ورفض البعض الآخر، وكان البدوي من الذين رفضوا"[6]؛ فاضطر للفرار مرة أخرى إلى بيروت بعد أن أصدر قائد الانقلاب الجديد أمرا بالقبض عليه[7].

وبعد انتهاء حكم (الشيشكلي) "في 25 شباط /فبراير 1954م عقد في حمص في نيسان/ أبريل مؤتمر ضم ممثلين عن جميع الأحزاب السورية تقريبا، أعقبه تشكيل حكومة ائتلافية، فعاد البدوي إلى دمشق وشارك في الوزارة"[8].

وفي سنة 1956م، فتح فصل جديد من معاناة الشاعر مع الحكم الوطني الاستبدادي، بعد أن اعتمدت السلطات في بلده القمع وسيلة لإسكات معارضيها، فاضطر للهرب مرة

---

[1]-انظر ديب علي حسن، بدوي الجبل رحلة الشعر والحياة، ص 30.
[2]-المرجع نفسه، ص 30.
[3]-نبيل سليمان، بدوي الجبل مختارات شعرية، ص 13.
[4]-انظر زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 73.
[5]-هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 67.
[6]-المرجع نفسه، ص 67.
[7]-انظر نجيب البعيني، شعراء عرب معاصرون، ص 237.
[8]-هاشم عثمان، بدوي الجبل شعراء آثار وقصائد مجهولة، 67.

أخرى من السلطات القمعية[1]. ومن التهم الغريبة التي وجهها النظام القمعي في سورية لبدوي الجبل، أنه كان ينوي القيام بثورة في جبال العلويين[2].. !!

وقد امتدت الغربة ببدوي الجبل عن وطنه هذه المرة طويلا، فبقي مشردا بين بيروت واسطنبول وروما وفيينا وجنيف، منذ أواخر العام 1956م حتى العام 1964[3].

وكان لهذا الموقف الذي خطه الشاعر بدوي الجبل لنفسه من أنظمة الانقلاب والقمع في وطنه، وما جره عليه من معاناة وتشرد، أعمق الأثر في نفسه. فكان الألم من أهم ملهماته بقصائد رائعة مثل "فرعون"[4]، و" البلبل الغريب"[5]، و"ابتهالات"[6]. وغيرها من القصائد ذات المضامين السياسية والفكرية والأخلاقية[7]النابعة من قناعات الشاعر المبدئية، المبدئية، الرافضة للطغيان بكل ألوانه الأجنبية والوطنية.. !

إن الظلم الذي طال الشاعر بدوي الجبل وساقه إلى الغربة، كان من أهم منابع التجربة الشعرية عنده، أو كما يقال "رب ضارة نافعة".. فرب ضرر يصيب العبقري يتفتق عنه أدب رفيع، حتى كاد الكثيرون– كما يقول أكرم زعيتر– يحمدون بسبب قصائد بدوي الجبل النابعة من نار القهر، "ظلم الظالمين قائلين: نِعْم اضطهاد العبقريين إذا اجتنت الآداب الرفيعة من روائعهم جنى"[8]؛ لأن هذا الظلم الذي يصيب العبقري، يكتب لأدبه الخلود حين يرفد الحياة الإنسانية بما تحتاجه من مواقف ومعان في صراعها الأزلي مع الطغيان، ويكيل من خلاله العبقري صفعات على وجوه المستبدين حيثما كانوا وأنى وجدوا.. !

---

[1]-انظر نجيب البعيني، عرب معاصرون، ص 235.
[2]-انظر زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 75.
[3]- انظر زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر. ص 76.
[4]-ديوان بدوي الجبل، من ص151 إلى ص 157
[5]-المصدر نفسه، من ص 158 إلى 169
[6]-المصدر نفسه، من ص 72 إلى ص 78
[7]-انظر تفصيل هذه القضايا في فصول الدراسة الموضوعية التالية من هذه الرسالة.
[8]-أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، ص 134.

وبالرغم من طول غياب الشاعر عن وطنه، وتشرده في غربته بين أكثر من بلد، إلا أن ذلك لم يفت في عضده، ولم يجعله يتزحزح عن قناعاته المبدئية السابقة، حين عاد من الغربة.

فقد استفزته هزيمة جوان 1967م ــ بعد عودته من الغربة ــ فأبدع قصيدته "من وحي الهزيمة"، التي كانت كالعاصفة في وجه الأنظمة العربية الحاكمة آنذاك، والتي لم تحسن الإعداد للمعركة، فسمحت لبني صهيون باكتساح الأرض العربية في أكثر من بلد عربي، وفي ستة أيام لا أكثر !!

وقد تعرض، بسبب قصيدته هذه، لمحاولة اغتيال نجا منها لأن أجله لم يحن. وذلك حين كان يتمشى ذات صباح "على عادته في الرياضة اليومية، وإذا بشرير يهوي على رأس الشاعر بطعن دراك أفقده وعيه، ونقل محطما إلى مكان خفي، وباءت بالإخفاق جهود موصولة للعثور عليه حيا أو ميتا"[1]. ثم طرح "خفية في إحدى المستشفيات وهو يحتضر"[2]. ولما ذهبت إليه زوجته وأولاده، لم يستطيعوا التعرف عليه، إلا من آثار السجون الفرنسية ومن ساعة يده[3]."وظل في الغيبوبة أربعين يوما"[4]، قبل أن يعود إلى الحياة ويوجه أصابع الاتهام بالاعتداء عليه إلى عبد الكريم الجندي[5] "المسؤول المخابراتي الذي لم يلبث أن انتحر في ظروف غامضة"[6]؛ فيتحقق بذلك، المعنى الذي انتهت إليه قصيدة بدوي الجبل السابقة، حين قال في آخر بيت فيها[7]:

لم أهادن ظلما وتدري الليـــالي

[1]-أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة. ص 11.
[2]-المرجع نفسه. ص 12.
[3]-انظر زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 76.
[4]-نبيل سليمان، بدوي الجبل مختارات شعرية، ص 15.
[5]-انظر زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 76
[6]-نبيل سليمان، الكتابة والاستجابة، ص 160.
[7]-ديوان بدوي الجبل، ص 207.

في غد أينا هو المدحـــــــــــور

هكذا كانت حياة بدوي الجبل النضالية، حيث بدأها معتقلا مسجونا، وأنهاها منفيا

مشردا، ثم معتدى عليه بأعتى ما يكون العدوان، قبل أن يتوفاه الله في الثامن عشر من أوت 1981م[1]. ولكن شعره بقي حيا لأنه كان خلاصة معاناته في هذه الحياة.

وقد تمازجت التجربة النضالية لبدوي الجبل مع العوامل الثقافية التي تغذّت منها شاعريته، فلوَّنتْ الموضوع الشعري عنده بسمات خاصة، عالجتها من خلال تحليل مضمون تجربة البدوي الشعرية، في الفصول الثلاثة التالية.

---

[1]-انظر أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، ص 13.

الفصل الثاني/ الوفاء والانتماء في تجربة بدوي الجبل الشعرية

- تمهيـــــد
- أولا/ الوفاء والانتماء إلى سورية
- ثانيا/ الوفاء والانتماء إلى الأمة العربية والإسلامية

تمهيد

إن طبيعة المنابع الثقافية التي ارتوت منها شاعرية بدوي الجبل، بالإضافة إلى الواقع التاريخي الذي نشأ فيه الشاعر، جعلت تجربته الشعرية على مستوى الموضوع، تتلون في أغلبها بقضايا وطنه وأمته.

وحين أتحدث عن هذا اللون من الشعر، قد يقفز إلى الذهن "شر" شعر المناسبات، فأبادر إلى القول – مرة أخرى – بأن بدوي الجبل كان في تجربته الشعرية، منفعلا بالأحداث التي مرت بوطنه وأمته. وكان انفعاله صادقا وعميقا. وبالتالي فإن الموضوع الشعري في هذه التجربة، لم يكن مجرد صدى لتلك الأحداث.

ولذلك تحولت "المناسبة" عند الشاعر إلى شرارة فجرت ينابيع الأحاسيس والمعاني التي كانت تمور في وجدانه؛ فارتقت تجربته الشعرية من حدود الحدث، إلى أبعاد إنسانية رحبة.

ولا بد من الإشارة إلى أمر في غاية الأهمية، جعل موضوع القصيدة عند بدوي الجبل يسمو على حدود المناسبة، وهو أن رؤية الشاعر للشعر باعتباره ترجمانا للقلب، مثلما بينت في الفصل السابق، تتوافق مع رؤيته للحياة، والتي يقول في شأنها: بأن "في العالم صراعا بين العقل والقلب، ولا بد أن ينتهي بانتصار القلب"[1].

وانحياز الشاعر بدوي الجبل إلى القلب، وإيمانه بأنه سينتصر في نهاية الصراع المحتدم في هذه الحياة، متأت ــ كما قال ــ من أن القلب "إبداع في الحق والخير والجمال"[2]. أي أن القلب عند الشاعر منبع القيم الخالدة، من حب وخير وجمال، وسواها

[1]- هاني الخير، يحدثونك عن أنفسهم، ص 28.
[2]- بدوي الجبل الأعمال النثرية. ص 24

من القيم الخالدة، كالإيمان واليقين والنقاء والتسامي والرحمة والنور والحنان والرجاء والطموح والقوة والسعادة والوفاء والحب والحرية[1].

ويرى الشاعر، بأن هذه القيم جعلت القلب "أوسع من كل الدنيا وأحلى وأغلى"[2]، ولكن كثيرا من العيون لا تراها بسبب ظلمة الأستار التي تحجبها، و" أن عبقرية الشاعر، وسره وسحره، أنه يجتاز هذه الأسوار ويرفع تلك الأستار"[3] كما يقول البدوي.

وعليه، فإن انتصار بدوي الجبل للقلب، على مستوى التجربة الشعرية والرؤية الوجودية، قد انعكس على الموضوع الشعري عنده، فجعله يتسم بسمتين مهمتين:

الأولى: أنه موضوع اتسم بالوجدانية، حين لونه الشاعر بأحاسيسه على طريقة الشعراء الوجدانيين؛ مما جعلني أميل إلى ما ذهب إليه الدكتور سامي الدهان، حين أدرج شعر بدوي الجبل في الاتجاه الرومانسي الذي كان سائدا في زمنه[4].

الثانية: أنه موضوع متناغم مع تلك القيم، بل انبثق منها. وليس في ذلك سر أو غرابة، لأن الشاعر قد تربى عليها في بيته وفي بيئته، مثلما سبق وتحدثت في الفصل السابق.

وتأسيسا على هاتين السمتين، فقد أحسست ــ وأنا أقوم بتحليل مضمون تجربة بدوي الجبل الشعرية ــ بعدم الرضا عن تلك العناوين التي تواضع عليها الدارسون، كــ"الشعر الوطني"، و"الشعر القومي"، و"الشعر السياسي"، حين جعلوها دالة على الموضوع الشعري المرتبط بقضايا الأوطان. وزهدي في هذه العناوين ليس من قبيل الطعن فيها أو التقليل من شأنها، وإنما مراعاة للاعتبارين الموضوعيين السابقين.

---

[1]- انظر بدوي الجبل الأعمال النثرية. ص 21-22-23-24.
[2]- المصدر نفسه، ص 25.
[3]- المصدر نفسه، ص 25.
[4]- انظر سامي الدهان، الشعراء الأعلام في سورية، ص 230.

ولذلك اخترت لهذا الفصل وللفصلين التاليين ـــ وهي الفصول التي تناولتْ مضمون التجربة الشعرية عند بدوي الجبل ـــ عناوين أخرى أكثر دقة في الدلالة على علاقة الموضوع الشعري عند بدوي الجبل بمنظومة القيم التي انبثق منها من ناحية وبرؤية الشاعر للتجربة الشعرية ـــ التي جسدها في شعره ـــ من ناحية أخرى.

الوفاء والانتماء في تجربة الشاعر

وقد جاء هذا الفصل تحت عنوان "الوفاء والانتماء" في تجربة بدوي الجبل الشعرية، ليدل بوضوح على هذه الرؤية وذلك الانبثاق ـــ اللذين أشرت إليهما ـــ كما أنه أكثر دقة من حيث التعبير عن أحد الجوانب الموضوعية المهمة في تلك التجربة.

والعنوان بصيغته هذه يعبر عن وفاء الشاعر لوطنه وأمته والاعتزاز بالانتماء إليهما. والحق أن هذا الانتماء وذلك الوفاء، لهما من الأمور الطبيعية لدى كل إنسان سوي. إلا أنهما يكونان أكثر هيمنة على وجدان هذا الإنسان حين يكون الوطن أو الأمة في محنة، كمحنة الاحتلال للأرض أو العدوان على الهوية.

فقد كانت سورية وطن الشاعر في ظل العثمانيين مندمجة مع غيرها من الأقطار العربية والإسلامية في وحدة طبيعية، قبل أن تتكرس التجزئة على مائدة اللئام في الغرب، فبرزت بعدها نعوت مضافة إلى المواطن العربي، فهذا سوري أو فلسطيني أو جزائري أو... فكان من الطبيعي أن يتغنى الشعراء بأوطانهم الصغيرة وإن ظل الحنين يشدهم إلى الغاية الرحيبة[1].

وقد كان لمأساة التجزئة ثم الاستعمار الذي جثم على صدر الوطن السوري، والذي سبق بمأساة أخرى ممثلة في الاستبداد الذي فرضه الأتراك الطورانيون على أبناء سورية؛

[1]- انظر عمر الدقاق، فنون الأدب المعاصر في سورية، ص 10.

كل ذلك كان له أسوأ الأثر في حياة سورية السياسية والفكرية والاجتماعية والحضارية[1] ، فكان من الطبيعي أن يكون لهذه الآثار السيئة تأثير كبير في نفسية بدوي الجبل كإنسان وفي تجربته كشاعر[2]، فجاء موضوع الوفاء والانتماء في هذه التجربة، وليد تلك الأحداث التي هزت وجدانه واكتوت بنارها حياته.

ويتمحور شعر الوفاء في تجربة الشاعر، حول قضيتين مركزيتين هما: وطن الشاعر الصغير وأعني به سورية، ووطنه الكبير ممثلا في الأمة العربية والإسلامية.

أولا/ الوفاء والانتماء إلى سورية

تشكل سورية مكونا مهما في تجربة بدوي الجبل الشعرية؛ لأنها عزيزة عليه، ومصدر إلهامه. وإن الحديث عن الوفاء لهذا المكون والانتماء إليه في تجربة الشاعر يجرني إلى التذكير بأن موضوع المكان يكتسي أهمية خاصة في الشعر العربي، منذ أن وقف الشاعر القديم على الأطلال يبكي ويستبكي، كما يجرني إلى الإشارة إلى أن أهمية سورية باعتبارها مكانا، لم تكن بالأمر الجديد عند بدوي الجبل، لأن شعراء سوريين سبقوه وآخرين عاصروه قد تغنوا بها. إلا أن اللافت في تجربة بدوي الجبل عن سورية، أنه ذكرها فيما يقرب من نصف قصائده الشعرية وهو ما لم أجده إلا عند شعراء قلائل في القديم و الحديث ، مما يؤكد شغف هذا الشاعر بوطنه الصغير، وأن هذا الشغف هو منبع وفائه له واعتزازه بالانتماء إليه.

وحين نسأل عن سر هذا الشغف، فإن الشاعر يجيب بقوله[3]:

لا تلمه إذا أحب الشآمـــا

---

[1]- انظر عمر الدقاق، فنون الأدب المعاصر في سورية. ص 15.

[2]- إن تلك الأحداث السياسية التي عاشتها سورية، قد طبعت الشعر السوري الحديث عامة بطابعها، واستحوذت على اهتمام الشعراء السوريين جميعا. انظر سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر في سورية من ص 9 إلى ص 41. وأحمد الجندي ، شعراء سورية من ص 17 إلى ص 127.

[3]- ديوان بدوي الجبل ص 516.

طابت الشام مربعا ومقاما

ما رأينا الشـــام إلا رأينا

منزلا طيبا وأهــلا كراما

بردى والورود في ضفتيه

مصغيات لشعره والخزامى

فالشاعر لا يقبل أن يلام على حبه لوطنه، لأن هذا الوطن هو مسقط رأسه، فضلا عن أن كل ما فيه جميل، فكل مكان فيه طيب، وأهله كرام، وطبيعته بلغت حدا من الروعة لا نظير لها؛ حيث أن نهر بردى لا يتدفق ماء كسائر أنهار الدنيا، بل يتفجر شعرا، وأن الورود والأزهار على ضفتيه مصغيات إلى ما يترنم به من شعر أخاذ.

ولذلك فإن الشاعر لا يمل الحديث، حين يكون هذا الحديث عن وطنه مهما طال أو امتد. ليخلص إلى الإشارة بأن تعلقه بوطنه بلغ درجة التوحد، لأنه ما تعلم الشعر إلا من بردى، ومن زقزقات طيور الوطن. وعليه فإن يوما يقضيه في ربوع مدينة من مدنه ولتكن دمشق، يعادل عاما يقضيه في مدينة أخرى غير سورية، فيقول[1]:

هات حدث عن الشـــآم وحدث

وأطل في الحديث عنها الكلاما

عن رباها عن غيدها سارحات

يتهاديــن في الحمى آرامـــا

من أغاني طيورها ساجعـــات

---

[1]- ديوان بدوي الجبل ص 516.

قــد تعلمت هــذه الأنغامـــا

أعطني في ربوع جِــلقَ يوما

يا خليلي وخذ من العمر عاما

وبدوي الجبل حين يؤكد، على علاقة الشغف هذه بوطنه وبكل مكونات هذا الوطن إلى حد التوحد ــ على طريقة الشعراء الرومانسيين حين يندمجون بعناصر المكان ــ إنما يفعل ذلك بغرض رسم حقيقة العلاقة بينه وبين وطنه .. وفي ذلك فيقول[1]:

تشدو الحمائم في الشآم وإنما

أنغام هذا الشعر من أنغامهـــا

فهي علاقة أعمق من أن تكون مجرد انتماء بالمعنى المتداول للفظة "الانتماء"، إنها الاندماج بين الشاعر ووطنه .. حيث ذاب البدوي في سورية، وذابت سورية فيه. وأن هذا الاندماج لا تنفصم عراه أبدا. وفي ذلك يقول[2]:

وأعشق برق الشام إن كان ممطرا

حنونا بسقيـــاه وإن كان خلبـــا

وأهوى الأديم السمح ريان مخصبا

سنابله نشوى وأهــواه مجدبـــا

وعلاقة التوحد والاندماج هذه بين الشاعر ووطنه لم تكن وليدة لحظة وجدانية عابرة حتى تخبو، بل طبعت حياة الشاعر منذ أن تفتحت عيناه على تراب الوطن، وعلى طبيعته

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 527.

[2]- المصدر نفسه. ص 165.

الجميلة، فيقول[1]:

أَتَذْكُرُ في الشآم لنا عهــودا

معطرة كأنفاس الكعــاب

نُطَوِّفُ ما نُطَوِّفُ ثم نــأوي

إلى أفنانها النضر الرطــاب

وننشدها النسيب على ذبــول

فيغنيها النسيب عن الربـــاب

ورود الشام تسكرها القوافي

وتهــفــو للتوجــع والعتــاب

وتطرب للندي من المعاني

فتجزي بالظــلال وبالمـــلاب

وتأسيسا على هذه العلاقة، انبجس نبع وفاء الشاعر لوطنه فكان وفاء أبديا، عبر عنه الشاعر من خلال تلك العاطفة الأصيلة التي أحس بها تجاه بني وطنه مذ كان وليدا، وهي عاطفة الألفة الصافية .. يقول[2]:

وأصفيتُ أبناء الشـــآم مودتي

صغيرا وما نيطت عليَّ التمائم

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 418

[2]- المصدر نفسه. ص535

ويزداد التوحد بالوطن قوة وحرارة حين يكون الشاعر بعيدا عن هذا الوطن؛ فيشتعل ضرام الحنين إليه، وهو ضرام لا تطفئ لهيبه أنهار الدنيا، حتى إذا ما حاول أن يغالب أشواقه إلى ذلك الوطن فإن ضرام شوقه يزداد اشتعالا. وفي ذلك يقول[1]:

يا شام عطر سريرتي حـــب لجمرته التهاب

أنت اللبانة في الجوانح لا النوار ولا الرباب

غالبت أشواقي إليك ويضرم الشوق الغـــلاب

ولأن تعلق الشاعر بوطنه بهذه القوة من الذوبان، فإنه قد داس على كل المغريات إن كانت على حساب المصلحة العليا للوطن، فيشير في هذا السياق "إلى ما تعرض له من إغراء فاق كل الحدود ليوافق على قرار فصل محافظة اللاذقية عن سورية فرفض ولجأ إلى العراق"[2] ، وراح يخاطب رئيس وزراء العراق يومئذ، رشيد عالي الكيلاني بقوله[3]:

قل للرئيس تحية من شاعـــر

لم يقو بالبلوى فضج وباحا

جليت له الدنيا وزُوِّق حسنها

فزوى بحر جبينه وأشاحا

وفي هذا السياق فإن سورية حين تعرضت للاحتلال الفرنسي، أدرك الشاعر بدوي الجبل الآلام الكبيرة التي يتعرض لها وطنه. غير أن ثقته في يوم تتحقق فيه إرادة هذا الوطن في الاستقلال، لم تفارقه.. وهذه الثقة لدى الشاعر استمدها من قراءته لتاريخ

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 77

[2]- المصدر نفسه. هامش ص 87

[3]- المصدر نفسه. ص 87، 88

وطنه، ومن وعيه بأن أبناء وطنه كلما كانوا أوفياء لهوية بلدهم فإن استقلال هذا البلد عن المستعمر الغاصب سيكون هو النتيجة الحتمية في نهاية المطاف. وفي ذلك فيقول[1]:

خلُّوا الشام وداميات كلامها

لا تهتكوا الأستار عن آلامها

عربية الأنساب تطرب للوغى

في جاهليتها وفي إسلامهـــا

ولقد أراد بها القوي تحكما

فتتمرت أنفا على حكامهـــا

والحق تبلغه ببأس حماتها

لا باستكانتها ولا استرحامها

فالشاعر، ومن منطلق الوفاء لأبناء وطنه، ينبههم إلى أن البكاء على جراح الوطن طويلا لا يفيد، وإنما الذي يفيد هو ألا يغيب عن وعي هؤلاء الباكين، أن لهذا الوطن شخصيته التي تشكلت على مر العصور، وأن من أبرز القيم التي تمثلها بنوه في تلك العصور، أنهم كانوا لا يستكينون للباطل ولا يقبلون الظلم. وأنهم كانوا على الدوام يتسلحون بالبأس الشديد في مواجهة المعتدين، فكانوا على الدوام يعيدون الحق إلى نصابه. وعليه فإن إزاحة المستعمرين عن كاهل الوطن لا تكون بالبكاء صباح مساء على أطلاله ولا بالاستكانة للعدو أو طلب الرحمة منه. وإنما تتم بإحياء قيمة الكفاح في النفوس المحبة لوطنها، الوفية لهويته.

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 526-527.

وفي هذا المضمار لا يتوانى الشاعر عن تذكير أبناء وطنه ببعض الشخصيات التاريخية التي سطرت مجد وطنه بأحرف من نور كخالد بن الوليد وغيره من القادة الذين لقنوا الغزاة دروسا في الشجاعة والإباء، فبقيت سيرهم ضاربة بجذورها في طبيعة الوطن، تستلهم منها الأجيال على الدوام العبر كلما سعى غازٍ لفرض هيمنته على الوطن. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

على الرمال طيوف من كتائبنـــا

نشوى الفتوح ونفح من سرايانا

لابن الوليد على كثبانها عبـــــق

ســـقى الهجير من الذكرى فندانـــا

وفي النسيم على الصحراء نرشفه

طيب المُثَنَّى على رايات شيبانـــا

ولأن شمائل أولئك القادة التاريخيين قد تمازجت مع طبيعة الوطن الجميلة، فإن هذا التمازج جعل الطبيعة تنتظر بشغف قادة من أبناء الوطن ــ وخاصة في زمن محنته ــ يعانقون تلك الشمائل من جديد، فتكون لهم ناصرا ومعينا على العدو الغاصب. فيقول البدوي[2]:

شمائـــل الصيد من قومي معطـــرة

بمترف الحق لا غالوا ولا جحدوا

يصيح ألف صدى في الرمل منتظرا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 137
[2]- المصدر نفسه. ص 304، 305

أن يستثير الصحارى فارس نجد

وحين سعى الاستعمار الفرنسي إلى تقسيم سورية إلى دويلات، بعد احتلاله لدمشق، عملا بسياسته "فرق تسد" ، أعلن بدوي الجبل النزوع الوحدوي لجبل العلويين، الذي سعت فرنسا إلى جعله دويلة[1] . كما حذر في الوقت نفسه من التفريط في وحدة الوطن، وندد بالخونة السائرين في ركب الاستعمار، والذين عملوا على تجسيد سياسته هذه. وفي ذلك يخاطب بني وطنه[2]:

يريدون هذا البعد بيني وبينكم

فلا نعمــوا بالا ولا صحبــوا يمنـــا

هم حجبوا عنا نسيم حمـــاكم

وهـــم نقلـــوا زور الحديث لكم عنـــا

لئن خان عهدا الغوطتين عصابة

رأوا بيعهـــم ربحـــا وألفيـــته غـــبنا

ففي الجبل النائي لعصبة جِلَّـــقِ

من القوم خِدْنٌ لم يخن في الهوى خدنا

ويتعجب الشاعر أشد العجب من هؤلاء الخائنين، كيف سولت لهم أنفسهم نكران جميل بلادهم عليهم والارتماء في أحضان العدو ؟ وكيف تخلوا عن فضيلة الولاء لبني

[1]- انظر نبيل سليمان، بدوي الجبل، مختارات شعرية، ص 9.
[2]- ديوان بدوي الجبل. ص 445- 446

جلدتهم ؟ وكيف غاب عنهم أن يشتبهوا ــ على الأقل ــ بالحيوانات العجماوات وهي تنفر بفطرتها من العقوق لبني جنسها؟ .. فيقول عن هؤلاء الناكرين الخائنين[1]:

واخجلتي للناكرين جميلهـــا

والثالميـــن مع العدو غرارهـــا

عقُّوا البنين وما سمعتُ بناقة

وطئت على مهد الصعيد حوارها

ثم يشير الشاعر إلى فئة أخرى من أبناء وطنه، تسلحت بقيم العلم والثقافة والوعي والأخلاق والولاء للوطن، فيستبشر بها؛ لأنها بذلك تقيل الوطن من عثرته وتصون هويته وتدافع عن قضيته ، فتعيده إلى معانقة المجد من جديد. فيقول[2]:

مرحى لناشئة الشآم ومرحبا

بالنشء إن عثرت أقال عثارها

الناهضين ليمنعوا ميراثها

ويجددوا علياءهـــا وفخارهـــا

أسهرتم جفن العدو ورحتم

ندمان كل فضيلـــة سمارهـــا

ورفعتم ركن القضية عاليا

بجهادكم وكشفتـــم أسرارهـــا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 524- 525
[2]- المصدر نفسه. ص 523- 524

إن إشارة الشاعر إلى الرعب الذي تملك العدو وأذهب النوم من جفينه بسبب تشبث هذه الفئة من أبناء وطنه بكل فضيلة، يحيل إلى إدراك البدوي لأهمية العلم والثقافة والوعي في مسيرة الأوطان .. وأن الوطن الذي يتربى أبناؤه على هذه القيم سينتصر لا محالة على أعداء الحياة. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

الدهر ملك العبقرية وحدهـــا

لا ملك جبار ولا سفـــاح

والكون في أسراره وكنـــوزه

للفكر لا لوغى ولا لسلاح

لا تصلح الدنيا ويصلح أمرها

إلا بفكر كالشعاع صـــراح

ثم يلتفت الشاعر إلى هذه الفئة، مطمئنا إياها إلى أنها بتلك الخلال التي توفرت فيها، ستجني في الغد القريب حتما ثمار جهودها، فيكون غد الوطن خيرا من يومه. ويحرضها في الوقت نفسه على التعامل بمنطق المقت والمفاصلة مع الفئة الخائنة السابقة التي ارتمت في أحضان العدو، حين أعطته ولاءها وأدارت ظهرها للوطن. فيقول[2]:

لا تقنطوا فلقد غرستم جنة

تجني أكفكم غدا أثمارهـــا

وخذوا شعاركم القِلى لعصابة

تَخَذَتْ موالاة الغريب شعارها

1- ديوان بدوي الجبل. ص 308.

2- المصدر نفسه. ص 524.

وفي هذا السياق، يلتفت الشاعر إلى جيل الشباب الذين يمثلون أمل الوطن في الانعتاق من كل شر، وبخاصة شر الاحتلال الأجنبي ، محذرا إياهم من داءين خطيرين وهما: الركون إلى اليأس الذي قد يتسلل إلى نفوسهم بسبب الظلم والقهر المسلطين على الوطن، والأهواء التي قد تعصف بهم، فيقول[1]:

فمن مبلغ عني الشباب قصيدة

يحلى بها مُلك ويحمى بها ثغـــر

أعيذ من اليأس المرير نفوسكم

تلاقى على إعناتها الظلم والقهــر

إذا ركدت بعد الهبوب فإنها

لكالبحر من أخلاقه المد والجزر

وأنتم على دل الشباب وزهوه

وأهوائه ركن القضية والذخـــر

ولأن العلماء في كل وطن من الأوطان هم حداة نهضته وبناة مجده، فإن الشاعر يشد على أيادي رجال المجمع العلمي في وطنه، الذين مهدوا الطريق بجهودهم العلمية أمام أبناء الوطن عامة، ولفئة الشباب خاصة لإنقاذ البلد من التخلف ومن الاستعمار. فيخاطبهم بقوله[2]:

يا عصبة[3] الصيد الغطاريف الألى

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 267 - 268

[2]- المصدر نفسه. ص 522- 523

[3]- يعني بالعصبة "رجال المجمع العلمي"، انظر ديوان بدوي الجبل، هامش ص 522.

حفظوا الجدود وخلدوا آثارها

هذي سيوف الفاتحين من البلى

قد صنتم أجفانها وشفارهــا

أرجعتم صور العروبة غضة

فكأنكم أرجعتم أعصارهــا

وحين يتخطف الموت بعضا من هؤلاء العلماء، فإن ذلك يعد خسارة فادحة في حق مسيرة الوطن نحو النور، لا تعدلها خسارة .. فيقول الشاعر[1]:

يطوي الزمان النابغين فتنطوي

لذهابهم أمم ويهلك جيــل

ولرب نعش غاب في طياته

فتح أغر وموطن وقبيــل

ولهذا يمتد وفاء بدوي الجبل إلى هؤلاء الذين بذلوا أعمارهم وجهودهم وعملهم من أجل رفعة الوطن حين يموتون، بل يمتد إليهم وهم في العالم الآخر وذلك صونا لمآثرهم من الغدر، ولذكرهم من النسيان. ولكي تبقى مآثرهم هذه نبراسا للأجيال المتعاقبة. وهذا أحد المقاصد المهمة .. وفي ذلك يقول[2]:

فيا قلب فيك الراحلون وإن نأوا

وفيك الندامى والرياحين والخمر

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 506.
[2]- المصدر نفسه. ص 263.

وفاء يصون الراحلين من الردى

إذا راح يدني من مناياهم الغدر

والوفاء لهذا الصنف من أبناء الوطن ــ الذين رحلوا عن الدنيا ــ هو في شعر بدوي الجبل، وفاء كذلك لمنظومة القيم التي عاشوا لها وماتوا من أجلها. ولذلك فإن الشاعر لا ينظر من خلال تجربته الشعرية إلى من مات من أبناء وطنه من أجل رفعة هذا الوطن، نظرة المتشائم ــ لأنهم ماتوا وكفى وبالتالي يا ليت الموت لم يتخطفهم.. ! ــ بل ينظر إليهم من خلال وضع جهودهم في موازين القيم التي تحكم تجربته الإنسانية والشعرية؛ فإذا بمن مات في ميادين الوفاء للوطن والولاء له، لا يزال حيا تستقي الأجيال منه دروسا لا تنقضي في الإخلاص الوطني؛ لأنه بذل دمه وروحه دون تردد فداء للوطن فبلغ بذلك أسمى درجات الجود والإحسان. يقول البدوي[1]:

يعطي الشهيد فلا والله ما شهدت

عيني كإحسانه في القوم إحسانا

وغاية الجود أن يسقي الثرى دمه

عند الكفاح ويلقى الله ضمآنا

ومن كان بهذه الصفات السامية، فإنه حين يرحل إلى العالم الآخر لا تموت صفاته، بل تبقى مشعلا ينير السبيل لمن بعده. وذلك هو المعنى الذي يستشف من قول الشاعر عندما تحدث عن أحد أبطال وطنه الذي غيبه الموت[2]:

غاب سعد عن العيون وما غـــا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 82.

[2]- المصدر نفسه. ص 234.

ب ضياء يهدي القلوب فتهدى

ويعني بسعد هنا (سعد الله الجابري) أحد قادة الحركة الوطنية السورية الذي كان "دنيا من البطولة الوطنية والمروءة والصراحة والعفة والوفاء"[1]، ورحل عن هذه الدنيا سنة 1947[2]. ولكن مآثره بقيت ضياء للقلوب؛ فيكون بسيرته قد أحدث ثورتين واحدة في حياته التي سخرها كلها من أجل عزة وطنه، والثانية بصفاته الهادية للأجيال بعد مماته. وفي ذلك يقول الشاعر بعد البيت الشعري السابق مباشرة[3]:

ثورة في الحياة والموت جلَّتْ

ثورة الحق أن تقر وتهــدا

ومما لا ريب فيه أن بدوي الجبل وهو يتحدث عن أهمية القيم للحياة والإنسان، والتي تجسدت بوضوح في الجيل الذي ضحى بعلمه وجهده وعمره وحياته من أجل وطنه، يجعلنا نكتشف من طرف خفي وفاء الشاعر وولاءه لهذه المنظومة من القيم التي جمعته بصديقه الراحل ــ سعد الجابري ــ الذي كان أحد إخوانه في العمل الوطني[4].

وقد أشار الشاعر إلى القيم السابقة نفسها عندما تحدث عن رفيق له آخر رحل عن هذه الدنيا، ألا وهو (إبراهيم هنانو) الذي كان زعيم الكتلة الوطنية [5]، حين وافاه الأجل[6] . مطمئنا إياه ــ في عالمه الآخر ــ بأن المسيرة التي أرسى أسسها لا تزال كما هي وفية

[1]- ديوان بدوي الجبل، هامش ص 224.
[2]- انظر أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، ص 66.
[3]- ديوان بدوي الجبل. ص 224.
[4]- انظر هاشم عثمان، بدوي الجبل، آثار وقصائد مجهولة، ص 114.
[5]- انظر سيف الدين القنطار، بدوي الجبل، دراسة في حياته وشعره، ص 51.
[6]- توفي إبراهيم هنانو عام 1935. انظر سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر في سورية، ص 22.

وقوية، وأنها ماضية بثبات إلى الأمام لتحقيق الأهداف الكبرى، وعلى رأسها إنقاذ الوطن من الهيمنة الاستعمارية. فيخاطبه بقوله[1]:

أبا طارق[2] هذي سراياك أقبلت

يرف على أعلامها العز والنصر

لقد قدتها حيا وميتا فما ثنـــى

شكيمتها عنف ولا هدهـــا ذعــر

أبا طارق أبقيت للحق سنة

هي العزة القعساء والفتكـــة البكـــر

بنيتَ عليها كتلة وطنيـــة

من الصيد ما خانوا هواك ولا فروا

ولا يغيب عن الشاعر وهو يتحدث عن رفيقه الرمز، أن يشير إلى خصلة جليلة في الفقيد، وهي أنه ــ ولشدة تمسكه بكل ما هو جليل ــ أبى أن يأسى له أي من رفاقه في النضال، بسبب ما أصابه من الأسقام .. بل إن نفسه تأبى أن تذل للأدواء؛ لأنه تعلم من خلال تعلقه بوطنه ووفائه له، ألا يذل لشيء، ولو كان هذا الشيء هو الداء العضال ! وفي ذلك يقول الشاعر عن رفيقه الرمز[3]:

يغالب البشر أسقاما نزلن به

يأبى له الكبر أن يأسى لها أحد

[1]- ديوان بدوي الجبل، ص 263- 264
[2]- إن أبا طارق هو "المغفور له إبراهيم هنانو". انظر ديوان يدوي الجبل، هامش ص 263.
[3]- المصدر نفسه. ص 220

داء ملح ونفس لا تذل لـــه

حرب تكافأ فيها البأس والعُدد

ومن كان بهذه الصفات فقد خلف وراءه إخوانا له في النضال ــ وشبابا رباهم على قناعاته ــ لا يقلون عنه وفاء وولاء وتعلقا بوطنهم. وكيف لا يكونون كذلك وهم رفاقه في الكفاح الوطني الذين تنير لهم مآثره الطريق وخاصة حين تدلهم الخطوب؟ فيقول[1]:

إذا الزعيم تولى عن شبولتها

حمى الشبولة إخوان له نُجُـــــد

أما الشباب فما خانوا رسالته

عند الكفاح ولا حادوا ولا جحدوا

إذا دَجَتْ ظلمات اليأس حالكة

شق الدجى كوكب من ذكره يقـــد

حول الزعامة فتيان غطارفة

لا ينقض الدهر ما شدوا وما عقدوا

المؤمنون إذا ما بايعوا صدقوا

والصابرون فإن جد الوغى صمدوا

ولما كان رفاق الشاعر الراحلون إلى الدار الآخرة بتلك الصفات الجميلة، وبذلك الأثر الذي تركوه في الأحياء، فإنه حين يتحدث عنهم، يناجيهم وكأنهم يسمعونه، بل

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 221- 222

ويطالبهم بالاستمرار في النضال وإصدار التوجيهات اللازمة لتسديد المسيرة. وفي ذلك يخاطب زعيم الكتلة الوطنية الراحل (ابراهيم هنانو)، وكأنه لازال حيا[1]:

فمُرْ تسمع الدنيا هواك وينطلق

إلى الفتح بعد الفتح عسكرك المجــر

والشاعر إذ يخاطب صديقه الراحل بهذه اللغة، فلأنه يعلم يقينا أن الموت ليس عدما وإنما هو خلود؛ خلود في الدنيا بالمآثر التي لم تمت بموته، وخلود في العالم الآخر لأنه عاش لتلك المآثر ومات من أجلها .

ولجلال مآثر هؤلاء الراحلين، التي جعلت وفاء الشاعر لهم حيا وعميقا، راح البدوي يكذب الموت فيهم، ويعلل نفسه أنهم ربما يكونون قد نزلوا عن سروج الخيل وتوسدوا الرمل ليرتاحوا قليلا من عناء الكفاح، فأخذتهم غفوة التعب فناموا؛ حتى إذا ما رويت جفونهم من لُبانات الكرى نهضوا واستأنفوا عهدهم مع الكفاح .. فيقول[2]:

أكذب الموت فيهم حرمة وهوى

وللأمـــاني طريق هين جَـــــدد

لعلهم من عناء الفتح قد نزلوا

عن الصوافن فوق الرمل واتسدوا

لعلها غفوة الواني فإن رويت

جفونهم من لبانات الكرى نهــدوا

1- ديوان بدوي الجبل. ص 264.

2- المصدر نفسه. ص 289

وبهذه الرؤية التي تحكم تجربة بدوي الجبل الشعرية، والمتمثلة في كون الراحلين عن هذه الدنيا من أهل المآثر الكبيرة أحياء وإن غيبهم الموت، فإن الشاعر حين أراد أن يعلي في مهرجان لأبي العلاء المعري قيمة العروبة باعتبارها حلقة مهمة في هوية وطنه، توجه إلى الشاعر العربي الخالد بقوله[1]:

هذي العروبة في حماك مُدِلَّة

ريع العدو بها وضاق اللاحي

فكأن بدوي الجبل يخاطب هنا، بطلا استثنائيا ما زال يعيش في هذه الدنيا لا شاعرا مات منذ قرون، وأن العروبة في حمايته مزهوة، وأن العدو قد أصابه الرعب من هذه الحماية.

وحين يتذكر الشاعر ما بذله من جهد من أجل الوطن مع هؤلاء الراحلين ــ كعمله وزيرا في وزارة الرئيس (فارس الخوري) في خمسينيات القرن الماضي[2]ــ يشير إلى أن العمل المضني الذي جمعه مع الراحل (فارس الخوري) لا يمكن تسميته، من باب الوفاء للوطن، عملا مضنيا، وإنما هو من الأماني الجميلة؛ لأن كل جهد يبذل في سبيل رفعة الوطن مهما كان شاقا فإنه يبعث في القلب السعادة والانتشاء. وفي ذلك يقول[3]:

منتدى الشام والوزارة ضمَّا

نا عريقا يصفي هواه عريقا

وهموم كأنهن الأمانـــيُّ

جمالا ونشـــوة وسموقـــا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 316.
[2]- انظر المصدر نفسه، هامش ص 256.
[3]- المصدر نفسه، ص 256.

مترفات ترعرعت في فؤاديْـــ

نا وطابت شمائلا وعروقـــا

ولأن لكل بداية نهاية، ولكل مقدمة نتيجة، فقد تضافرت الجهود السابقة كلها فشكلت قوة ضغط جبارة أشهرها أبناء سورية في وجه العدو الفرنسي، فأجبرته على الرحيل في أفريل 1946م، وتحقق الاستقلال للوطن السوري.

ومع هذه الصفحة الجديدة التي فتحت في تاريخ سورية الحديث، تفجرت الفرحة كالشلال في وجدان الشاعر بدوي الجبل، فراح يغرد في هذا اليوم الأغر، ويدعو الدنيا قاطبة أن تشاركه وأبناء وطنه فرحتهم الغامرة .. فيقول[1]:

الزغاريد فقد جُـــنَّ الإبـــاء

من صفات الله هذي الكبرياء

أيها الدنيا ارشفي من كأسنا

إن عطر الشام من عطر السماء

ويستمر تدفق المعاني الشعرية الجميلة من وجدان الشاعر، والتي تدل على علاقة الاندماج بينه وبين وطنه والوفاء لكل مكونات هذا الوطن، من تاريخ وهوية وشهداء وشعب وقادة.

فيستعرض مكانة سورية في التاريخ على طريقة التداعي؛ فهي أرض مشهود لها بالبأس قبل الإسلام وبعده .. وأما أديمها فقد بلغ حدا من الجمال خيل للشاعر أن أنبياء الله عليهم السلام ربما أحسوا بروعة هذا الجمال فأغفوا بين أحضانه .. يقول الشاعر[2]:

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 94- 95

[2]- المصدر نفسه. ص 94.

هي في غسان بأس وندى

وهْي في الإسلام فتح وبـــلاء

الأديم السمح عطر ورؤى

ربما أغفـــى عليـــه الأنبيـــاء

وقد استبد هذا المعنى الأخير بخيال الشاعر فجعله يتصور أن جنة عدن رغم جمالها الذي لا يخطر على بال البشر ــ مثلما تحدثت عنه رسالات السماء ــ إلا أنها تغار من جمال أرض هذا الوطن. وفي ذلك يقول[1]:

واعذروا عدنا على غيرتها

إنها والشام في الحسن سواء

ولذلك فإن قوافل الشهداء الذين رووا بدمائهم تراب الوطن قد استبد بهم الشوق والوفاء في هذا اليوم الكبير إلى سورية، فيقول الشاعر[2]:

شهداء الحق في جنتهم

هزهم للشام وجْد ووفـــاء

ثم يسترسل الشاعر في تعداد بعض مظاهر الجمال الفريدة في وطنه، والتي جعلت جنة عدن تحس بالغيرة ودفعت شهداء الحق في تلك الجنة إلى الحنين إلى وطنهم، فيقول[3]:

وعلى كل مكان جِـــدَةٌ

تأسر العين ونعمى ورواء

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 95.
[2]- المصدر نفسه. ص 95.
[3]- المصدر نفسه. ص 94.

خالف المشهد فيها جاره

فلِـــدات الحسن شتى غرباء

كل حسن بدعة مفردة

ليس بين الحسن والحسن إخاء

وأما ورود هذه الأرض الجميلة الفواحة، فهي من دماء أولئك الشهداء التي أعادت هذا الوطن إلى أهله، وصنعت عرسه الذي انتشت له الآفاق. يقول الشاعر[1]:

الورود الحمر ذكرى وهوى

وطيوف من جراح الشهداء

نفحة الصبح على غوطتنا

خبر عنهم وأطياب المساء

حملت زغردة العرس لكم

فانتشى الأفق ولم يصح الهواء

ولأن شهداء سورية قد هزهم الحنين، في هذا اليوم بالذات إلى وطنهم، وهم في جنة الفردوس، فإن أهل الجنة قد شد انتباههم حنين هؤلاء؛ فراحوا يتساءلون عن النبأ ــ نبأ تحرير سورية ــ الذي كانوا يترقبونه، إن كان قد تحقق؟ فانبرى الشاعر يزف لأولئك المنعمين في الفردوس، خبر اندحار العدو عن الوطن، بفضل التضحيات الجمة التي بذل فيها أبناء سورية أنهارا من الدماء. فيقول[2]:

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 95.

[2]- المصدر نفسه. ص 98- 99

همس الفردوس هل من نبـــأ

عن ربى الغوطة معسول الرجاء

ونعم عنديَ بشرى عطـــرتْ

بالزغاريـــد وجـــوه البُشـــراء

انتزعنا الملك من غاصبـــه

وكتبنا بالدم الغَمْـــر الجـــلاء

بل إن نسيم الصبا قد نقل أفراح أبناء سورية في هذا اليوم الشاعري الجميل إلى أولئك المنعمين في جنات الله؛ فتملكهم فرح غامر أخرجهم عن طورهم وأوقعهم في الخيلاء. ولكن الله الرحيم يعلم أن هؤلاء ما اختالوا عن كبر أو بطر، ولذلك فإن الشاعر يدعو الله أن يغفر لهم خيلاءهم ذاك، فيقول[1]:

كلما هبت صبا من (دمـــر)

رنَّح الجنة طيبٌ وغناء

خيلاء الحق في عدن لكم

يغفر الله لقومي الخيلاء

ويلتفت بدوي الجبل إلى أوفى أوفياء وطنه، الذين لم يبخلوا عليه بأرواحهم، فسطروا بدمائهم أروع الصفحات في تاريخه الحديث، ويقول بأنه لا يبكيهم لأن بكاء الشهداء ضعف وأنه لا يرثي دمهم الزكي فهو أسمى وأطهر من أن يرثى ، لأن الأولى بالرثاء هو العدو الذي دفعته أطماعه وأحقاده إلى سفك تلك الدماء الطاهرة، وارتكاب الجرائم التي

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 95

يندى لها جبين الإنسانية. وإنما ليقول لهم بأن ربى ميسلون، التي جرت عليها المعركة الشهيرة قبل ستة وعشرين عاما من هذا اليوم الأغر، قد انهمرت دموعها فرحا باستقلال الوطن بفعل تضحيات هؤلاء الأوفياء بعد أن دمعت حزنا في تلك المعركة.. ! يقول الشاعر[1]:

شهداء الحق لا أبكيكـــم

جلَّت الغوطة عن ضعف البكاء

جَلَّ هذا الدم أن يرثى له

عارُ سفَّاكيـــه أولى بالرثـــاء

الربى في ميسلون استعبرتْ

أين دمع الحزن من دمع الهناء؟

والشاعر وهو يشير إلى ربى ميسلون التي سالت عليها دماء الشهداء الأوائل، في أبرز معركة مهدت للعدو بسط هيمنته على سورية، يقف عند آخر معركة خاضها الشعب السوري، والتي انتهت باندحار الغزاة وتحقيق الاستقلال الكامل لسورية، "وقد جن جنون الفرنسيين فصبوا مدافعهم على البرلمان وعلى المدينة، وجاء سفراء الدول الأجنبية إلى قصر الرئيس القوتلي وهو مريض بقرحة المعدة والنزيف لا ينقطع عنه فعرضوا عليه أن يقبل بمعاهدة مع الفرنسيين تضمن لهم بعض الحقوق وتجنب البلاد كارثة لا تعرف حدودها، ولكن الرئيس رغم مرضه أبى ذلك كل الإباء وقال للسفراء: إذا لم تتدخل دولكم لإعادة الحق إلى نصابه فسأنقل سريري إلى ساحة المرجة لأستشهد مع أفراد الشعب"[2]

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 99-100.

[2]- المصدر نفسه. هامش ص 102.

وعن هذه المعركة الأخيرة، وما جرى فيها من تلك الأحداث، يقول الشاعر[1]:

كيف أنسى يا زعيمي[2] ليلة

عصفت نيرانها بالأبرياء

غوطة الشام جحيم فائـــر

والميادين طعـــان ورماء

ما شكى الشاكون فيها ظمأ

أكؤس الحقد رويات ملاء

تخرس الأنباء مما حملت

فهي همس في شفاه السفراء

لم ينل من عزمك اليأس ولا

عنت الدهر ولا الداء العياء

فكانت نتيجة تلك التضحيات وذلك الثبات، أن عاد الوطن بأرضه وسمائه إلى أبنائه، والأمل يحدو الشاعر في أن يكون غد وطنه أجمل، بعد أن يداوي المآسي التي خلفها الاحتلال، ويتمرد على الضعف والتخلف، ويحوز قصب السبق بين الأوطان.. يقول البدوي[3]:

هذه الأرض لفرسانـــكـــــم

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 100-101-102.

[2]- الزعيم المشار إليه في البيت هو "شكري القوتلي". انظر المصدر نفسه، هامش ص 100.

[3]- المصدر نفسه. ص 102.

ولعقبانكـــــم هــذا الفضـــاء

الغد الميمون في الدنيا لكم

فاقتحم يا جيش واخفق يا لواء

وبعد أن تحقق النصر المأمول لسورية، فإن بدوي الجبل يلفت أنظار أبناء وطنه إلى قضية في غاية الأهمية، وهي أن مرحلة ما بعد تحرير الوطن تحتاج إلى طراز خاص من القادة ليتحقق بناء الوطن بناء صحيحا، وحتى لا يتحول الاستقلال إلى غنيمة يسطو عليها الانتهازيون.

وهنا يشير الشاعر إلى أن قادة البناء الوطني يجب أن تتجسد فيهم جملة من المناقب السامية ــ تضاف إلى منقبتي الوفاء والانتماء ــ والتي تتطلبها المرحلة الجديدة. وقد لخصها الشاعر في لفظة "المروءة" الجامعة لكل المناقب الجميلة، فقال[1]:

كيف تسمو القلوب لولا المروءا

ت وتغفو على المنى الأجفان

لا يهيـــن الشعوب إلا رضاها

رضي الناس بالهوان فهانـــوا

وإن من شأن هؤلاء القادة ــ ذوي المروءات ــ أن يبحروا بسفينة الوطن إلى عالم التقدم والازدهار على جميع الأصعدة ، ويجنبوها المخاطر التي تتربص بها في الطريق.

ولأن الصائدين في مياه المصالح الذاتية لا ييأسون من محاولة استمالة أولئك القادة، فالشاعر بدوي الجبل يحذر ــ بعد جلاء العدو مباشرة ــ كل من سيتحمل قيادة سفينة

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 110

الوطن من أن يؤتى من قبل المتملقين أو الخائنين فيقربهم إليه على حساب أبناء الوطن الأوفياء الأكفاء. وفي ذلك يقول[1]:

وأعيذ عهدك أن يُقرب خائن

فيـــه ويظفر بالرضا متملــق

إن الألى محضوك صفو ولائهم

غير الألى محَّضوه وهْو مُرنَّق

ثم يلتفت الشاعر إلى أبناء وطنه من الأجيال الجديدة، فيذكرهم بقيمة مهمة يجب ألا تغفل أو تطمس من قبلهم، وهي قيمة الوفاء لرواد التحرير الذين ضحوا بكل شيء من أجل الوطن، فيقول[2]:

إن دين العظيم في كل شعـــب

لا يوفى وحقه ولا يؤدى

عيروا بالمشيب إخواني الصيـــ

د سفاها وهل عن الشيب معدى ؟

أي لوم على الكهول وخاضوا

غمرات العلى شبولا وأسدا ؟

نحن روادكـــم طلعنا الثنايـــا

وزحمنا الصعاب غورا ونجدا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 141
[2]- المصدر نفسه. ص 231 - 232

وبنينا لكم ونعلـــم أنــــــا

لن نُمَلَّى به بقــاء وخلـــــدا

ولا شك أن الشاعر يكون قد لاحظ نفرا من الأجيال الجديدة يهون من تضحيات جيل التحرير؛ فراح يذكر بفضل هذا الجيل، ويحذر من طمس دوره في صناعة حاضر الوطن.

والحق أن هذه الأبيات تصلح أن تكون لسان حال كل زعيم لم ينل ما يستحقه من الوفاء، وقوبلت تضحياته الجسام بالجحود والنسيان من الجيل الجديد.

لكن بدوي الجبل ذا الطبع الرومانسي، ينبه إلى أن جيل التحرير، إن كان قد غُمط دوره وحقه، من قبل البعض، فإنه لن يعدم وفاء الطبيعة التي خبرت ذاك الجيل وعرفته حين كان يأوي إلى أحضانها وهو يواجه العدو الغاصب، فيقول ــ وهو يناجي أحد رواد التحرير ممن قضى نحبه ــ[1]:

سألتني عنك الخمائل في الغو

طة تشتاق عطرك المرموقا

ودروب خضر عليها خطى الشَّا

ءِ تُعيد التغريبا والتشريقــا

ودَّت الوُرقُ لو خلعن من الحزْ

ن عليك البياض والتطويقــا

وقد عبر بدوي الجبل عن هذا المعنى نثرا فقال:

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 126

"إذا عز الوفاء عند جيل من الناس أو عند جمهرة من الناس، فلن يعز على النسمة اللينة الساجية، تغمر قبورهم[1]بعبير ميسلون وأغنيات بردى وأحلام قاسيون وأغاريد الجلاء"[2] .. ليؤكد بذلك أن الوفاء من أهم القيم الكونية الخالدة، إن تنازل عنها بعض الناس بسهولة، فإن الطبيعة تأبى ذلك.

والشاعر حين يؤكد على هذا المعنى، فلأنه لا يغفل عن حقيقة مهمة طبعت مسيرة الحياة الإنسانية ولم يخل منها عصر أو مكان، وهي أن العظماء في كل أمة لم يسلموا من الغمز، ولم ينجوا من الطعن من قبل طائفة من أبناء جلدتهم التي أعماها الحسد واللؤم والحقد، فيقول[3]:

يلاقي العظيم الحقد في كل أمة

فلم ينج من حقد الطَّغام عظيـــم

ويقذى بنور العبقرية حاســـد

ويخــــزى بمجـــد العبقري لئيـــم

ثانيا/ الوفاء والانتماء إلى الأمة العربية والإسلامية

إذا كان الوفاء والولاء لسورية قد شكلا مكونين مهمين في تجربة بدوي الجبل الشعرية، فإنهما قد شكلا أهمية لا يستهان بها في تلك التجربة ، عندما تعلق الأمر بالأمة العربية والإسلامية.

ومما لاحظته في تجربة الشاعر، أن المعاني المرتبطة بموضوع الوفاء والانتماء لسورية قد ترددت في هذه التجربة بنفس القوة، حين تعلق الأمر بالوفاء والانتماء للأمة

[1]- يتحدث الشاعر عن قبور أولئك الشهداء الذين لم يبخلوا على وطنهم بأعز ما يملكون.
[2]- بدوي الجبل الأعمال النثرية. ص 37- 38
[3]- ديوان بدوي الجبل. ص 181

العربية والإسلامية .. وليس في ذلك غرابة؛ لأن منظومة القيم التي تشربها الشاعر من قبل وجعلته يتعلق بوطنه الصغير، هي نفسها التي جعلته يرتبط بوطنه الكبير. فتمازج وفاء الشاعر وتوحد انتماؤه للوطنيْن معا منذ اللحظة التي انبجس فيها عبير التجربة الشعرية لديه.

ففي سنة 1923م ــ حين لم يكن الشاعر قد تجاوز العشرين من عمره ــ زار عمان الشريف حسين بن علي فــ "اعتمرتها وجوه من بلاد الشام تحييه وتناجيه، وتدعوه إلى إنقاذها من الظلم والتحكم الأجنبي"[1]. وقد كان الشريف حسين "في أعين قادة الحركة الوطنية في بلاد الشام القائد العربي الإسلامي المؤهل لإقامة الدولة المنشودة"[2]. فاستفزت الزيارة وما ارتبط بها من آمال، وجدان الشاعر بدوي الجبل؛ فتداعت على خياله صورة القوة التي كانت عليها الأمة العربية الإسلامية في القرون الماضية، متوسما في هذا الزائر الأمل في أن يعيد للأمة ما فقدته من وحدة ونهضة وقوة ومنعة، وداعيا كل الغيورين على أمتهم أن يحموا هذا الزائر بكل عزيز ونفيس فيقول[3]:

لمن الموكب جبريل بـــــه

من جنود الله يمشي في مئيـــن؟

ومـــن المقبل يعلـــوه سنـــى

من سناء الخلفاء الراشديـــــن؟

حوِّطوا الموكب باسم المصطفى

وبنيه من عيون الحاسديـــــن

---

[1]- سيف الدين القنطار، بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره، ص 58.
[2]- المرجع نفسه، ص 58.
[3]- ديوان بدوي الجبل، ص 486-487.

وافرشوا الأكباد يمشي فوقهـــا

واتركوا الورد وخلوا الياسمين

وانثروا الدمع على موكبـــه

ودعوا المسك لحور ولعيـــــن

أدمع البشر وقد يبكي الفتـــى

سَرَّه الدهر كما يبكي الحزيـــن

إن هذه الأبيات تعكس بوضوح تلك العاطفة الجياشة التي تملكت وجدان الشاعر، وهي عاطفة الفرح بهذا الزائر. وقد كان الدافع إلى هذه العاطفة ــ لدى الشاعرــ تلك الصورة المضيئة للأمة الإسلامية التي تحددت معالمها في القرآن الكريم، وأرسى الرسول الكريم دعائمها في واقع الناس، وكرسها خلفاؤه الراشدون، فباركتها ملائكة السماء.

وقد تداعت هذه المعاني الخالدة بقوة على وجدان الشاعر وهو يتابع أخبار ذلك الزائر، متوسما أن تبعث تلك الصورة المضيئة للأمة على يديه، والتي كان يرنو إليها قادة الفكر والرأي والسياسة في عموم الشام. وفي ذلك يقول الشاعر مخاطبا ذلك الزائر[1]:

لُحْ على عمَّان بدرا نوره

يكشف الليل ويهدي التائهين

وعلى الغوطة أقبلْ يوسفا

حسنه يجلو عيون الناظرين

وعلى بغداد أشرق رحمة

[1]- ديوان بدوي الجبل، ص 488- 489

تسعــد المأمون فيها والأمين

وحِّد العرب وأسعدْ أمة

سادت العالم في ماضي السنين

ويبدو أن أمل الشاعر في قدرة شريف مكة في بعث تلك الصورة الجميلة للأمة الإسلامية مرة أخرى، قد تملكه، فراح يستعرض ما سوف يتحقق على يد "القائد" من أمجاد، كتلك التي تحدثت عنها كتب التاريخ الإسلامي .. فيقول[1]:

تفدي الشموس بضاح من مشارقهــا

هلال شعبان إذ حيا بشعبانا

دوت به الصرخة الزهراء فانْتفضتْ

رمال مكة أنجــادا وكثبانـــا

وسال أبطحها بالخيــل آبيـــــــة

على الشكيم تريد الأفق ميدانا

وبالكتائب من فهــر مقنعـــــــة

تضاحك الشمس هنديا ومُرّانا

وللجياد صهيــل في شكائمهــا

تكاد تشربه الصحراء ألحانا

سِفْرٌ من المجد راح الدهر يكتبه

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 84 - 85

ولا يضيق به جهرا وإمعانا

ودلالة ارتباط هذه المعاني بذلك القائد، أن "شعبان عيد الثورة العربية التي أضرمها الشريف الحسين بن علي"[1].

ولأن الدافع إلى هذه الآمال هو صورة الأمة المضيئة في سالف الزمان، فقد تجرد غرض الشاعر هنا ــ وفي تجربته الشعرية عامة ــ من المدح الرخيص الذي يسعى صاحبه من خلاله أن يجزل عليه الممدوح كثيرا أو قليلا من الأعطيات. ولذلك فإن الشاعر وهو يعبر عن أمله في أن تتحقق وحدة أمته وقوتها ونهضتها، لم يغب عن باله ما كان يسمعه بأن هذا الزائر إنما هو صنيعة الاستعمار لضرب المصالح العليا للأمة العربية والإسلامية وإجهاض آمالها في تحقيق ما يصبو إليه أبناؤها المخلصون. فراح الشاعر يعبر عن هواجسه هذه دون مواربة. ومنبها ذلك الزائر في الوقت نفسه إلى الحذر من دسائس الاستعمار ومكره، قائلا[2]:

صاحب التاج أجبني هل أتـــى

عرشك العالي حديث الكاذبيــن؟

زعمــوا أنك تهــوى لندنـــا

وتحب النفــر المستعمريـــــن

وتطيع القــوم فيما أمـــــروا

وهم تالله شــر الآمريــــــــن

1- ديوان بدوي الجبل. هامش ص 84

2- المصدر نفسه. ص 488.

ولا شك أن مصارحة الشاعر للممدوح بهواجسه، يدل على ما كنت قد أشرت إليه من قبل، وهو أن الموضوع الشعري عند الشاعر متناغم مع منظومة القيم التي تربى عليها، بل منبثق منها. ومن ثم فإن الذي حركه هنا ليس الطمع في الممدوح، وإلا لما طرح عليه تلك الهواجس، ولما نبهه وهو يقسم بالله أن المستعمرين هم شر الآمرين وفي ذلك دلالة على أن الشاعر إنما عبر عما يؤمن به لا أكثر ولا أقل.. !

إن هذه الأبيات الشعرية، التي أبدعها بدوي الجبل وهو ابن العشرين، تكشف بجلاء وفاءه لأمته وولاءه لقضاياها، وأمله في أن تعانق المجد مثلما عانقته في أيامها الخوالي.

ولا بد من الإشارة إلى أن ما كان يخشاه الشاعر بدوي الجبل قد تحقق؛ وذلك حين غدر الاستعمار البريطاني بالحسن بن علي ـــ شريف مكة ـــ فانتهى به غدرهم مجحودا وقبرا في جوار الأقصى[1].

ولكن بدوي الجبل الذي حذر (الحسين بن علي) من قبل، لا يفوت خيانة الحلفاء له، ويبين في الوقت نفسه أن مكمن الضعف الذي أوتي منه شريف مكة يتمثل في سذاجته السياسية. وفي ذلك يقول[2]:

يا صاحب النصر في الهيجاء كيف غدا

نصر المعارك عند السلم خذلانـــا؟

ترى السياسة لونـــا واحـــدا ويـــرى

لهـــا حليفـــك أشكـــالا وألوانـــا !

ورغم ما حدث فإن الأمل في نهضة الأمة العربية والإسلامية، لم يخبُ لدى الشاعر.

---

[1]- انظر أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة. ص 48

[2]- ديوان بدوي الجبل. ص 85.

بل إن يقينه في تجسيد هذا الأمل من القوة كأنه يراه رأي العين، فيقول[1]:

ما للسفينة لم ترفع مراسيَهـــــا

ألم تهيئ لها الأقــدار ربانـــــا ؟

شُقِّي العواصف والظلماء جاريـــة

باسم الجزيرة مجرانا ومرسانا

ضُمِّي الأعاريب من بدو ومن حضر

إني لألمح خلف الغيم طوفانـــا

ويقين الشاعر هذا، نابع من إيمانه بأن كل عوامل نهضة الأمة قائمة .. وأن من أهم تلك العوامل امتلاك الأمة للدليل على الطريق وهو دينها الحنيف الذي رمز له بلفظة "الجزيرة"؛ لأن الجزيرة العربية مهبط هذا الدين.

وبالإضافة إلى هذا الدليل على الطريق، فإن الشاعر لا يؤمن بحلم يستحيل تحقيقه، لأن هذا الحلم قد تحقق فعلا في تاريخ الأمة العربية والإسلامية في صدر الإسلام، وفي زمن الخلافة العباسية التي تجسد فيها تفوق الأمة علميا وحضاريا، ولذلك ليس صعبا أبدا تحقيق هذا الحلم مرة أخرى على أرض الواقع. وهذا ما يشير إليه الشاعر وهو يرحل بنا إلى ذلك التاريخ الجميل، حين يذكر حضارة المسلمين في تلك الأيام. وفي ذلك يقول[2]:

إيه دنيا الرشيد تــفنى الحضارا

تُ وتبقى كالدهر دنيا الرشيد

صور للعلا القديم وضـــــــاء

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 86.
[2]- المصدر نفسه. ص 210.

زوقتها رؤى الخيال الشـــرود

والشاعر إذ يستدعي تلك الأمجاد، إنما ليذكر أبناء الأمة بمواطن الاعتزاز عندهم، فيستلهموا منها ما يعينهم على التحرر ــ أولا ــ من الإحساس بالنقص تجاه الآخر، ومواجهة التحديات ــ ثانيا ــ التي تحول بينهم وبين بلوغ الغاية، سواء أكانت تلك التحديات داخلية كالتخلف والتشرذم، أم خارجية كالاستعمار.

ويلخص الشاعر أمجاد أمته، وهو يناجي هذه الأمة قائلا[1]:

طلعتِ على العصور هدى وخيرا

غداة طلعت غزوا وافتتاحا

وعلَّمتِ الحضارة فهْــي فجـــــر

على الأكوان ينساح انسياحا

وفي سياق استدعاء أمجاد الأمة فإن الشاعر لم يغب عن وعيه، أن لهذه الأمة رموزا مهمة في تاريخها المجيد ينبغي الوفاء لها كذلك، والاعتزاز بها، واستمداد العبر من مآثرها لتحقيق الانتصارات في معارك الأمة في عصرها الحديث. وقد نبه الشاعر إلى هذه المعاني وهو يتحدث عن بعض الانتصارات الكبرى التي حققها أبطال الأمة العربية الإسلامية في تاريخها المجيد على الأعداء، بالرغم من التفوق المادي الواضح لهؤلاء الأعداء. لكن إرادة أولئك الأبطال كانت هي الحاسمة في تلك الانتصارات. وإذا كان الموت قد غيب هؤلاء، فإن الدروس التي سطروها في تلك الميادين تبقى لأجيال الأمة المتتابعة، هادية لهم أبد الدهر. يقول الشاعر[2]:

قف على اليرموك واخشع باكيا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 117، 118
[2]- المصدر نفسه. ص 544- 545

وتيمَّمْ من صعيــد القادسيـــة

هاهنا مثوى الصناديد الأُلـــى

قـــد لوَوْ اقسرا عنان الجاهلية

دوخوا الروم وثلُّوا عرشهـــا

وطووا حُمر البنود الفارسيـــة

وقضوْا بين العوالي والظُّبى

هكذا تقضي الأسود العربيـــة

فامسح الأحجار والثمه ثرى

طاهرا واعقر على القبر المطية

يا قبـــورا محيت واندثرت

أنت نبراس الهدى والوطنيـــــة

ومن القيم ــ المشكلة لهوية الأمة ــ التي أعلن الشاعر كذلك وفاءه وولاءه لها. ويرى أن على الأمة، وهي تخوض المعارك على مختلف الجبهات الثقافية والسياسية والعسكرية والحضارية، أن تتشبث بها وهي اللغة العربية باعتبارها عاملا مهما في تحقيق تماسك الأمة؛ لأنها لسان الرسالة الإلهية الخاتمة التي تحققت بها عزة الأمة. ولهذا كانت سهام المستعمرين وأذنابهم توجه إليها على الدوام. وبالرغم من أن مساعيهم محكوم عليها بالفشل لأن لغة الضاد أقوى من أن تنال منها تلك السهام، إلا أن الوعي بمخططات هؤلاء

الأعداء ،على هذا الصعيد، واجب على أبناء الأمة وهم يحثون الخطى نحو الغاية المرجوة. يقول البدوي[1]:

للضـــاد ترجع أنساب مفرقـــــة

فالضـــاد أفضـــل أم بـــرة وأب

تفنى العصور وتبقى الضاد خالدة

شجى بحلق غريب الدار مغتصب

وبالرغم من واقع التجزئة الذي فرضه الاستعمار الغربي على الأمة، ففتت جسدها الموحد إلى أعضاء هزيلة، فإن الشاعر بدوي الجبل لا يقر بهذا الواقع، ويرى أن هذه التي تسمى بلدانا عربية أو إسلامية، هي في الحقيقة بلد واحد وشعب موحد تربط بين أبنائه وشائج لا تحصى. يقول الشاعر[2]:

للخُلف في الناس أنواع وأغربهـــا

خُلف الشقيقين من قومي بلا سبب

كل الربوع ربوع العرب لي وطن

ما بين مبتعـــد منها ومقتـــــرب

إن بدوي الجبل، وهو يعلن وفاءه وولاءه لوشيجة الوحدة التي انصهرت في بوتقتها، ولقرون طويلة، أقطار الأمة الواحدة إنما لكي يستنهض همم أبنائها لتجسيد هذه القيمة من جديد، وإنقاذا لمستقبل الأمة وتحقيقا لمصالحها العليا.

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 469.
[2]- المصدر نفسه. ص 469.

وفي هذا السياق، يتعجب الشاعر ممن يؤيد فصل لبنان عن سورية، فيقول[1]:

لبنان والغوطة الخضراء ضمهما

ما شئت من أدب عال ومن نسب

ما في اتحادهما تالله من عجـــب

هذا الفراق لعمري منتهى العجب

وحين يتعجب بدوي الجبل من نجاح مكائد المستعمرين في فصل لبنان عن سورية، فإن هذا التعجب ينسحب بالقدر نفسه على نجاح تلك المكائد في تقطيع أجزاء الأمة الأخرى، عن بعضها البعض، حتى تهلهل جسدها الواحد، مما جعل الشاعر يشير من طرف خفي إلى أن بقاء هذه الأمة مجزأة مشتتة لهو الأمر العجب الذي لا تقره حقائق الجغرافيا ولا منطق التاريخ، ولا تقبله عقول الأوفياء.

ولذلك فإن الشاعر بدوي الجبل لا يعترف بواقع التجزئة الذي فرض على الأمة، ويراه مجرد مرحلة عابرة ستزول، مستعيرا من الطبيعة أروع الأمثلة التي تدعم يقينه بأن أجزاء الأمة المقطعة عنوة، سوف تلتحم من جديد، لأن هذا الالتحام هو الوضع المنطقي والطبيعي للأمة. فيقول متحديا سدنة التجزئة من المستعمرين وأذنابهم[2]:

يا بناة الحدود لا تعرف الصحْــ

راء في زحمة الأعاصير حدا

لا تُغَرُّوا فإن في النفس كِبْـــــرًا

يتنزّى وإن في الصدر حقــدا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 469.
[2]- المصدر نفسه. ص 144

وسجايا الرمال فينا فما يُـــــرْ

قَبُ إلا طغيانها حين تهـــــدا

وفي ظل واقع التجزئة الذي جعل الوطن الواحد أوطانا، تكرس الضعف في جسد الأمة ؛ فكان من نتائج هذه الحال نجاح الاستعمار الغربي في زرع كيان غريب في خاصرة الوطن الكبير، فكانت مأساة فلسطين.

وقد عاش الشاعر بدوي الجبل من خلال تجربته الشعرية، تلك المأساة منذ أن بدأت المؤامرة الدولية تحاك ضد هذا الجزء العزيز من أجزاء الأمة العربية والإسلامية، حين بدأ التخطيط لإحلال اليهود في فلسطين محل أبنائها الأصليين، لخلق واقع جديد يمهد للاستيلاء عليها نهائيا .. فبدأ شقاء هذه الأرض وشقاء أهلها بشذاذ الآفاق الذين تقاطروا عليها من كل حدب وصوب. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

شقيت باليهود أرض فلسطيـــ

ن وضاقت رحابها باليهود

بنفايا الدنيا على كل وجـــه

منهم سُبة اللعين الطريـــد

فصارت فلسطين قضية الشاعر التي ظلت تؤرقه، مثلما كان وطنه الصغير سورية يؤرقه؛ لأن الوفاء والولاء لقضايا الوطن القريب والبعيد عنده غير مجزئين.

ففي تجربة استقلال سورية وفرحة الشاعر الكبرى التي ملأت عليه أقطار نفسه، تتعكر فرحته فجأة، حين يتذكر محنة فلسطين، فيقول[2]:

[1]- ديوان بدوي الجبل، ص 215.
[2]- المصدر نفسه. ص 97، 98

يا فلسطين هوى مستعر

من ربى الشام ونصر وولاء

اليهود استأسدوا فيك فمن

جرّأ الضعف وأشلى الضعفاء

تم صفو الدهر لولا محنة

في فلسطين وبلوى وشقـــــاء

ثم يسْخر الشاعر من القوى النصرانية التي تدعي الانتماء إلى الإنجيل والتمسك به والوفاء لكنيسة القيامة بالقدس، وهي تبيع القدس بمقدساتها لشذاذ الآفاق من اليهود. و باعوا مدنها لهؤلاء كما تباع العذارى للأوغاد وفي ذلك يقول[1]:

أسلم القدس من يحج إلى القد

س ويتلو الإنجيل وردا فوردا

مدن القدس كالعذارى سبوها

وأرادوا لكل عذراء وغـــدا

وإذا كان للنخاسة سوق، فإن فلسطين قد بيعت في سوق "جمعية الأمم المتحدة" التي أسماها البدوي "ندوة القوة". وفي هذه "الندوة" يتاجر جبابرة الأرض بقضايا الشعوب العادلة. يقول الشاعر[2]:

ضج سوق الرقيق في نـــدوة القـــوْ

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 233.
[2]- المصدر نفسه. ص 233.

م ونخاسه طغى واستبدا

يعرضون الشعوب عرض الجواري

عُريت للعيون نحرا ونهدا

ويتعجب بدوي الجبل من قومه، الذين يعلمون أن فلسطين جزء عزيز من جسد الأمة، كيف لا يدفعهم علمهم هذا إلى الوفاء لها، والغيرة عليها وعلى مقدساتهم فيها، وقد كان العهد بهم أنهم لا يرضون الضيم؟ .. يقول الشاعر[1]:

غيرة الله أين قومي وعهدي

بهم يَنْهَدُون للشر نهـــــدا ؟

كما يعبر الشاعر عن تعجبه من غفلة أبناء أمته عن حجم المؤامرة التي حيكت لفلسطين، ومن تخاذل حكامهم وخور عزيمتهم ونوم جيوشهم عن استرداد فلسطين بالقوة.. يقول الشاعر[2]:

بطاحُ القدس دنَّسها مغيــرٌ

فهل صانت كتائبنا البطاحـــا؟

وهل جبهتْ بحد السيف دعوى

كعرض القوم فاجرة وقاحـــا؟

ولم نغضب لهـــا أيـــام كانت

حِمًى نهبا وشعبا مستباحـــــا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 233.
[2]- المصدر نفسه. ص 114، 115.

ولا صدت سرايانا عـــــدوا

ولا هاجت حميتنا كفاحـــــــا

ولا اهتزت صوارمُنا انتخاء

ولا صهلت صوافنُنا مراحـــا

نُجَابَه باليهود دما ونـــــارا

فنُغضي لا إبــاء ولا طماحـــا

وعندما وقعت هزيمة جوان 1967 ، شكلت أكبر مؤشر على نجاح المخططات الاستعمارية في فرض هيمنة الصهاينة على فلسطين ، وكشفت حقيقة بعض الأنظمة العربية وقادتها أمام شعوب الأمة.

وقد استفزت الهزيمة وجدان الشاعر بدوي الجبل فكانت قصيدته "من وحي الهزيمة" التي سجل فيها جملة من المواقف المعبرة عن وفائه وولائه الصادقين لهذا الجزء العزيز من وطنه الكبير. كما دلت على وعيه السياسي العميق.

ومن تلك المواقف ــ التي سجلها الشاعرــ أن هذه الهزيمة التي حدثت، إنما حدثت لأن الإرادة في القتال من جانب بعض الأنظمة العربية كانت غائبة، فتسلل الرعب إلى قلوب مقاتليها، فلم تغن عنهم أعدادهم ولا أسلحتهم ، وحينها أصبحوا عبئا على الوغى. يقول بدوي الجبل[1]:

أيها المستعير ألف عتـــــاد

لأعاديك كل ما تستعيـــــــر

[1]- ديوان بدوي الجبل، ص 192.

هدّك الذعر لا الحديد ولا النا

ر وعبء على الوغى المذعور

ولأن ما حدث في هذه الحرب كان فوق الوصف؛ حيث استطاع الكيان الصهيوني الاستيلاء على ما تبقى من أرض فلسطين كالقدس الشرقية والضفة الغربية وغزة، واكتسح أراضي ثلاث دول عربية كبرى مجاورة لفلسطين، وهي مصر وسورية والأردن. كل ذلك حدث في ستة أيام .. لذلك، فإن بدوي الجبل يضيف إلى موقفه السابق هذه الإشارة المهمة، وهي أن قادة جيوش تلك الدول التي حلت بها هذه الهزيمة الغريبة، هم في الواقع "موظفون إداريون" وليسوا قادة عسكريين. وأن الرتب الكبيرة التي تقلدوها إنما نالوها من هذا الباب، باب الوظيفة الإدارية. ولم يتقلدوها كمحصلة لمعاناة في ميادين الحروب، فكان هذا أحد أسباب الهزيمة .. يقول البدوي[1]:

لم يعان الوغى "لواء" ولا عا

نى "فريق" أهوالها و"مشيـــــر"

رتب صنعة الدواوين ما شا

رك فيها قَرٌّ الوغى والهجيــر

وعليه، فإن هذه الهزيمة إنما يتحمل مسؤوليتها، برأي البدوي، حكام تلك الأنظمة لا الشعوب، وذلك لسبب جوهري وهو أن أولئك الحكام، الذين لم يصلوا إلى الحكم في تلك البلدان بطرق ديمقراطية، قد ساسوا مواطنيهم بأساليب القهر والفقر والظلم، ظنا منهم أنهم

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 192.

بذلك يديمون حكمهم، ولكنهم من ناحية أخرى قتلوا ــ بتلك الأساليب ــ روح المبادرة لدى الشعوب، فأصيبت إرادة الأمة بالشلل .. يقول الشاعر[1]:

هُزم الحاكمون والشعب في الأصْــ

فاد فالحكم وحده المكســـــور

ويؤمن الشاعر بدوي الجبل بأن السبيل لتحقيق نهضة الأمة الشاملة ــ والتي تكفل لأبنائها استرداد كل الحقوق المغتصبة ــ إنما تتحقق بالحرية .. وهذا ما تناولته بالتفصيل في الفصل التالي من الرسالة.

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 193.

الفصل الثالث/ الإيمان والحرية في تجربة بدوي الجبل الشعرية

ـ أولا/ قضايا الإيمان

ـ ثانيا/ قضايا الحرية

إن الحديث عن الإيمان والحرية في تجربة بدوي الجبل الشعرية، هو حديث عن قيمتين من القيم الكبرى التي عشقها الشاعر وعاش لها طوال حياته، واعتبرها منطلقا مهما، لا في ميدان الشعر والأدب فحسب، بل في كل ميادين الحياة.

كما أن تلك القيم الكبرى ـــ وعلى رأسها الإيمان والحرية ـــ مترابطة عند بدوي الجبل بإحكام. وهي في يقينه نابعة من الإسلام الذي صاغها بمنهجه الرباني الفريد، والتي حين يتمسك بها الناس، فإنها تشيع في حياتهم الرشد والخير والنور وتمكنهم من دحر قوى الشر والظلم. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

إن الكرامـــة والحـــرية احتلفـــــا

ولن يفارق حلف حلفه أبــــــدا

من هديه صاغها الإسلامُ فانسكبت

توزع النور والنعماء والرشـــــــدا

هذي الحنيفية السمحـــــــاء قاهـــرة

لا اللات عزت ولا فرعونها عُبـــدا

وعلى هذا الأساس فإن الإيمان كقيمة في تجربة بدوي الجبل الشعرية، تعني أول ما تعنيه، يقين الشاعر في الأهمية التي تمثلها مبادئ الإسلام في الحياة .. وأن الحرية في تجربته الشعرية غير منفصلة عن الإيمان؛ لأنها تتحقق في حياة صاحبها حين يتبنى تلك المبادئ الإسلامية ـــ إيمانا وعملا ـــ فتدفعه إلى التحرر من كل ما يرفضه الإسلام من ظلم وقهر وضعف وتخلف.

---

[1]- ديوان بدوي الجبل، ص 176-177.

ولبيئة بدوي الجبل المنزلية والاجتماعية، الدور الأبرز في غرس هاتين القيمتين في يقينه.

فأما البيئة المنزلية، فيكفي أن أضيف إلى ما كنت قد تناولته سابقا، أن بدوي الجبل قد عاش أجواء الإيمان من خلال شخصية والده[1]، وأن تلك الأجواء هي التي ستظل المعين الدائم الذي يستقي منه الحقائق[2]، فتتفتق من تجربته الشعرية مثلما يتفتق العطر من خلال أوراق الورد .. كما تشرّب الشاعر من شخصية والده، الوقوف أبدا ضد الظلم والطغيان.[3]

وأما بيئة الشاعر الاجتماعية، فتكفي الإشارة إلى القهر الذي تعرض له بلده من قبل الاحتلال الفرنسي، فدفعه ــ وهو الذي تربى على التمرد على الطغيان ــ إلى الانهماك في مواجهة هذا الوضع الذي أرادت فرنسا تكريسه في الواقع السوري. فتعرض البدوي من جراء ذلك للاضطهاد والمطاردة والسجن، فتعمق لديه الإيمان بقدرته ــ مع أبناء وطنه ــ على هدم إرادة المحتل. وتحولت صنوف المعاناة التي أصابته إلى نار في قصائده ضد الاستعباد الفرنسي.

وقد تضمنت قيمتا الإيمان والحرية في تجربة بدوي الجبل الشعرية جملة من القضايا المهمة، نرصدها في التحليل الآتي :

أولا/ قضايا الإيمان

سئل الشاعر بدوي الجبل عن رحلة حياته ، بعد أن تجاوز السبعين من عمره ، فأجاب بقوله: "أنا صوفي، ونشأتي كانت صوفية"[4] .. ثم راح يشرح فهمه للتصوف فقال:

[1]- انظر إيليا الحاوي، بدوي الجبل شاعر الأناشيد والمراثي، ج1، ص 6.
[2]- انظر المرجع نفسه، ص 6.
[3]- انظر المرجع نفسه، ص 22.
[4]- ملحق جريدة الثورة الثقافي. ع1 ، دمشق (11 -03- 1976)

"الصوفية كالشعر لا حدود لها، يختلف المتصوف عن المتصوف اختلاف الشاعر عن الشاعر. الصوفية هي الفناء بالله"[1].

وبهذا التحديد للتصوف، نفهم أنه ــ عند الشاعر بدوي الجبل ــ نابع من روح الإسلام[2]. بمعنى أنه الإيمان بالله والالتزام بكل أمر أو نهي. أو قل إنه التشبث بالقيم الإسلامية في كل الأحوال؛ فيُكسب صاحبها صمودا روحيا في وجه المحن. إلا أن ذلك يتطلب ــ في البداية على الأقل ــ معاناة مع النفس "وليس ينبوع الشعر العميق بمباين لهذه التجربة"[3]؛ لأنه يقوم هو الآخر على المعاناة.

ومما لا شك فيه أن هذه الرؤية التي تربى عليها الشاعر بدوي الجبل، قد انعكست على نظرته تجاه الناس والأوضاع والمفاهيم، وتجلى ذلك كله في تجربته الشعرية. وهذا ما عبر عنه بقوله: "سريرتي مغمورة بنور التصوف وعطر التصوف، وشعري ينسكب من سريرتي"[4].

ومن هنا كان الإيمان في تجربة الشاعر، عبادة قائمة على الإخلاص، وسلوكا يزينه التواضع. وفي ذلك يقول[5]:

أنا لا أُرَجِّي غير جبار السماء ولا أهاب

بينـــي وبين الله من ثقتي بلطف الله باب

أبــدا ألوذ به وتعرفني الأرائك والرحاب

لي عنده من أدمعي كنز تضيق به العياب

---

[1]- ملحق جريدة الثورة الثقافي ع 1 . دمشق.
[2]-انظر بدوي الجبل الأعمال النثرية. ص 100.
[3]- إيليا الحاوي، بدوي الجبل شاعر الأناشيد والمراثي. ج 1 ، ص 7
[4]-هاشم عثمان بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة. ص 125
[5]- ديوان بدوي الجبل، ص 75.

فثقة الشاعر بالله وفضله لا حدود لها. ومن ثم فهو لا يرجو غيره سبحانه، ولا يطمع فيمن سواه. وعربون ثقته هذه فراره إليه تعالى، فيقول[1]:

يا رب بابك لا يرد اللائذين به حجـــــــاب

أنت المرجى لا تناخ بغير ساحتك الركـــاب

وتواضع الشاعر لله تواضع مطلق؛ فهو رغم إقراره بأنه قد صان حياته من الشرك ومن كل ما يغضب الخالق، إلا أنه لا يأمن عذابه سبحانه .. ولكن يقينه في عظيم جود الله، جعله لا ييأس من الفوز برضاه تعالى. فيقول[2]:

ويا رب لم أشرك ولم أعرف الأذى

وصنت شبابي عنهما ومشيبي

وإني وإن جاوزت هذين سالمـــا

لأُكبر لولا جود عفوك حوبي

وأما الذنوب عند الشاعر، فإنها دافعة إلى المسارعة إلى الرجوع الصادق إلى الله. وفي ذلك يقول[3]:

وإذا سألت عن الذنوب فإن أدمعيَ الجـــواب

ومن المناسبات الإيمانية عند الشاعر، للتخلص من ثقل الذنوب، مناسبة الحج التي يراها فرصة ذهبية يُنيخ فيها الإنسان المؤمن ذنوبه بباب عفو الله الكريم الحليم؛ فتحس نفسه بالاطمئنان، وضميره بالراحة، بعد توجهه إلى الله تعالى بالتضرع أن يغفر له ما قد

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 75- 76

[2]- المصدر نفسه. ص 68

[3]- المصدر نفسه. ص 76.

سلف وأن يتقبله عنده من التوابين. فيقول الشاعر ـــ وهو يتحدث عن مشهد الحجيج المهيب ـــ:[1]

مواكب كالأمواج عج دعاؤها

ونار الضحى ذات شبوب

ورددت الصحراء شرقا ومغربا

صدى نغم من لوعة ورتوب

تلاقوا عليها من غني ومعدم

ومن صبية زغب الجناح وشيب

وذل لعز الله كل مســـــــود

ورق لخـــوف الله كل صليـــب

ثم يشير الشاعر إلى أن كل إنسان أم البيت الحرام أو حن إليه ـــ وإن شط مزاره ـــ قريب من قلبه، قد جمعته به أخوة الإسلام وسماحته. بل إن الإسلام، بالإضافة إلى ما سبق، رحمة لكل الشعوب. وفي ذلك يقول الشاعر[2]:

وكل بعيد حـــج البيت أو هفـــا

إليه وإن شط المزار قريب

سجايا من الإسلام سمح حنانها

فلا شعب عن نعمائها بغريب

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 61-62.
[2]- المصدر نفسه. ص 67

وفي هذه المناسبة، يتعانق في تجربة الشاعر الوحي والجمال والتاريخ، حين تتحول هذه الشعيرة إلى أكبر محطة في حياة الإنسان المؤمن يتزود من خلالها بزاد روحي لا ينضب. يساعده على استئناف الحياة بقوة وثقة وتفاؤل. وفي ربوع تلك الشعيرة تتداعى الذكريات العزيزة إلى ذهن هذا الإنسان عن الدين الحق، ونزوله في تلك الربوع الطاهرة. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

بنور على أم القرى وبطيـــــب

غسلت فؤادي من أسى ولهيــب

لثمت الثرى سبعا وكحلت مقلتي

بحسن كأسرار السماء مهيــــب

فيا مهجتي وادي الأمين محمـــد

خصيب الهدى والزرع غير خصيب

هنا الكعبة الزهراء والوحي والشذى

هنـــا النـــور فافنيْ في هواه وذوبـــي

ورغم أن تلك الربوع صحراء، إلا أن بدوي الجبل يصل في تعلقه بها إلى درجة التوحد والفناء؛ لأنها مهبط آخر الرسالات السماوية، فتمازجت أنوارها بحبات رمل الصحراء ، ثم امتدت رحمتها بعد ذلك إلى الإنسانية كلها، فيقول[2]:

أرى بخيال السحب خطو محمـــد

على مخصب من بيدها وجديب

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 61.

[2]- المصدر نفسه. ص 64.

وسمر خيام مزق الصمت عندها

حماحــمُ خيل بشرت بركــوب

أشم الرمال السمر، في كل حفنة

من الرمل دنيا من هوى وطيوب

على كل نجد منه نفح ملائــك

وفي كل واد منه سر غيـــوب

ومن هذه الصحراء أنوار مرسل

ورايات منصور وبدْع خطيــب

والعبادة في وعي بدوي الجبل، ليست مجرد علاقة بين المؤمن وربه، بل إنها اهتمام كذلك بأحوال الأمة. ولذلك فإن الشاعر وهو في تلك المناسبة، مناسبة الحج، يتوجه إلى الله بالدعاء أن يترفق بأبناء أمة الإسلام بعد أن عصفت بهم الخطوب، بفعل تمكن الأحقاد من القلوب فأبعدتها عن سواء السبيل، فيقول[1]:

ويـــا رب عند القبر قبر محمـــــد

دعاء قريح المقلتين سليــب

ترفق بقومي واحمهم من ملمـــــة

لقد نشبت أو آذنت بنشــوب

ورُدَّ القلوب الحاقدات إلى نـــــدٍ

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 69- 70

من الحب فواح الظلال عشيب

وفي تلك اللحظات من السمو الروحي، يتذكر الشاعر سر تخلف المسلمين وضعفهم وتشرذمهم، لأنهم:

أولا/ تخلوا في علاقتهم فيما بينهم عن الإسلام، واستبدلوه بالمجاملات المصطنعة التي تخفي من الأحقاد ما تخفي.

وثانيا/ أنهم بدلا من أن يداووا أمراضهم الأخلاقية والاجتماعية والثقافية والسياسية بالإسلام، راحوا يصطنعون حلولا أخرى، لم تُغن عنهم شيئا، فتفاقمت مشكلاتهم .. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

ويا رب لا تقبل صفاء بشاشـــة

إذا لم يصاحبه صفاء قلـــوب

تداووا من الجُلَّى بجُلّى وخلّفـــوا

وراءهـــم الإسلام خير طبيب

ولأن الشاعر تذوق حلاوة الإيمان، بعد أن أدرك طبيعة الإسلام ــ وهي أنه رحمة للعالمين ــ فإن حنانه قد تجاوز بني أمته؛ فراح يدعو الله أن يهيئ لشعوب الأرض سبل التعرف على الإسلام والإيمان به والعمل بمقتضياته، فتشملها رحمته ويعمها نوره وتتحرر من القلق الوجودي، ومن القهر السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فيقول[2]:

ويا رب في الإسلام نور ورحمة

وشوق نسيب نازح لنسيـــب

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 66-67.
[2]- المصدر نفسه. ص 67.

فألِّف على الإسلام دنيا تمزقت

إلى أمم مقهورة وشعـــــوب

والحق أن هذا اللون من الإيمان النابع من طبيعة الإسلام، هو إيمان يجد فيه العقل وطنه، فتنعكس آثاره على النفوس فتحس بسعادة لا نظير لها، وعلى الحياة عامة حين تكتشف الشعوب معانيه الرائعة التي افتقدتها في ظل الفلسفات المختلفة .. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

خير العقائد في هواي عقيـــــدة

شماء ذات توثب وجمـــــــاح

تبني الحياة على هُدى إيمانها

والعقل مثبت غيرها والماحـــي

سُكْر العقيدة أين من آفاقـــه

سكر العيون وأين سكر الراح ؟

والإسلام كما فهمه بدوي الجبل، ليس مجرد مجموعة من الشعائر التعبدية، يؤديها المسلم في أوقات محددة أو في مناسبات معينة .. بل هو منهج متكامل يشمل ــ بالإضافة إلى تلك الشعائرــ كل ما يتعلق بشؤون الفرد والمجتمع والأمة. وأن العمل به يحقق الأمان للإنسانية المعذبة، ويعيد لها توازنها المفقود، فتحل بين أبنائها قيم المحبة والسماحة والرحمة والتكافل والإيثار، وتنزوي قيم الظلم والحقد والبغضاء، ويتضاءل كل ما من شأنه أن يثير التخاصم والعداء بين الناس. يقول الشاعر[2]:

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 308- 309

[2]- المصدر نفسه. ص 177.

كنز الحنيفية من حب ومرحمـــة

كالنور قد غمر الدنيا وما نفـــدا

لا الفقر حقد ولا النعماء غاشمة

كلاهما انسجما بالحب واتحــــــدا

كلاهما أملت السمحاء حرمتـــه

على أخيه فما ابتزا ولا حقـــــدا

إن المجتمعات الحية السعيدة – برأي الشاعر– إنما تبنى على التراحم والتكافل بين أبنائها. وهذا ما يحققه المنهج الإسلامي، حين يتم فهمه والالتزام به. وأما الأحقاد فلا تبني مجتمعا محترما، ولا تضمن لأبنائه عيشا كريما. يقول الشاعر[1]:

تُبنى الشعوب على قربى ومرحمة

وما بنى الحقد شعبا ولا رغدا

والإسلام برأي بدوي الجبل، يقوم على الحجة الدامغة والكلمة الطيبة الحسنة، فيرسم بذلك موقفه المتفرد الجميل من الحياة والإنسان والكون، بحيث يستحيل على النفوس السوية أن ترفضه ويبنى مدنية لا تعبد الدنيا ولا تنسحب منها؛ لأنه يدعو إلى إقامة التوازن بين الدنيا والآخرة، وبين عالم المادة وعالم الروح، فتجني الإنسانية في ظلال هذه المدنية، سعادة في الدنيا وفي الآخرة. يقول الشاعر[2]:

وبيان أحمد قوة وعذوبة

ونهى ورأيا في الحياة جميلا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 177.
[2]- المصدر نفسه. ص 355-356

عَــفَّى على مدنية صخَّابة

يذر الخليَّ ضجيجُها مشغولا

ومن الآثار الجميلة، الناجمة عن الالتزام بهذا المنهج كذلك، تلك الطمأنينة التي تتملك الإنسان الملتزم بالمنهج في جميع أحواله، فلا يهاب بشرا مثله مهما علا قدره، ولا يستبد به الخوف من المجهول .. وكيف يهاب أو يخاف، وقلبه ينبض في كل حين بذكر الله الرحيم الجبار..؟ يقول الشاعر[1]:

نُطل من أفق الدنيا على غدها

فتنجلي الراسيات الشم كثبانــا

وأي نُعمى نُرجِّيها لدى بشــر

والله قربنا منه وأدنانـــــــــا ؟

فإذا ما نزلت بساحة هذا الإنسان أيام كُربة وضيق فإنه لا يتبرم ولا يشكو؛ لأنه بالتزامه بهذا المنهج يحس بأن الله لن يتخلى عنه، فينفتح أمامه باب الصبر يلج من خلاله إلى عالم فسيح من الرضا والثبات، يساعده على العمل بثقة لكي يكون غده أفضل من يومه .. يقول الشاعر[2]:

ويا رب إن القلب ملكك إن تشــأ

رددت محيل القلب ريان مخصبا

ويا رب في ضيق الزمان وعسره

أرى الصـــبر آفاقا أعز وأرحبــا

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 130.
[2]-المصدر نفسه، ص 162.

و من هنا، فإن الله سبحانه في تجربة بدوي الجبل الشعرية، هو الغاية التي تتضاءل دونها كل الغايات، لأنه مصدر الخير كله. فماذا فقد من وجده..؟ وماذا وجد من فقده..؟ يقــول الشاعر[1]:

أنت يـــا رب غايـــة وإلى الغـــا
يـة أنت الهدى وأنت السبيـــل
لم يضع في الظلام نورك عن قلْـــ
بي فقلبي إلى سناك الدليـــل
معدن الخير والجمال المصفى
وجهك الخيِّر الكريم الجميل

وعلى هذا الأساس، فإن الشاعر يستهين بكل ما سوى تلك الغاية الجليلة الجميلة، ولا يقيم وزنا لكل ما تواضع كثير من الناس على إجلاله من جاه أو قوة أو ثروة، فيخاطب هؤلاء بقوله:

"أيها المغترون بالغنى، هنا في قلبي كنوز لا تطمع ببعضها الرؤى ولا تسمو إليها المُنى. أيها المغترون بالقوة هنا في قلبي القوة القاهرة المبدعة تتحدى الطواغيت والفراعين والزلازل والبراكين. أيها المغترون بالملك والسلطان، هنا في قلبي الملك الذي لا يفنى، ولا تحده سماء ولا ثرى. أيها المعذبون بالهرم وبالموت، هنا في قلبي الخلود المُنضر والشباب المعطر يتجددان كل خفقة قلب بما هو أسمى وأحلى وأبقى. أيها الذين

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 241 -242

يسعدهم رضا الناس ويشقيهم غضب الناس، هنا في قلبي وحده ألتمس الغضب والرضا وما أنعم به وما أشقى"[1].

وهكذا فإن القلب إذا ما امتلأ بالإيمان بالله فإنه يدور مع ما يريده الله فيأتيه، ويستوحش مما يبغضه سبحانه فلا يأتيه؛ فيعمر بالنور والجمال. وفي ذلك يقول الشاعر[2]:

ويا رب قلبي ما علمتَ محبــةٌ

وعطرٌ ووهْجٌ من سناك صميم

وآمنتُ حتى لا أروم لُبـــــانة

تخالف ما تختاره وتـــــــــروم

ومن هنا نفهم لماذا لم يُسخر بدوي الجبل شعره قربانا لقوي من الأقوياء أو لسلطان من السلاطين، خوفا أو طمعا..؟ وكيف يجعله قربانا لهؤلاء وقلبه معلق بمصدر القوة كلها والنعيم كله..؟ ولذلك يقول[3]:

وما رضيتُ بغير الله معتصما

ولا رأيت لغير الله سلطـــانا

ولا عكفت بقرباني على صنم

أكرمت شعــريَ لله قربانـــا

ولأن رؤية الشاعر تجاه الحياة والأحياء قد استمدها من هذه العقيدة الربانية، فإن طباعه لم تتلون بما يتناقض ومقتضيات هذه العقيدة. وأن مواقفه من الحياة والناس لم

[1]- بدوي الجبل الأعمال النثرية. ص 25-26.
[2]- ديوان بدوي الجبل، ص 182.
[3]- المصدر نفسه، ص 129.

تتبدل مهما تبدلت الحياة أو تغيرت مواقف الناس، لأنه يستمد المدد على هذا الثبات من صلته العميقة بربه تعالى .. ومن كان حاله كذلك، فإن قلبه يظل على الدوام عامرا بالتوثب نحو كل ما هو طيب وجميل، ومتحررا من كل ما هو خبيث وقبيح. يقول الشاعر[1]:

وطباعي على ازدحام الرزايا

لـــم ينلها التبديل والتغييـــر

مسلم كلما سجدت لربـــــي

فاح من سجدتي الهدى والعبير

ومع الشيب والكهولة قلبي

كعهود الصبا بـــريء غرير

ليَ حريتي وإيمانيَ السمْـــ

حُ فحلميَ هـــانٍ وجفني قرير

والحق كما قال الشاعر، أن الإنسان حين يصل إلى هذا المستوى السامي من العلاقة بالله سبحانه، فإنه يمتلك حريته بحق وينتصر في جميع معارك الحياة، وعلى رأس تلك المعارك معركته مع جبابرة الأرض الذين يظنون خطأ أنهم هم وحدهم في هذا الكون مصدر العطاء والمنع والعز والقهر والحياة والموت .. وغاب عنهم أن جبار السماوات والأرض هو مصدر ما يظنون أنهم هم مصدره. كما غاب عنهم أن من يعتصم بالله

[1]- ديوان بدوي الجبل، ص 207.

ويتوجه إليه وحده بالعبادة، فإنه سبحانه يمده بقوة يحطم بها غرور الجبابرة وينتصر عليهم في نهاية المطاف. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

إذا ملكــوا الدنيا على الحر عنــوة

ففي نفسه دنيا هي العز والكبر

وإن حجبوا عن عينه الكون ضاحكا

أضاء له كون بعيد هو الفكــر

فليلته صبــح وعسرته غنــــــى

وأحزانه نُعمى وآهاته شعــر

وحديث الشاعر عن هذه المعاني الكبيرة المعبرة عن انتصار من ملك حريته بحق ــ لأنه معتصم بالله ــ إنما يعبر عن معركته هو مع أعداء الحرية في هذه الحياة. وقد أكسبه هذا الاعتصام القوة والعزة والاطمئنان والثبات، والاستعلاء على "طبيعة دنيا الظالمين"، فيقول[2]:

وما ضرني أسر ونفسي طليقة

مجنحة ما كف من شأوها أســر

أُطل على الدنيا عزيزا أضمني

إليه ظلام السجن أم ضمني القصر؟

وما حاجتي للنور والنور كامن

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 259.
[2]- المصدر نفسه. ص 259- 260

بنفسيَ لا ظل عليـــه ولا ستـــر

وما حاجتي للكائنات بأسرها

وفي نفسيَ الدنيا وفي نفسيَ الدهر

ثانيا/ قضايا الحرية

إن الحرية في تجربة بدوي الجبل الشعرية ــ مثلما سبقت الإشارة ــ منبثقة من الإيمان. وهي بهذا الانبثاق جعلت الشاعر يدور مع قيم الحق والعدل والخير.

وبناء على هذا الانبثاق، يرى بدوي الجبل أن الشاعر "إذا غنى أعراس الطغيان، أو توارى في صراع الحرية مع الظلم، أو استخذى مجده لمجد حاكم أو قوي أو عظيم، فقد تنكر لنعمة الله، وتغرب عن جمال الله"[1].

وانطلاقا من هذه الرؤية وذلك الانبثاق، فإن مواقف الشاعر بدوي الجبل قد حكمها دائما الانتصار للحرية؛ بعد أن خط لنفسه نهجا اتسم بالمجاهرة بقناعاته المناهضة للظلم والقهر والشر، دون مداهنة أو خوف.

ورغم أن تبعات هذا السلوك كثيرا ما كانت خطيرة على الشاعر، إلا أنه لم يكن يبالي أو يتراجع، بل ولم يندم عليه في أي يوم من الأيام؛ لأنه وهو يتعرض للاضطهاد والحرمان والتشريد بسبب انتصاره للحرية، كان مرتاح الضمير مطمئن السريرة، مثلما أقر بذلك في أواخر حياته[2]. وقد عبر الشاعر بدوي الجبل عن سلوكه المنحاز للحرية بقوله[3]:

وما أكبرتْ نفسي سوى الحق قوة

[1]- بدوي الجبل، الأعمال النثرية. ص 26.
[2]- انظر هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 125.
[3]- ديوان بدوي الجبل، ص 260.

وإن كان في الدنيا لها النهي والأمر

وكنت إذا الطاغي رماني رميتــه

فلا نصرتي همس ولا غضبي سر

وقد بلغ انتصار الشاعر للحرية، أن أعلن أن لكل إنسان في هذه الحياة الحرية المطلقة في أن يختار معتقدة الذي يراه مناسبا، رافضا أن يُرغم هذا الإنسان على اعتناق ما لا يريد أو موالاة ما لا يحب. وفي ذلك يقول[1]:

آمنت بالفرد حرا في عقيدته

وكل فرد وما والى وما اعتقدا

وإذ يعلن ذلك، يعلم ــ وهو المسلم المؤمن ــ أن أجواء الحرية تخدم بكل يقين عقيدة الإسلام، حين تعرض هذه العقيدة، إلى جانب العقائد الأخرى، بعلمية ونزاهة .. وقد عبر الشاعر عن يقينه هذا في رسالة بعثها إلى صديقه (أكرم زعيتر) .. ومما جاء فيها قوله:

"ولو سلمت الحريات لهذه الأمة لرجعت إلى هداها فترة لا يطول أمرها. ولاستطاع إيمان المؤمن أن يدحر كل ضلالة وزيف، وكل تهويل وتدجيل"[2].

والشاعر بقناعته هذه، يضع أصبعه على كلمة السر للوصول إلى تحقيق نهضة الأمة، والمتمثلة في تحرير إرادتها من كل الإملاءات والضغوط، فتختار ما تراه الأصوب من المناهج ، لتنطلق بعد ذلك إلى معانقة المجد في كل الميادين. وأما منطق فرض القناعات الخاصة على الأمة بدعوى أنها لا زالت تعيش طفولة سياسية وفكرية، فلم تجن منه الأمة إلا السراب.. !

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 177.

[2]- أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة. ص 126.

والحرية في تجربة بدوي الجبل الشعرية ليست هدية تمنح، أو غاية يسهل الوصول إليها بيسر، بل إن ضريبة نيلها تتطلب الكفاح المضني، فيقول[1]:

ذل مجد لم ينتسب لكفاح

فهْو مجد رث المعالي هزيل

وأن الإنسان الذي يروم الحرية لوطنه وأمته ينبغي أن يتحرر قبل ذلك من مشاعره السلبية، وعلى رأس هذه المشاعر، اليأس من الوصول إلى الغاية والشكوى من صعوبة الطريق .. يقول الشاعر[2]:

لا يقنط الحر ولا يشتكـــي

لكل بحر هائج شاطئـــان

وأنه حين يكبو في طريق غايته، يجب عليه أن ينهض ولا يستسلم للسقوط. وإذا جانبه التوفيق ولم يصل إلى تلك الغاية، فيجب عليه ألا يفشل وأن يعيد المحاولة مرة أخرى بل مرات، وفي ذلك يقول[3]:

يُعذر الحر حين لا يخطئ العزْ

م، وإن كان أخطأ التوفيقـــا

وإن الأمة التي تسعى لأن تكون في الصفوف الأولى بين الأمم الحرة والقوية ، فإن عليها أن تنفض عنها الكسل، وأن تصل الليل بالنهار في العمل من أجل بلوغ تلك المكانة. وعلى هــذا الأساس يخاطــب الشاعر أمتـــه التي صرعهـــا التخلــف منذ قرون، فيدعو

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 243

[2]- المصدر نفسه. ص 409

[3]- المصدر نفسه. ص 256

أبناءها إلى بذل العمل والنشاط وبذل كل طاقاتهم لإنقاذ أمتهم، قائلا[1]:

يا بني أمٍّ والحياة زحـــام

ذل والله من يخاف الزحامـــا

يا بني أمٍّ هبة بعد نــــــوم

كشف الصبحُ بالضياء الظلاما

ثم ينبه بني أمته وهم يسعون لانتشالها من التخلف، إلى الحذر من إلقاء تبعة ما آلت إليه أمتهم من أحوال لا تسر أحدا على الزمان وتقلبه؛ لأن في ذلك تفسيرا خاطئا للتاريخ، من شأنه أن يثبط العزائم الراغبة في إنقاذ الأمة .. وإنما الصواب أن تُلقى التبعة على المنتسبين إلى الأمة بالدرجة الأولى. وفي ذلك يقول الشاعر[2]:

ورب شاك فساد العصر يظلمه

لم يفسد العصر لكن أهله فسدوا

وفي سياق إلقاء التبعة على أبناء الأمة فيما آلت إليه من تخلف وهوان، يشير بدوي الجبل إلى أهم الأسباب التي أسهمت بقوة في تخلف الأمة العربية والإسلامية في جميع المجالات، فيقول[3]:

تهلهلتْ أمتي حتى غدت أمما

وزُوِّر الوطن المسلوب أوطانا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 517

[2]- المصدر نفسه. ص 298.

[3]- المصدر نفسه. ص 136-137.

وقد عرفتُ الرزايا وهْي مُنجبَـــة

فكيف لم تلد الجُلّى رزايانـــــا؟

تُطوى القبور على الموتى فتسترهــم

وفي القصور وفي السلطان موتانا

من أطفأ الجذوة الكبرى بأنفسنـــــــا

أدهُرنا حال أم حالت سجايانـــا ؟

فهذه الأسباب، يأتي على رأسها واقع التجزئة الذي فرضه الاستعمار الغربي على الأمة، فتحولت إلى مجموعة من الأمم والأوطان بعد أن كانت أمة واحدة ووطنا واحدا. ثم الأنظمة الحاكمة التي صار همها الحفاظ على مصالحها الضيقة بالدرجة الأساس؛ فصارت بسبب سلوكها هذا تسهم في كبح أي محاولة صادقة وجادة لتحقيق نهضة الأمة. ثم يأتي العامل الثالث والمتمثل في انطفاء شعلة الهمة في نفوس العرب والمسلمين رغم توالي المحن المزلزلة، على أمتهم.

ولا شك أن هذه المعاني الشعرية التي تتسم بالوضوح الذي لا التواء فيه، وبالجرأة في وضع النقاط على الحروف، "يدفع الهمم الفاترة لتحطيم أصنام البغي والطغيان "[1].

وقد أحس الاستعمار الفرنسي بقوة شعر البدوي وتأثيره في النفوس، فهددوه بالسجن إن هو استمر في قرض هذا اللون من الشعر، ولكنه لم يكترث. بل راح يهزأ بهذا التهديد. وأعلن رفضه لسياسة الأمر الواقع التي أراد الاحتلال تكريسها في الوطن السوري، ودعا

[1]- عبد الله يوركي حلاق. عشت مع هؤلاء الأعلام، ص 107.

بالكلمة إلى التمرد على هذا الواقع، لأنه يعلم أن للكلمة المقنعة الجريئة دورا خطيرا في التمهيد لإحداث التغيير الجذري في حياة الأمم والشعوب. وفي ذلك يقول[1]:

تُحذِّرني قرض القريض مهذبـــا

عصابـــةُ شـــرٍّ لا تقيم له وزنـــــا

وهددنـــي بالسجـــن قومُ سفاهةٍ

فتى العرب الأنجاد لا يرهب السجنا

سأبعث من شعـــري جيادا مغيرة

عليها كماةٌ تحسن الضرب والطعنا

ولم يتوقف الشاعر عن بث الوعي التحرري بين جماهير الشعب في وطنه رغم سقوط هذا الوطن بين مخالب الاستعمار، لأن الشاعر لم يفقد يقينه بأن سورية ستنتفض في يوم قريب، وأن الأرض ستشتعل تحت أقدام الغاصبين، وأن بطون اليعربيات ستنجب الأبطال الذين سيقومون بهذه المهمة التاريخية. فيقول[2]:

لئن أُطفئت يا مي نيران يعرب

هوانـــا فإنَّا ســـوف نضرمها إنـــا

ولا بد من يوم أغر محجـــــل

تطيـــر الجبال الراسيـــات به عهنا

وكم في بطون اليعربيات خالد

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 443.
[2]- ديوان بدوي الجبل. ص 448.

سيرجع ظهر الأرض من حنق بطنا

والشاعر إذ يشير إلى أحد الأبطال التاريخيين للأمة العربية والإسلامية وهو (خالد بن الوليد)، إنما يفعل ذلك بغرض استنهاض الهمم الهامدة، وتذكير أبناء الأمة بأمجادهم وخصال آبائهم وأجدادهم، حتى يتخذوا من سيرهم معالم على طريق استعادة الثقة في النفس، والانقضاض على الأوضاع الذليلة التي فرضها العدو المستعمر عليهم.

وفي هذا السياق، يُذكر الشاعر ببطل آخر من أبطال الأمة، للاقتداء بفضائله النفسية وببطولاته العسكرية، وهو (صلاح الدين الأيوبي)، قائلا[1]:

هذا صلاح الدين فاخشع إنه

ملك الملوك مُسالما ومُغــيرا

طاف الجلال به مليكا فاتحا

حيا وطـــاف بلحده مقــبورا

فالثم ثراه فقد لثمت خميـــلة

للمكرمات وقد شممت عبيرا

كما يلجأ الشاعر إلى تذكير أبناء وطنه وأمته، بأن تاريخهم عامرــ بالإضافة إلى (خالد بن الوليد) و(صلاح الدين الأيوبي) ــ بالأبطال الصناديد الذين عفروا هامات الجبابرة في التراب، وذلك لبعث الحمية في نفوسهم كي ينتفضوا على المحتلين. فيخاطب كل فرد من أبناء وطنه وأمته، باعتباره حفيدا لأولئك الصناديد كي يكون مثلهم، فيقول[2]:

يا ابن الصناديد الألى قد عفَّــروا

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 467.

[2]- المصدر نفسه. ص 521.

هام الملوك ونكَّسوا جبـــارها

من كل وضـــاح الجبيـــن مغامر

يغشى المعامع مستثيرا نارهـــا

ثم إن بدوي الجبل، حين يستدعي الشخصيات التاريخية التي صنعت أمجاد الأمة العربية والإسلامية، لا شك أنه يشير إلى حاجة الأمة في كل حين إلى القادة التاريخيين الذين يعرفون كيف يقدحون زناد العزائم الواهنة تتحول نارا على الاستعمار، ونورا على طريق استعادة الأمجاد، متسائلا متى يا ترى تجود الأيام بهؤلاء القادة ..؟ وفي ذلك يقول[1]:

كَمُنَتْ عزائم يعـــــــــرب

فمتى يثير النـــــــار قادح ؟

وإلى أن يظهر هؤلاء القادة التاريخيون، فإن الشاعر يدعو أبناء وطنه وأمته إلى عدم الاستسلام للضعف، لأن في ذلك فناء لهم. وأن يُعدوا كل ما يستطيعونه من قوة للمعركة الفاصلة بينهم وبين أعدائهم، قائلا[2]:

أحبابنا لا تضعفوا فالضعف داعية الفنـــــاء

وتعلموا أن الحيـــاة وصفـــوها للأقويـــــاء

الناهدين إلى النزال الصابـــرين على البلاء

وفي سياق استدعاء الشخصيات التاريخية، يلجأ بدوي الجبل ــ وهو الشاعر ذو الطبع الرومانسي ــ إلى الطبيعة فيوظفها في بعث الحمية في النفوس؛ فيذكر أبناء وطنه وأمتـــه بالدماء الزكية التي سالت ــ على امتداد العصورــ على كل روض من رياض الشـــرق

1- ديوان بدوي الجبل. ص 465.

2-المصدر نفسه، ص 436.

فامتزجت أماني أولئك الشهداء في الحرية بمياه الغدران العذبة وبظلال الأشجار الهانئة الباسقة ، فراح شجر الصفصاف يحنو على المتعبين منهم ، ويذرف النخيل دموع الفراق على من اختارهم الله منهم شهداء .. وأن ذكر أولئك المكافحين لله، قد امتزج بطبيعة الأرض ففاحت عبيرا . وفي ذلك يقول[1]:

كل روض في الشرق من دم آبا

ئـــي مُنـــدًّى معطّـــر مطلول

ولُباناتُهم على كـــــل صحـــرا

ء غديـــر صـــاف وظـــل ظليل

حيث يحنو الصفصاف نُعمى على الوا

ني ويبكي على الشهيـــد النخيـــل

كل تكبيـــرة على الرمـــــل نفـــــح

وعبـــيـــر سَكْـــب وأيـــك بليـــل

ومن ثم فإن الشاعر ينبه إلى أن استرداد الحقوق ومعانقة الحرية لا يتحققان إلا بالنضال المضني، وبالقوة التي تمثل الوجه الآخر للحق، فيقول[2]:

والحق والسيف من طبع ومن نسب

كلاهما يتلقى الخطب عريانا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 240

[2]- المصدر نفسه. ص 82.

وفي السياق ذاته يقول[1]:

قولوا لمن غصب القوي حقوقـــــه

السيف باستردادهن كفيــــــل

وأن تحرير الأوطان، يمر عبر نهر من الدماء الطاهرة التي يهبها المكافحون، فيرسمون بها أزكى نموذج . يقول الشاعر[2]:

أزكى من الطيب ريحانا وغالية

ما سال من دم قتلانا وجرحانا

ويحذر بدوي الجبل من الركون إلى ما يسمى بالشرعية الدولية التي يتشدق بها الأقوياء، وهم في الحقيقة يسترون بها مطامعهم. وقد يتحمس لها الضعفاء، وهم إنما يخفون بها تبعيتهم .. قائلا[3]:

أين الشرائع؟ لم يعد في الأرض ظل للشرائع

درستْ وقام بناء على أنقاضها ديـــن المطامع

ويستدل الشاعر في هذا الإطار، بالفضيحة المدوية التي تورطت فيها هيئة الأمم المتحدة حين أعطت "الحق" للكيان الصهيوني في إقامة دولته على أرض فلسطين العربية الإسلامية باسم الشرعية الدولية، قائلا[4]:

هيئة للشعوب تُمعـــــن في الذنْــ

بِ ولا توبة ولا تكفـــــــير

---

[1]- المصدر نفسه. ص 509.
[2]- ديوان بدوي الجبل. ص 81
[3]- المصدر نفسه. ص 436.
[4]- المصدر نفسه. ص 198- 199

شارك القوم كلهم في أذانـــــــا

ومن القوم غُيـــَّبٌ وحضـــور

من قوانينها المُداراة للظُّـــــلْــ

ـمِ ومنها التغريـــب والتهجيــر

وعليه .. ينبغي على هذه الأمة المستضعفة ألا تعول على "نظرية السلام" التي يُمسك بخيوطها هؤلاء الذين يقفون مع الجور والباطل على حساب العدل والحق. والذين يتحركون بوحي من نوازع الطمع فابتلعوا الحق العربي والإسلامي في فلسطين. ويمارسون، على الدوام، عاداتهم في إبادة الشعوب ــ التي لا تنتمي إلى منظومتهم السياسية والفكرية ــ تحت شعار محاربة الفوضى في العالم وحماية السلام العالمي. وهم إنما يعبثون بالنظام ويغتالون السلام. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

لا تظنوا السلام في الأرض حيا

طمع الأقوياء غال السلاما

طمع لو أطاق فاخشـــــوا أذاه

حبس النور عنكمُ والغماما

أيعدون قتل شعب حـــــــلالا

ويعدون قتل فرد حرامـــا؟

عبثوا بالنظام بغيا وقالـــوا

قد أتيناكمُ لنحمي النظامـــا

1- ديوان بدوي الجبل. ص 517.

ويتعجب الشاعر من الشعوب المستضعفة التي تستمر في الرهان على مستعبديها، وتظن بأنهم سيجودون عليها في يوم قريب بالحرية، وينصفونها فيعيدون إليها حقوقها. وهي إذ تنام وتستيقظ على هذا الرهان، إنما تعبر عن نفوس قد وجدت راحتها في الذل وانتهى الأمر؛ لأن منطق الأمور الذي ، عرفته وتعرفه الشعوب الحية مذ وجدت على هذه الأرض ، أن شمس الحرية لم تشرق ولن تشرق، إلا على أرض قد روتها دماء أبنائها المكافحين. وأن جبابرة الأرض لا ينكسرون إلى أمام تلك الدماء .. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

ويلٌ الشعوب التي لم تسق من دمها

ثاراتها الحمر أحقادا وأضغانا

ترنح السـوط في يُمنى معذبـها

ريان من دمها المسفوح سكرانا

تُغضي على الذل غفرانا لظالمها

تأنَّق الذل حتى صار غفرانـا !

وهناك صنف آخر من "أبناء الذل"، يعتقد أنه حين يقدم "واجب العتاب" لظالميه، يكون قد أدى كل ما عليه تجاه وطنه وأمته .. وقد غاب عنه أن الظالمين يسخرون من هذا "اللون العجيب" من الواجبات، وأنهم لا يستجيبون إلا عندما يجابهون بالقوة التي تزلزل منطقهم، ويعاملون بالحقد الذي ينسف أحقادهم .. حينها فقط يتراجعون ــ وهم كارهون ــ عن ظلمهم وطمعهم. يقول الشاعر[2]:

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا

1- ديوان بدوي الجبل. ص 80.

2- المصدر نفسه. ص 80.

رق الحديد وما رقوا لبلوانـــا

خلِّ العتاب دموعا لا غناء بهـــا

وعاتب القوم أشلاء ونيرانـــا

آمنت بالحقد يُذكي من عزائمنـــا

وأبعـــد الله إشفاقا وتحنانـــا

ويتعجب الشاعر من حال قومه الذين طال سباتهم، حتى أنكرتهم مناسباتهم السعيدة، كالعيد الذي أحس بالغربة بينهم .. وخجلت منهم المنايا؛ لأنهـــم لا يموتون كما يموت الأحـــرار، فيقول[1]:

تغرب العيد في قومي وأنكرهم

على الميادين أحرارا وعبدانا

قد استـــرد السبايا كل منهـــزم

لم تبق في رقـــها إلا سبايانا

وما لمحتُ سياط الظـــلم دامية

إلا عرفتُ عليها لحم أسرانا

ولا نموت على حد الظُبى أنفا

حتى لقـــد خجلت منا منايانا !

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 135

والشاعر، وهو يعلم يقينا أن طريق كسر إرادة المستعمر لا تكون إلا بالقوة، لا يفوت التذكير بالهزيمة المدوية التي تلقاها هذا المستعمر على يد الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية. ليشير من طرف خفي إلى أن إلحاق الهزيمة بهذا المستعمر على الأرض السورية وعلى كل أرض يحتلها، ليس بالأمر البعيد. كما لا يُخفي تشفيه بهذا العدو الذي لطالما آذى سورية وغير سورية، فإذا بالدهر يُمرغ كرامته في الأوحال ، ويمسخه خادما ذليلا تحت أقدام الألمان، فيقول[1]:

سمعتُ باريس تشكو زهو فاتحها

هلا تذكرت يا باريس شكوانا

عشرين عاما شربنا الكأس مترعة

من الأذى فتمليْ صرفها الآنا

ما للطواغيت في باريس قد مُسخوا

على الأرائك خُداما وأعوانا

الله أكبر هــذا الكــون أجمعـــــه

لله لا لك تدبيـــرا وسلطانا

ومن القضايا المركزية، المتعلقة بالحرية في تجربة بدوي الجبل الشعرية، أن تحرير الأوطان من الاستعمار العسكري الخارجي، لا يعني بالضرورة أنها قد نالت حريتها الكاملة، اللهم إلا إذا انتهى أمر الحكم فيها إلى بنيها جميعا ودون أن تقع تحت وصاية أية جهة بعينها قد تسعى تحت ذرائع شتى لفرض رؤيتها على الجميع؛ فتقع الأوطان بعدها في مستنقع من المآسي والأزمات لا تقل خطورة عن الخطر الخارجي الذي تم دحره وطرده.

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 83 - 84

ولذلك فإن الشاعر بدوي الجبل، لم يخلد إلى الغفلة بعد تحرير وطنه من الاستعمار الأجنبي، فصارت الحرية عنده بعدها، "تتعلق باختيار شكل الحكام، وبناء سلطة الدولة التي سيعيش السوريون في ظلها"[1].

وعليه، فإنه بعد دخول سوريا في مرحلة الانقلابات العسكرية على الحكم المدني، فإن الشاعر بدوي الجبل قد انحاز بلا تردد إلى الحرية، مثلما انحاز إليها إبان مرحلة الاستعمار الخارجي لبلده، فتعرض مرة أخرى للتشريد والاضطهاد من قبل الانقلابيين، مثلما تعرض قبل ذلك للتشريد والاضطهاد على يد المستعمرين.

وفي ظل هذا الوضع الغريب الذي انتهى إليه الوطن، بعد نهر من الدماء الزكية التي بذلت في سبيل دحر العدو الخارجي؛ تتملك الشاعر الحيرة، فيتوجه بالنداء إلى كل شهيد من شهداء الوطن ــ وهو يعلم أن الشهداء أحياء عند ربهم ــ كي يمزق قبره ويعود إلى هذه الحياة ليفدي وطنه من جديد، وينقذه من المصير الذي آل إليه بعد رحيل الاستعمار. فيناجيه بقوله[2]:

كيف تغفو ألم تر الشام في النَّزْ

عِ وتشهد لواءها المخنوقا؟

مــزِّق القبــر فالجلاء يتيــم

بَدَّدوا إرثه وغالوا الحقوقا !

لقد رفض الشاعر سياسة فرض الرؤية الواحدة على الوطن والشعب، وأعلن تمرده على أصحابها مثلما تمرد قبل ذلك على جبابرة الأرض الذين دفعتهم أطماعهم إلى اكتساح البلاد.

---

[1]- سيف الدين القنطار، بدوي الجبل، دراسة في حياته وشعره، ص 80.
[2]- ديوان بدوي الجبل. ص 125

بل ورأى أن هذا الأسلوب في تسيير شؤون الوطن استبداد يرقى إلى مستوى محاولة استعباد الشعب؛ فوصف أصحابه بأنهم طغاة بلغوا حدا بعيدا في طغيانهم، فيقول[1]:

يسومنا الصنم الطاغي عبادته

لن تعبد الشام إلا الواحد الأحدا

وجهُ الشآم الذي رفَّتْ بشاشته

من النعيم لغير الله ما سجـــــدا

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هنا : لماذا تبلغ درجة نفور الشاعر من الحكم الانقلابي إلى الحد الذي يصف "زعماءه" بأنهم متألهون..؟ فيجيب الشاعر بقوله[2]:

تفنن الصنم الطاغي فألْفُ أذى

وألْفُ لون من البلوى وألْفُ ردى

أنحى على الشام أريافا وحاضرة

فلم يـــدع سَبَدا فيـــها ولا لَبَـــدا

جُهْد العفاة من العمال جزيتـــه

وكـــل ما قطف الفلاح أو حصدا

هذا المُدلُّ على الدنيا بصولتـــه

ما صـــال إلا على قومي ولا حشدا

ومُرْعِدٍ مُبرقٍ ضجت صواعقه

[1]- المصدر نفسه. ص 173.
[2]- ديوان بدوي الجبل. ص 174

حتـــى إذا قامـــت الجُلَّى له قعـــدا

لو استطاع محـــا أمجادنا بطـــــرا

لم يُبْق منهن لا بدرا ولا أُحـــدا

إن الأسباب التي أشار إليها الشاعر، في هذه الأبيات، والتي جعلته ينفر من فكرة اللجوء إلى القوة للوصول إلى الحكم، ويصف صاحبها بما تضمنته الأبيات من صفات؛ تدفع أي إنسان نزيه يشاطره الرأي..!

فالزعيم الذي يصل إلى الحكم بالانقلاب على الشرعية فإنه، وبغض النظر عن نواياه، سيلقى نفورا من الشعب، لأنه انقلب على نموذجه في الحكم الذي ارتضاه.. وكأنه بهذا الانقلاب يقول لأبناء الوطن أنا أدرى بما يصلح لكم وما لا يصلح. فيتحول من حيث يشعر أو لا يشعر إلى متقمص لصفة من صفات الإله الذي يعلم وحده ما يصلح لعباده وما لا يصلح لهم..!

وحينذاك يقوم هذا الزعيم بإلزام الشعب بوجوب طاعته ولأن الطاعة المطلقة لم تتحقق في التاريخ حتى للأنبياء عليهم السلام، فإنه يلجأ إلى كل الأساليب لفرض نفسه على الجميع. ومن تلك الأساليب أسلوب قهر معارضيه مهما كانوا سلميين ؛ لأن من وصل إلى الحكم بالقوة سيفرض سياساته على الشعب بالقوة ولا يسمح لأحد بمناقشته في سياساته تلك مهما شابها من قصور..!

ثم يستحوذ بعد ذلك على خيرات البلاد ، هو ومن وقف إلى جانبه عندما سطا على الحكم. ويفرض سياسته "العادلة" في تفقير أغلب شرائح المجتمع، حتى يرغمها بذلك على التفكير في شؤون الجهاز الهضمي وحدها، فتنشغل عن التفكير في قضايا الحكم والسياسة فيأمن شرها..!

وعندما يطول به المقام في الحكم ولا ينقلب عليه غيره، مثلما انقلب هو على الشعب أو على من سبقه، يقوم بإعادة صياغة ثقافة الشعب وتاريخه، انطلاقا من ثقافته وتاريخه هو. فتصبح أمجاد الوطن منذ فجر التاريخ، لا تقارن بإنجازات هذا "الزعيم" الانقلابي ..!

وأما في سياسته الخارجية فإنها تقوم في الغالب على فكرة "دعوني وشأني مع الشعب وأنا رهن إشارتكم". وبخاصة مع القوى الكبرى في العالم، فيتحول من حيث يريد أو لا يريد إلى مفرط في مصالح وطنه وأمته العليا..!

ويشير الشاعر إلى أن مأساة الوطن في ظل الزعيم المستبد، يتحمل مسؤوليتها أيضا السائرون في ركاب هذا الطاغية، المشاركون إياه ــ ولو بالسكوت ــ فيما يصنع، فيضعهم معه في كفة واحدة، هي كفة هدم الوطن .. وفي ذلك يقول[1]:

ومن حمى ظلم فرعون لأمتـــه

فقد تفرعن طغيانا ومعتقـــدا

تحملوا وزر هذا الشرق مزقه

جنون طاغ فأضحى شمله بددا

لا أكْذب الله قد أضحت كنوزكم

لصرح طغيانه الأركان والعمدا

لا أكْذب الله من أموالكم صُقلت

خناجر طعنتْ حريتي ومُـــــدى

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 175- 176

وفي ظل هذا النظام يُضيَق على الكفاءات التي لا يرضى عنها الزعيم. ويطارد كل صاحب رأي مخالف وكأنه من عتاة المجرمين .. ولا يبقى من صوت جهير إلى صوت الأذان..! وفي ذلك يقول الشاعر [1]:

يا لهـــا دولة تُعاقَـــب فيها

كالجنـــاة العقـــول والأذهـــــان

أين حريتي فلم يبق حـــرا

من جهيـــــر النـــداء إلا الأذان؟

ويرى الشاعر في قمع رموز النظام المستبد للأصوات الحرة بأنه فعل الجبناء الذين يرعبهم الصوت الحر المخالف؛ فيسوقون الوطن بطغيانهم إلى التخلف في كل المجالات. في الوقت الذي تتسابق فيه الشعوب الحية إلى معانقة كل تقدم في كل الميادين، بفعل أنظمتها التي انبثقت منها ولم تفرض عليها .. يقول البدوي [2]:

سُبَّةُ الدهر أن يُحاسَب فكــــــر

في هواه وأن يغل لســــــــان

الضحى والشجاع حلفا كفـــاح

ما احتمى بالظلام إلا الجبـــان

حرَنُوا والشعوب في موكب السبـْـ

[1]- المصدر نفسه. ص107-108.
[2]- ديوان بدوي الجبل. ص 108.

ق ومن شيمة الهجين الحِران

وفي ظل هذه السياسات المتخلفة، تكون المحصلة النهائية موتا معنويا يجلِّــل المجتمع، فتختفي كل صور الإحساس بالكرامة الإنسانية، وتتوارى كل الطاقات المبدعة التي يحتاجها الوطن من أجل أن يحيا وينهض. و في ذلك يقول الشاعر[1]:

كيف تشدو بلابل الدوح للفجْــ

ر وفي الدوح عاصفٌ مِرنــان

يا لها ميتة ومن صور المــوْ

تِ همــــود الإباء والإذعــان

وهكذا تتملَّك الشهــواتُ غيــرُ المنطقية الطاغيةَ بعد أن تستبــد القوى اللاعقلانيــة واللاشعورية على سلوكه؛ فيقود الدولة إلى مصائر محزنة[2]. حتى إذا ما تعرض هذا المجتمع لخطر خارجي يهدد أمنه وسلامة أرضه، مثلما حدث في حرب جوان 1967، فإن النتيجة المنطقية ستكون هزيمة ماحقة؛ لأن الطغيان قد أجهض كل عناصر المناعة لدى الشعوب العربية، وحول الوطن العربي إلى سجن كبير، وجعل حياة الإنسان العربي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة .. إذ كيف تدفع هذه الشعوب عدوان العدو ــ فضلا عن أن تبطش به ــ وهي أسيرة أو رضيت بالأسر..؟ فماتت فيها النخوة العربية والغيرة الإسلامية والكرامة الإنسانية .. يقول الشاعر[3]:

نحن أسرى ولو شمسنا على القيْــ

---

[1]- المصدر نفسه. ص 106-107.

[1]- انظر إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية دراسة فلسفية لصور الاستبداد السياسي. إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت. سلسلة عالم المعرفة رقم 183 رمضان 1414هـ ، مارس/ آذار 1994 ص 114 - 115

[3]- ديوان بدوي الجبل، ص 194.

د لما نالنا العدو المغـــيـــــر

لاقتحمنا على الغزاة لهيـــــــــبا

وعبرنا وما استحال العــبور

نحن موتى وشر ما ابتدع الطغْـــ

يان موتى على الدروب تسير

نحن موتى وإن غدونا ورحنـــا

والبيـــوت المزوقات قـــــبور

إن هزيمة العرب أمام الكيان الصهيوني في جوان 1967 تشكل من خلال هذه الأبيات خلاصة ما انتهى إليه الطغيان الذي ساس الإنسان العربي بالظلم والفقر، وحكم الوطن العربي بالاستبداد والقهر.

ولأن الطغيان قاتل للإنسان ومدمر للأوطان، كان بدوي الجبل من خلال تجربته الشعرية، أشد نفورا منه. وهو نفور اتسم بالمواجهة الضارية، فيقول[1]:

بيني وبين الظلم نــــــار وغى يُشب لها وَقــود

وتهون عندي النائبـــات فلا ألين ولا أحيــــــــد

ويجابه المتسربلين بالطغيان عتوا بعتو وكبرا بكبر، ويحتقرهم أشنع احتقار .. فيقول[2]:

الكبر عندي للعظــــيم إذا تكبر لا العتــــاب

عندي له زهد يُـــدل على الكواكب واجتنـــاب

1- ديوان بدوي الجبل. ص 155.
2- المصدر نفسه. ص 74.

ويعد الطغيان أشنع الذنوب فلا يركن إلى أهله أبدا ، وفي ذلك يقول[1]:

وكل ذنب سوى الطغيان ننزلـــــه

على جوانحنا حبا وغفرانــــــا

ولما كان الطغيان بنتائجه بهذه البشاعة فما الذي يجعل بعض أبناء الوطن يتصفون به؟ ويتشبثون بتلابيبه؟ فيجيب الشاعر بأن السر يكمن في مجموع الصفات النفسية والذهنية التي ترشح أصحابها لكي يكونوا طغاة بامتياز. والمتمثلة في:

ــ قصورهم العلمي والثقافي، مع ادعاء امتلاك الحقيقة التي تخول لهم وحدهم وضع السياسات المختلفة.

ــ اتصافهم بالجبن الذي يسترونه بقمع المواطنين والمعارضين على السواء.

ــ أضف إلى ذلك أن هؤلاء لا يملكون خلفية سياسية أو ثورية ذات وزن يؤبه له.

ويجمل الشاعر هذه المعاني في قوله[2]:

محنة الحاكمين جهل ودعـــوى

جُبُن فاضح ومجد عثـــــور

ومن هنا نفهم لماذا كانت محنة الأوطان تحت أنظمة الطغيان كبيرة ..؟

وبعد هذا كله، ينظر الشاعر إلى مآل المستبدين فيحذرهم من يوم يزلزلهم ويزلزل عروشهم؛ لأن دوام الطغيان مخالف لسنن التاريخ، وأن استمرار الشعوب في استكانتها مستحيل، فيقول[3]:

---

[1]-المصدر نفسه. ص 131.
[2]- ديوان بدوي الجبل. ص 202
[3]-المصدر نفسه. ص 206.

كل حكم له وإن طالـــت الأيـّ

ام يومـــــــان أول وأخيـــــر

كل طاغ مهما استبد ضعيف

كل شعب مهما استكان قديـــر

ولما كانت الحرية من القيم الكبرى المحبوبة لدى كل إنسان سوي، وكان طريقها مفروشا بالمعاناة والأحزان، فإن السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو: كيف نظر الشاعر بدوي الجبل ــ من خلال تجربته الشعرية ــ إلى هاتين القيمتين .. قيمتي الحزن والحب؟ .. إن الإجابة على هذا السؤال المهم تتضح من خلال الفصل التالي من الرسالة.

الفصل الرابع/ الحزن والحب في تجربة بدوي الجبل الشعرية

ــ أولا/ الحزن

ــ ثانيا/ الحب

قبل البدء بتحليل مفردات هذا الفصل، قد يتبادر إلى بعض الأذهان سؤال يتعلق بطبيعة العلاقة بين الحزن والحب، حتى يتم تحليلهما معا في فصل واحد..؟ لأن الحزن عادة ما يخرج الإنسان من حال السعادة أو الاستقرار النفسي، إلى حال القلق، وأن الحب بخلاف ذلك. فما الذي دفعني إلى الجمع بين هذين النقيضين..؟

والحق أن هذا اللون من الأسئلة، وإن كان وجيها ومهما، فإنني أبادر إلى الإشارة، قبل الإفاضة في التحليل، إلى أن التجربة الشعرية في شعر بدوي الجبل هي التي فرضت هذا الجمع بين الحزن والحب. وبالتالي فإن الأمر لا علاقة له برغبتي كباحث، أن أقع من حيث أشعر أو لا أشعر في ذلك التناقض الذي قد يبدو للوهلة الأولى أنه تناقض.

إن الحزن والحب في تجربة الشاعر بدوي الجبل مترابطان بصورة كبيرة. فالحزن في هذه التجربة نابع من الآلام التي اعترضت طريق الشاعر وهو يكافح، مذ كان فتى من أجل سيادة القيم التي شكلت رؤيته الوجودية .. وقد أسهمت العوامل الثقافية التي تغذت منها شاعريته ــ وعلى رأسها العامل الديني ــ في نظرته إلى تلك الآلام باعتبارها أمرا لا فكاك منه للعبور إلى المجد، سواء أتعلق هذا العبور بالإنسان أو بالوطن أو بالأمة. بمعنى أن طريق بلوغ المجد مفروش بالآلام؛ فغدا الحزن النابع من الآلام ــ تبعا لهذه الرؤية ــ مرحبا به نفسيا، بل ومحببا طالما أنه يقود إلى المجد، فالتقى الحب على هذا الصعيد بالحزن في تجربة الشاعر.

ومن هنا فإن بدوي الجبل نظر إلى الحزن والحب كقيمتين متمازجتين في الكون وفي الوجدان معا.

وقد عبر الشاعر عن هذا التمازج بين القيمتين في الكون حين قال[1]:

والخير في الكون لو عريت جوهره

[1]- ديوان بدوي الجبل، ص 121.

رأيته أدمعـــا حرى وأحزانـــا

وعبر عن تمازجهما في وجدانه بقوله[1]:

إن قلبي خميلة تُنبت الأحْــ

زانَ وردا ونرجسا وشقيقـــا

لو على الصخر نهلة من جراحي

راح مُخضَوْضَل الظِّلال وريقا

همي الهم لو تكشّــف للنـــــا

سِ لأغرى حسنا وراع بريقا

وبناء على هذه الرؤية وهذا التمازج، صارت العلاقة بين الشاعر وبين هموم الحياة وأحزانها كعلاقة الوالد بأبنائه، يعطف عليهم ويحبهم ولا يحس بالضيق منهم. وفي ذلك يقول[2]:

وأنا الوالد الرحيم وأبنـــا

ئي هموم الحياة والأشجـــان

إن هذا التمازج بين الحزن والحب، في وجدان الشاعر وفي تجربته الشعرية، يبعث على السؤال عن السر، أو قل عن خلفية ذلك؟

إن السر أو الخلفية، تتكشف بسهولة، حين نتذكر تأثر الشاعر بالقرآن الكريم منذ طفولته. وكذا تأثير "مدرسة والده"، وأجوائها الإيمانية في تشكيل وجدانه؛ وأثر ذلك كله

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 121.
[2]- المصدر نفسه. ص 105.

في بلورة تجربته الشعرية. وهذا ما كنت قد تناولته في الفصول السابقة، وبخاصة في الفصل الأول.

فماذا يقول القرآن الكريم الذي تأثر به الشاعر طيلة حياته، في الآلام والأحزان..؟ وهل ربط القرآن بين الحزن والحب في آياته الكريمة..؟ وما علاقة ذلك بالمعاني التي عبرت عنها تجربة الشاعر بدوي الجبل بهذا الخصوص؟

حين نتصفح القرآن الكريم، نكتشف في سوره الإجابة الواضحة على الأسئلة السابقة.

نكتشف أن الإنسان لم يوجد في هذا الكون عبثا، وقد عبرت عن هذا المعنى آيات قرآنية كثيرة من ذلك قوله تعالى – وهو يُبين سبب خلق الحياة والموت–: "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا"[1]. والابتلاء هنا بمعنى الامتحان. وعبر عنه بالفتنة في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: "أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهو لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين"[2]. وينبعث من هذه الآية سؤال: كيف يمتحن الله عباده المؤمنين به ..؟ وتأتي الإجابة في الآية القرآنية التي تقول:" ونبلوكم بالشر والخير فتنة، وإلينا ترجعون"[3]. ويقفز إلى الذهن سؤال تثيره هذه الآية هو: ما المنهاج الذي يضمن اتّباعُه النجاح في هذا الامتحان..؟ وتأتي الإجابة في قوله سبحانه:" وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله"[4]، ليتبادر بعدها إلى الذهن سؤال عن معيار النجاح في هذا الامتحان؟، فيجيب القرآن الكريم عن هذا المعيار في آيات كثيرة .. منها قوله تعالى: " فاصبر صبرا جميلا"[5]؛ لأن اتّباع الصراط المستقيم ــ الذي رسمه الخالق لعباده ــ يتطلب الصبر على

[1]- سورة الملك، الآية 2.
[2]- سورة العنكبوت، الآيتان 2 - 3
[3]- سورة الأنبياء، الآية 35.
[4]- سورة الأنعام، الآية 153.
[5]- سورة المعارج الآية 5.

مقتضياته، ويأتي على رأس ما يجب الصبر عليه، مكاره الحياة وهمومها التي تعترض طريق الإنسان وهو يسير في هذا الصراط .. وليس من شك أن تلك الهموم والمتاعب تؤلم النفس، بل إنها كثيرا ما تبعث على الحزن. وحينئذ يجب على هذا الإنسان أن يواجهها بالصبر. وصبره لا بد أن يكون جميلا، أي لا تأفف فيه أو شكوى من القدر.. !

وبهذا نفهم سر ذلك الترابط بين الحزن والحب في تجربة بدوي الجبل الشعرية. كما نفهم سر رضا الشاعر عن قدره ــ رغم الآلام التي عصفت بحياته طويلا ــ والذي عبر عنه بقوله[1]:

ويا رب درب في الحياة سلكتُه

وما حدتُ عنه لو عرفت المُغيّبا

وهو الذي بدأ "حياته في المعتقلات والسجون، وأنهاها مشردا مطاردا منفيا معتدى عليه".[2]

وللوصول إلى هذا المستوى المتألق من معانقة الحزن دون امتعاض، فإن الأمر يتطلب الخروج من مراد النفس إلى مراد المنهاج ــ الذي أشرت إليه قبل قليل ــ فتكون محصلته سلوكا جميلا يضيف إلى الحياة ما يُثريها ويُزينها. وقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى وهو يتحدث عن تجربته في هذا السبيل، وذلك من خلال مناجاته لله في قوله:[3]

جلا نـــورك الدنيا لعيني وسيمـــة

فلم يبق حتى في الهموم دميـــم

وسلَّمتُ أمري لا من اليأس بل هوًى

[1]- ديوان بدوي الجبل، ص 164

[2]- ميشال خليل جحا، الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، دار العودة، بيروت. ط1، 1999. ص 189

[3]- ديوان بدوي الجبل، ص 182.

أصيـــل وإرث طاهـــر وأروم

وتبين هذه التجربة التي خرج فيها بدوي الجبل من مراد نفسه إلى مراد ربـــه ــ والتي أوصلته إلى معانقة الحزن ــ أن يكون صاحبها على قدر كبير من الصبر، يتمرغ خلالها قلبه في لظى الآلام الناجمة عن الصراع مع الموانع والمكاره الكثيرة التي تحاول صده عن ذلك المنهاج. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

وما نال معنى القلب إلا لأنه

تمرَّغ في سكب اللظى وتقلبـــا

ولا شك أن هذا البيت الشعري، يندرج في عداد أبيات الحكمة التي جاءت في تجربة بدوي الجبل الشعرية بلا تكلف ــ لأنها انبثقت من تجاربه الصادقة في الحياة ــ فضلا عما تضمنه من معنى رائع، جعلت رئيس المجمع العلمي بدمشق الأمير مصطفى الشهابي يرصد مثل هذه المعاني الجميلة في شعر بدوي الجبل، ويخاطب الشاعر بقوله[2]:

أيا شاعر العرب الذي سار شعره

يُدوِّي فلا يُثنيه بر ولا بحــــــر

وتمرغ القلب في نار الآلام وتقلبه، يكسب صاحبه مع مرور الأيام ، إن كان ذا عزيمة، قوة وصلابة وشراسة على مقاومة الخطوب والتغلب عليها، والتهوين من شأنها بعد ذلك؛ فيصير الحزن الناشئ عن الآلام ــ في مرحلة تالية ــ حبيبا إلى النفس كالجمال تماما .. وفي ذلك يقول الشاعر[3]:

فما الحزن إلا كالجمال أَحَبـــُّــه

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 158.
[2]- عدنان الخطيب، مجمعي افتقدناه بدوي الجبل. مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، الجزءان الأول والثاني، يناير - نيسان، 1982. ص 252- 253
[3]- ديوان بدوي الجبل، ص 158.

وأَترفُه ما كان أنأى وأصعبـــا

وإذا كان الحزن والحب مترابطين ومتمازجين في تجربة بدوي الجبل الشعرية، فليس معنى ذلك استحالة الفصل بينهما على مستوى الدراسة، بغرض الغوص في التفاصيل المتعلقة بكل منها. وهو الأمر الذي بينته من خلال التحليل التالي:

أولا/ الحزن

اصطبغ شعر بدوي الجبل منذ تجاربه الشعرية الأولى بالوجدانية الحزينة، والتي كانت في بعض مراحلها قاتمة، ولكنها كانت تنتهي على الدوام إلى إحساس الشاعر بالرضا بالأقدار. وهو رضا نابع من الصبر الجميل على الآلام، مما جعل موضوع الحزن في تجربة بدوي الجبل الشعرية من ذلك اللون الذي لا يسلم إلى اليأس .

ونلمس هذه الوجدانية الحزينة عند بدوي الجبل ــ وهو في مقتبل العمرــ حين يناجي البلبل المغرد بقوله[1]:

غـــن يا بلبل فوق الدوح غن

أنت أولى بالهوى والشعر مني

لك سحر مثل سحري عَجَبٌ

أتُرى عندك حزن مثل حزني ؟

ويبلغ إحساس الشاعر بالحزن مبلغه حين يقول في قصيدة (الكآبة الخرساء)، وهي من شعر البواكير لديه[2]:

إن هذا الورى بيوت قصيـــد

1- ديوان بدوي الجبل. ص 542.

2- المصدر نفسه. ص 439.

أنا فيها يا ميُّ بيتُ الرثـــاء

وفضلا عن المعنى الطريف الذي تضمنه هذا البيت الشعري، فإن عنوان القصيدة نفسه يكشف عن الوجدانية الحزينة القاتمة التي طبعت تجربة بدوي الجبل الشعرية منذ بدايتها، إلى الحد الذي استقر في روع الشاعر أن الألم والشاعرية خلان لا يفترقان .. وفي ذلك يقول[1]:

خُلق الشاعر والبؤس معـــا

فهما خلان لم يفترقـــا

ولهذه الوجدانية الحزينة في تجربة بدوي الجبل الشعرية أسباب تتمثل في:

- سقوط وطن الشاعر تحت قهر الاستعمار الفرنسي.
- سقوط أمته تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي.
- التناقض القائم بين القيم التي شكلت رؤية الشاعر الوجودية، وبين الواقع الاجتماعي والسياسي الذي طبع حياة وطنه وأمته.
- الآلام التي أصابته جراء مواقفه النضالية ضد الاستعمار الأجنبي لوطنه وأمته. وكذا تلك النابعة من الظلم والتشرد اللذين عاشهما جراء مواقفه الرافضة لأنظمة الاستبداد والدكتاتورية في بلده في مرحلة الاستقلال.
- أضف إلى ذلك أسبابا شخصية وهي:

أ- يُتم الشاعر المبكر، حيث ماتت والدته وهو لم يتجاوز العامين من عمره[2] .. وإن فقدان الوالدة في مثل هذه المرحلة من العمر، يفقد الوليد نبعا أصيلا من الحنان ليس من السهولة تعويضه.

[1]- ديوان بدوي الجبل.. ص 439.
[2]- انظر زهير المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر، ص 21.

ب_ وفاة والد الشاعر الذي كان بالنسبة إليه الوالد والأم والمدرسة .. وقد جاءت وفاته والشاعر في المعتقل الفرنسي مثلما بينت ذلك في الفصل الأول.

ج- وفاة ابنته جهينة سنة 1950 وهي في مرحلة الدراسة الجامعية[1].

د- "وفاة ابنه عدنان في مطلع العام 1968"[2].

فلا شك أن لهذه الأسباب مجتمعة، أثرها الكبير في ذلك الحزن الذي سكن وجدان الشاعر، وعكسته تجربته الشعرية منذ البداية وإلى آخر ما خطته يده من شعر.

فحين اكتسحت جيوش الغزاة الفرنسيين مدينة دمشق بعد موقعة ميسلون سنة 1920، ثم بسطت سلطانها بعد ذلك على ربوع سورية، كان من الطبيعي أن يكون لهذا الاكتساح وقعه الحزين على النفوس، فتملك البدوي الحزن وهو يرى وطنه في يد الغاصبين، فيقول وهو بعيد عن دمشق، بعد أن صار هدفا للمحتلين[3]:

يقولون غنّ الغوطتين وهل رأوا

محبا على مثوى حبيبته غنـــى؟

فيا جنة الفردوس لو لم يعث بها

شياطين إنس روعوا الإنس والجنا

ويا جنة الفردوس لكنْ قطوفها

بغير أكف الصيد من أهلها تُجنى

حننتُ إلى رياك والسيف مُصْلَت

[1]- انظر إيليا الحاوي، بدوي الجبل شاعر الأناشيد والمراثي، ج1، ص 12. وسيف الدين القنطار، بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره، ص 106.
[2]- هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 74.
[3]- ديوان بدوي الجبل. ص 444.

وقد يُعذر النائي الغريب إذا حنّا

غير أن هذا الحزن لم يُسلم الشاعر إلى الوقوع في شرك الهزيمة النفسية؛ لأنه يرى الأحزان هي الترياق الذي يجب أن يتجرع مرارته المتطلعون إلى أفضل حياة لوطنهم وأمتهم، فيدفعهم إلى العمل بقوة من أجل بلوغ هذا الهدف. وفي ذلك يقول[1]:

يا خمرة الحزن هذي الكأس مترعة

للشاربيــن وهذا الشاعــر الغرد

إن الندامى على عهد الحبيب بهم

لا جانبوا النشوة الكبرى ولا زهدوا

وعندما تكون الأحزان باعثة على السير الحثيث نحو تحقيق المجد للوطن، فمرحى بها، ولا جعل الله قلبا خاليا من نعمائها، ولا شفاه منها .. وفي ذلك يقول الشاعر[2]:

لا أوحش الله قلبي من مواجعــه

ولا تحول عن نعمائها الحســد

ولا شفى الله جرحا في سريرته

نديان ينطف منه الخمر والشَّهَد

ويشير الشاعر إلى أن انتصار الوطن في معارك التحرير أو البناء، لا يكون إلا بجهود أبنائه الذين اكتسبوا حزنا مضيئا نابعا من مرارة آلام الطريق؛ إذ إن طبيعة حزنهم هذه هي التي ستبدد الظلمات وتذلل الصعوبات، فيقول[3]:

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 219.

[2]- المصدر نفسه. ص 219.

[3]- المصدر نفسه. ص 217.

ومُدلجين أضاء الحزن ليلهم

حتى إذا انطفأت أحزانهم قعــدوا

الطالعون على الدنيا بنصرهم

لولا الفواجع هل شدوا وهل نهدوا؟

وتأسيسا على هذا المعنى، فإن الحزن في تجربة بدوي الجبل الشعرية وفي رؤيته الوجودية، يعد قيمة مهمة لا غنى للحياة الإنسانية عنها. ويشرح بدوي الجبل هذه الفكرة فيقول:

"عندي أن الحزن هو وراء الإبداع العظيم والعطاء العظيم. لكنه حزن يسمو بالنفس الإنسانية ويطهرها، ويساعد هذه النفس على الفناء في الجمال الأسمى. وهي حالة يدركها الأنبياء والأولياء والشعراء"[1].

ويقابل هذا الحزن المضيء المبدد لظلمات الحياة عند الشاعر حزن آخر يكون وراء الانحدار نحو حياة غير كريمة، حين لا يتمكن أصحابه من الصمود في معركة الحياة، فتهزمهم الآلام. يقول بدوي الجبل[2]:

إن الألى أنكر الأحزانَ سامُرهم

لغو من الناس لا ذُموا ولا حُمـــدوا

إذا تباكوا من البلوى فما عرفوا

حزن المحبين في البلوى ولا وجدوا

الظامئون وظنوا أنهم ثملـــوا

---

[1]- ديب علي حسن، بدوي الجبل رحلة الشاعر والحياة، ص 57.
[2]- ديوان بدوي الجبل، ص 217-218.

والغائبون وظنوا أنهم شهــــــــــدوا

ولأهمية الحزن المضيء للحياة، فإن الشاعر بدوي الجبل كثيرا ما يدلل آلامه ويهدهدها، كما يدلل المحب حبيبه ويهدهده ، لأنه بذلك يحقق في نفسه الصبر الجميل. وفي ذلك يقول[1]:

إني أدلــل آلامـــي وأمسحـــها

مسح الشفيــق وأجلوها وأنتقد

حتى تطل على الدنيا بزينتـــها

حسنـــاء تبدو عليها نعمة وَدَدُ

وموقف بدوي الجبل هذا من الأحزان، نابع من رؤيته الوجودية، التي ترى أن هموم الحياة ابتلاء ينبغي أن يقابل بالصبر والثبات، فتتحول بعد ذلك إلى شعلة تنير الطريق. يقول[2]:

وقد ترد الهمــوم على كريــم

فترجع من صُــباحتــه صِباحـــا

ويشير بدوي الجبل إلى أن رؤيته هذه للآلام جعلته لا يضيق بها فحسب، بل يفرح لها كما يفرح الحبيب حين يلقى حبيبه. وفي ذلك يقول[3]:

أنا والهـــم كلما أقبل الهم

مَشُوقُ يلقى أخاه المَشُوقـــا

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 216.
[2]- المصدر نفسه. ص 117.
[3]- المصدر نفسه. ص 122.

إن هذه الرؤية الإيجابية للحزن، هي التي أسعفت الشاعر بدوي الجبل في معاركه في الحياة، وخاصة عندما تعرض للظلم والغدر من بعض النخب الحاكمة في وطنه، بسبب مواقفه المبدئية الرافضة للدكتاتورية والاستبداد؛ فانتهى به الأمر بعد هذا الغدر وذلك الظلم إلى أن يكون أقوى نفسا وأشمخ همة.

فبعد استقلال سورية بسنوات قليلة، أقبل عليها ليل الانقلابات العسكرية، فلحق بالشاعر من الأذى ما لحقه، لأنه رفض مباركة أنظمة الانقلابيين .. ولكنه لم يسقط صريع ما أصابه؛ لأن من طبعه أنه يعرف كيف يتناغم مع الهموم وكيف يكرم الأحزان. وفي ذلك يقول[1]:

والهم يعرف كيف اختـــاره كبدي

وكيف تُكـــرِم جمرَ اللوعة الكبـــدُ

ثم يطل من عل على من آذاه، لا لكي يقابلهم حقدا بحقد، أو أذى بأذى، بل ليسكب عليهم الوسيم من غفرانه المعطر، ويذرف دموع الأسى على حالهم؛ لأنه يدرك أن من زرع الشر لن يجني في النهاية إلا الشماتة والشر.. يقول[2]:

يا من ألـــح على قلبـــي يُقطعـــه

ألـــح منه عليك الخمر والشهـــــد

عندي الوسيـــم من الغفران أسكبه

عطرا على كل من آذوا ومن حقدوا

أكبرت عن أدمعي من كان مضطهَدا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 286.
[2]- المصدر نفسه. ص 286.

ورحت أبكي لمـــن يطغى ويضطهِد

الحاصـــدون من الدنيا شماتتهــــــا

لولا الذي زرعوا بالأمس ما حصدوا

وينبه الشاعر، وهو يطل على ظالميه بطريقته هذه، إلى أنه ليس من طينة أولئك الذين يسقطون صرعى الذل والاستجداء أمام الظالمين، لأنه لو فعل ذلك لرضوا عنه ولأسبغوا عليه من النعم ما يجعله يعيش مترفا. ولكنه اختار أن يصبر على الظمأ ويتعفف ويتسامى لأنه صاحب مبادئ. وأن مبادئه تلزمه بالتسامي والتعفف فكان حاله بذلك، كحال الشمس في تعاليها وتساميها. وفي ذلك يقول[1]:

ظمئتُ والشمس من كبْر ومن أنف

ورحتُ والشمس لا نعنو ولا نرد

قِرى الخطوب إذا ضجت زعازعها

صبر الكريم على البأساء والجلد

وقد بلغ تناغم الشاعر مع الأحزان حدا جعله يقسم ألا يحني رأسه للأوضاع الظالمة، وألا يفارقه عز، وألا يصرفه عن عزمه هذا صارف، فيقول[2]:

لقد حلفنا على الجُلَّى وزحمتها

أن لا يفارقنا عز ولا صَيَــدُ

وقد امتد أذى ظالميه إلى أسرته بغرض إلحاق الهزيمة النفسية به، بعد أن غادر سورية سنة 1956؛ فأقدم هؤلاء على اعتقال ابنه (منير) وتعذيبه عذابا قاسيا لحمله على

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 287.
[2]- المصدر نفسه. ص 287.

الشهادة ضد أبيه[1] .. وكانت مفاجأة الشاعر التي أدمت فؤاده ــ حين مسه وأسرته الأذى وهو بريء ــ ألا يهب صديقه ورفيق نضاله رئيس الجمهورية آنذاك (شكري القوتلي) لتبرئة ساحته[2] .. ولكن الشاعر سرعان ما استعاد تماسكه النفسي، فجاء رده نابعا من ذلك اللون من الألم الباعث على الأنفة والإباء، فقال[3]:

ما راعنا الدهر بالبلوى وغمرتها

لكننا بالإباء المر رعنـــاه

إن نحمل الحزن لا شكوى ولا ملل

غدْرُ الأحبة حزنٌ ما احتملناه

وما راعنا على عصف الخطوب بنا

هوى حبيب رعيناه ونرعـــاه

قد هان حتى سمت عنه ضغينتُـــنا

فما حقدنا عليه بل رحمنـــاه

والحق أن أي عظيم في هذه الحياة، قد لا تتمكن الخطوب من إيلامه، ولكن ما يؤلمه عندما يفاجئه تبدل بعض خلانه الذين لا يتورعون عن استباحة المروءة، رغم أنهم كانوا قبل ذلك أصحاب مروءة .. وهو المعنى الذي أشار إليه الشاعر بألم ، حين قال[4]:

إذا زحمتنـــي الجُلّـــى بـــروع

جمعتُ لها الإبـــاء فلا براحـــا

---

[1]- انظر أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، ص 97.
[2]- انظر المرجع نفسه، ص 97-.98. وسيف الدين القنطار، بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره، ص 84.
[3]- ديوان بدوي الجبل. ص 392-393.
[4]- المصدر نفسه. ص 118 - 119

وأوْجَــعُ من مصائبها خليــل

أغـــار على المروءة واستباحـــا

غير أن هذا الألم وذاك الظلم، لم يحطما صمود الشاعر وكبرياءه. ولهذا السبب استقر في يقينه أن الحياة تحت ظلال الغربة الكئيبة بعيدا عن الوطن وعن الأحبة، مع الثبات على المبادئ أحفظ لكرامته الإنسانية، من العيش في حضن الوطن وبين الأحباب مع ذل التفريط في المبادئ، وفي ذلك يقول[1]:

ولي وطن أكبرتُه عن ملامة

وأُغليه أن يُدعى على الذنب مذنبا

تنكَّر لي عند المشيب ولا قلى

فمن بعض نُعماه الكهولة والصبا

يمزق قلبي البعدُ عمن أحبهم

ولكن رأيت الذل أخشن مركبـــا

ولما كان التشبث بالمبادئ ــ التي من وحيها كانت حركة الشاعر في الحياة ــ هو ما يحفظ له إنسانيته ويهوّن عليه آلام البعد عن الوطن، فقد كان يرى أن حاله وهو بعيد عن الوطن، كحال المهند حين يغادر غمده لإحقاق الحق، وردع الباطل، وإلحاق الهزيمة بالظالمين، فيقول[2]:

غوطة الشام منك صد وحرمـــا

ن ومنا العطاء والتنويـــــــــــل

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 164.

[2]- المصدر نفسه. ص 244.

غربة في العلا وينأى عن الغِمْــ

د فيبلى المهند المسلـــــــــــول

والشاعر حين يشبه غربته بهذا المعنى الجميل، فذلك بغرض الرد على من قد يتوهم بأن وجوده في الغربة هو لون من ألوان الهروب المعبر عن جبن صاحبه ..!

وقد شهد بعض رموز الانقلاب على الشرعية في سورية بأن تبتل الشاعر بدوي الجبل في محراب القيم، وتشبثه بجملة من المبادئ والمفاهيم والقناعات المعاكسة لمنطق الانقلابات العسكرية ــ الذي فرض نفسه على سورية بعد الاستقلال ــ وإصراره على رفض هذا المنطق، كان من أهم مصادر الألم في حياته وتجربته الشعرية.

وفي ذلك يقول الأستاذ (سامي الجندي) وهو يتحدث عن بدوي الجبل في تلك المرحلة بالتحديد:" ما أن نتأمل قدره ورسالته، حتى نوقن أنه جاء حين ما ينبغي له أن يجيء، وأنه في منفى وأننا منفاه"[1].

إن هذه الإشارة من (سامي الجندي) ــ الذي كان واحدا ممن آذى الشاعر بدوي الجبل[2]ــ تمثل شهادة مهمة على أن الآلام التي أصابت الشاعر، إنما كان سببها تمسكه بمنظومة القيم المعارضة لسياسة الاستبداد والانقلاب. وهي سياسة قامت على مبدأ فرض الرأي بالقوة الغاشمة، ورفض الرأي الآخر ولو كان أفضل وأنفع وأرشد.

إن التناقض بين قناعات الشاعر بدوي الجبل وبين طبيعة الأنظمة السياسية المتعاقبة على الإمساك بمقاليد الأمور في وطنه في مرحلة الانقلابات، وكذا الظلم الذي تعرض له من قادة هذه الانقلابات لأنه رفض مباركة ما صنعوا، بالإضافة إلى غدر بعض "أصدقائه السابقين في النضال" به ــ ممن ساروا في ركب الانقلابيين ــ كل ذلك جعله وهو في

[1]- وزارة الثقافة السورية، بدوي الجبل مختارات. دمشق، 2004، ص 15.
[2]- انظر المرجع نفسه، ص 15- 16

غربته، يحن بألم إلى أحبته الذين تخطفهم الموت، والذين كانوا قد سخروا حياتهم فداء للوطن، ولم يغيروا مبادئهم ولم يبدلوا قناعاتهم حتى رحلوا عن الدنيا. وفي ذلك يقول الشاعر:

"إن رفاقي القدماء يتهاوون واحدا بعد الآخر، حتى صار لي تحت التراب أكثر مما بقي فوقه"[1].

ومن هنا نفهم لماذا كانت علاقة الشاعر برفاقه الراحلين ــ مثلما تعكسها تجربته الشعرية ــ أقوى وأعمق من علاقته بالأحياء..؟ لأن الذي جمع بينه وبينهم هو المبادئ التي تعاهدوا على الحياة عليها حتى الموت. وأما بعض الأحياء فلم يصونوا العهد، وصار منطق المصالح الشخصية هو الذي يحركهم ويملي عليهم في أي فلك يدورون. وفي ذلك يقول الشاعر[2]:

وعرّتنـــيَ الأيام ممـــن أحبهم

كأيكٍ تحامـــاه الربيع سليب

ورب بعيد عنك أحلى من المُنى

ورب قريب الدار غير قريب

ومن ثم فإن الشاعر حين يقف على قبور هؤلاء ويتذكر قيم الحق والعدل وغيرها من المبادئ السامية التي ماتوا من أجلها ليحيا وطنهم عزيزا، يفقد تجلده الذي عُرف به؛ لأن الوطن الذي تحرر من نير المستعمرين قد أمسى غنيمة في يد المستبدين، فيقول[3]:

لا يُبعد الله أحبابا فُجعت بهم

---

[1]-هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 109.
[2]- ديوان بدوي الجبل. ص66
[3]- المصدر نفسه. ص 218 - 219

وما عُلالة قلبي بعدما بَعُــدوا

مصارع بعطور الحق زاكية

كأنما سَكبوا فيها الذي اعتقــدوا

بموحش من رمال البيد منبسط

يظل في شاطئيه الصبرُ والجلَــدُ

مسحتُ دمعيَ من ذكراهمُ بيد

وأمسكتْ كبــدي ألاّ تذوب يــدُ

وأصبح الشاعر يفر إلى ذلك العالم الذي ضم رفاقه في النضال بعد أن رحلوا عن دنيا الناس هذه؛ فيعيش على ذكراهم ويستمد بعض عوامل الصمود في وجه الأوضاع الغريبة التي فُرضت على وطنه بالقوة. يقول الشاعر[1]:

ضمّ الثرى من أحبائي ليوث شرى

وغاب تحت الثرى منهم شموس هدى

الراقدون وجفنــي من طيوفهــمُ

في سامر ضــج في جفني فما رقــدا

قبور أهلي وإخوانــــي وغافيةٌ

من الطيــوف وأســرار ورجع صدى

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 177 - 178

وأما من بقي حيا من أولئك الأصحاب، فما عاد الشاعر يأبه له أو يرفع صوته بلومه؛ لأن لوم من تجرأ على التفريط المبادئ من أجل مصالح ضيقة لم يعد مجديا. وفي ذلك يقول[1]:

أنا ما عتبت على الصحاب فليس في الدنيا صحاب

ثم يشير إلى ما جرى له شخصيا على يد بعض أبناء الوطن[2]:

أنـــا كالمسافـــر لاح لي أيـــك وأغرتنـــي قبـــاب

ووثقت أن النهـــر ملك يـــدي ففاجأنـــي الســـراب

حيث يلمّح إلى ما كان قد استبعد حدوثه ــ ولكنه حدث ــ وهو في غمرة الفرح بتحرير الوطن، من أن يناله ضيم في وطنه المحرر، عندما أنشد يومها قصيدته "جلونا الفاتحين"[3]. والتي جاء فيها[4]:

أتُـــنكرني الشآم وفي فؤادي

تلقيـــت الصوارم والرماحا؟

وغنيت الشآم دما وثـــأرا

فلا شكوى عرفت ولا نواحا

وقد دفع ذلك الظلم الذي حل بالشاعر إلى إحساسه بالغربة بين الأحياء، والجزم بأن صنفين من الكائنات في وطنه ــ لا أكثر ــ يبادلانه الثبات على المبادئ. وهما: الراحلون عن هذه الحياة، بعد أن ضحوا بحياتهم في سبيل تلك المبادئ، ليحيا الوطن عزيزا كريما.

1- ديوان بدوي الجبل. ص 75
2- المصدر نفسه. ص 75
3- القصيدة في المصدر نفسه. من ص 114 إلى ص 119
4- المصدر نفسه. ص 119

والطبيعة التي لم ترض أن تتمرد على براءتها، وتتدثَّــر بطبع مغاير، كما فعل بعض الأحياء. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

وما وفَى ليَ ممن كنتُ أوثرهم

إلا القبور وإلا الأيك والنهــر

وهذا ما جعله يحن إلى معانقة الموت الذي تخطف رفاقه، حتى يكتمل الشمل بانضمامه إليهم، فيقول[2]:

أحبتي الصيد شل الموت سرحهم

وقد حننتُ إلى الورد الذي وردوا

ويبادل أولئك الراحلون الشاعر حنينا بحنين وشوقا بشوق ودموعا بدموع، حين يقول عنهم[3]:

وقبور إخواني وما أبقى من السيف الضراب

أشتــاق أحضنها وألثمــها وللدمــع انسكاب

ولهـــا إلينا لهفـــة ولطـــول غربتنـــا انتحاب

والشاعر حين يحن إلى أحبته الراحلين وإلى الموت الذي تخطفهم، لا ينبغي أن يُفهم منه أنه هارب من الواقع القاسي، وأنه بذلك يعترف ــ من حيث يشعر أو لا يشعر ــ بأن قسوة هذا الواقع قد سحقت قدرته على التشبث بمنظومة القيم والمبادئ لديه. وإنما

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 271
[2]- المصدر نفسه. ص 289
[3]- المصدر نفسه. ص 72

الصواب أن يقال بأن الشاعر قد صار بعد أحبته الراحلين وحيدا، يجابه أذى المستبدين بلا ظهر ولا سند، وقد كان أولئك الراحلون له الظهر والسند. وفي ذلك يقول[1]:

لوعة الحر حين أفرده الدهـْ

رُ فمن يتقيه حين يصول؟

ومن هنا يتضح سبب اندفاع الشاعر إلى الشكوى إلى أولئك الراحلين ــ وخاصة قادة الحركة الوطنية منهم ــ ما أصابه بعدهم من ظلم وغدر، فيقول[2]:

لو كان يعلم سعد الله[3] ما ابتدعتْ

بيَ الخطوب تنزَّى الفارس النَّجِدُ

ولو درى هاشم[4] حزني لدلّلنـــي

وردَّ عني العوادي الضيغمُ الحَرِدُ

وحنين الشاعر إلى الموت الذي تخطف أحبته، نابع من يقينه الذي استمده من الإسلام، بأن الموت ليس فناء مطلقا، بل انتقالا من حياة إلى حياة أخرى أجمل. وإلى هذا المعنى يشير بقوله[5]:

شبح الموت ما يخيف البرايا

من حتوف تعانق الأرواحا

وجد الناس في كؤوسك سما

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 243

[2]- المصدر نفسه. ص 289.

[3]- سعد الله الجابري من زعماء الحركة الوطنية في سورية. انظر هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 109

[4]- هاشم الأتاسي من زعماء الحركة الوطنية في سورية. انظر المرجع نفسه. ص 109

[5]- ديوان بدوي الجبل، ص 462.

غير أني وجدت فيهن راحا

ويلتقي بدوي الجبل في رؤيته هذه للموت مع أهل التصوف ــ وهو واحد منهم ــ حيث جعلوا الموت محببا إلى نفوسهم[1].

ثانيا/ الحب

إن الحب في رؤية بدوي الجبل الوجودية وفي تجربته الشعرية، من القيم الكبرى التي لا غنى للمجتمعات الحية عنها.

حيث يرى الشاعر، أن الأمم العظيمة حقا، إنما تبنى على الحب الذي يجمع بين أبنائها .. وأن قادتها الحقيقيين هم الذين تحكم علاقتهم بشعوبهم قيم الرحمة والحنان والتواضع، فتنعم ــ تلك الأمم ــ بالسعادة. وإلا فإن الجحيم هو الذي سيهيمن على حياة الناس، حين تكون قيم البغض والحقد والظلم والقهر هي المتفشية في مجتمعاتهم .. يقول الشاعر[2]:

وما بُنيتْ إلا على الحب أمة

ولا عَــزَّ إلا بالحنان زعيــم

ولا فوق نعماء المحبة نعمة

ولا فوق أحقاد النفوس جحيم

فهذا الحب الذي يعنيه الشاعر، ليس مجرد عاطفة عابرة، تسوقه مناسبة عارضة. أو أنه إحساس بين أبناء طبقة بعينها من طبقات المجتمع فحسب، بل هو سلوك يجب أن

[1]- انظر كمال الدين عبد الرزاق القاشاني، اصطلاحات الصوفية، تحقيق محمد كمال جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1981، من ص 91 إلى ص 93.

[2]- ديوان بدوي الجبل، ص 182.

يهيمن على حياة كل الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في كل المناسبات وفي كل الأوقات .. وأن يشمل كل طبقات المجتمع دون استثناء. وفي ذلك يقول البدوي[1]:

هو الحب حتى يكرم العُدْمَ موسرٌ

ويأسى لأحزان الغني عديـــمُ

وحتى يريح الذنب من حِمْل وِزْرِه

حنانٌ بغفران الذنوب زعيمُ

فالحب في تجربة الشاعر قيمة إنسانية شاملة، ينبغي أن تسود بين بني الإنسان. وحين تسود فإن كثيرا من المشاكل بين بني البشر تحل دون اللجوء إلى الحروب. وفي ذلك يقول[2]:

وآمنت أن الحب خير ونعمة

ولا خير عندي في وغى وحروب

والحب بهذا المعنى نور يبدد ظلمات الأهواء والأحقاد .. يقول الشاعر[3]:

وآمنت أن الحب والنور واحد

ويكفر باللألاء كل مريـــــب

إن هذه الرؤية الشاملة للحب، في تجربة بدوي الجبل الشعرية، والإيمان بأهميته في الحياة، لهما علاقة بمنظومة القيم التي شكلت وجدان الشاعر. وقد أشار البدوي إلى ذلك

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 182.
[2]- المصدر نفسه. ص 67.
[3]- المصدر نفسه. ص 67.

بشكل صريح حين قال :" الحب هو الصورة السامية للعبادة"[1]. بمعنى أن للعبادة التي يتوجه بها الإنسان إلى خالقه نتائج عملية؛ خلاصتها أن تتمكن نوازع الخير من نفسه، وتنحسر فيها نوازع الشر، فيتعامل مع الآخرين بالحب وإرادة الخير لهم، لا بالبغض وإضمار الشر لهم.

وحين تتحقق سجية الحب هذه في الإنسان، فإنها تغدو كما قال بدوي الجبل "نعمة من نعم الله"[2].

ويشرح الشاعر أهمية الحب باعتباره نعمة إلهية فيقول: "عقيدتي أن الحياة لا تستقيم إلا به في شموليته، أي على الإنسان أن يحب سواه، ويحنو عليه حنو الأخ على أخيه"[3].

ويجب أن أشير ــ في هذا السياق ــ إلى أنه لا يمكن إسقاط عامل الآلام التي أصابت الشاعر، وهو يناضل من أجل سيادة القيم التي آمن بها، فقد أسهم هذا العامل بصورة جلية في انتصار الشاعر على نوازع الشر في نفسه، فتسامى على الأحقاد والضغائن وامتد حبه إلى كل المعذبين والمقهورين في الحياة، وانتظم حنانه حتى الحيوان الأعجم. وفي ذلك يقول[4]:

تأبى الشماتة في الضعيف شمائلي

وتعف عن شلــو الجريح صفاحــي

وأنا الذي وســع الهمومَ حنانُــه

وبكــى لكــل معــذَّب ملتــــاح

أشقى لمن حمل الشقاء كأنما

[1]- هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 116.
[2]- هاني الخير، يحدثونك عن أنفسهم، ص 25.
[3]- المرجع نفسه، ص 25.
[4]- ديوان بدوي الجبل، ص 310-311.

أتراح كل أخي هوًى أتراحـــــي

غسل الأسى قلبي وحسبك بالأسى

من غاسل حقد القلوب وماحــــــي

ووددت حين هوى جناح حمامة

لو حلَّقتْ من خافقي بجناحــــــي

وعندما تكون سجية الحب نتيجة لحسن الصلة بين الإنسان وخالقه، ثم تأتي خطوب الحياة فتصهرها وتظهرها متلألئة متألقة، فإنها تكون بذلك من القيم الرائعة التي لا تنبجس إلا من النفوس الكبيرة ذات الذوق الإنساني الرفيع؛ بعد أن استطاع أصحابها بقوة الإرادة فيهم الانتصار على آلامهم والتغلب على نوازع الشر في نفوسهم .. وأما ما يقابل هذه السجية فهو الحقد. والحقد ـــ في تجربة الشاعر ـــ طبع من أذلته أهواؤه. وفي ذلك يقول[1]:

خدع الحقدُ أهله فهْــو ذلٌّ

نكَّروا وجهه وسموه حقدا

والقوي النبيل يحنو على الدُّنْــ

يا ويسمو بها وفـــاء ووُدّا

وبهذين المعنيين الجميلين الطريفين، وهما أن الحقد ذل وأن الحب قوة، نفهم لماذا انتظمت محبة الشاعر كل الكائنات إلا الطغاة، لأن هؤلاء لم يكتفوا بالاستسلام لنوازع

[1]- ديوان بدوي الجبل، ص 228.

الشر في نفوسهم فتملكتهم الأحقاد وأذلتهم، بل أرادوا أن يلونوا بها الحياة والأحياء، وسعوا لتحقيق ذلك بكل ما أوتوا من قوة باطشة. وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

وكل ذنب سوى الطغيان نُنزله

على جوانحنا حبا وغفرانا

وهــمٌّ كل عفاة الأرض نحمله

كأننا أهله همًّا وحرمانـــا

ضمت محبتنا الأشتات واتسعت

تحنو على الكون أجناسا وأديانا

وبهذا المعنى الشامل للحب، استطاع الشاعر بدوي الجبل أن يحافظ على تماسكه النفسي في أقسى الأوقات، فيقول[2]:

ويا خطوب الدهر لا تهوّلِـــــــي

روضك الحب فلن تخيفـــــي

وفي ظل هذه المعاني الشاملة للحب، عالج الشاعر بدوي الجبل جملة من القضايا التي شكلت روافد مهمة أغنت تجربته الشعرية، وهي:

أ– حب الوطن:

وأعني بهذا اللون من الحب، ذلك الذي أشار إليه الشاعر بدوي الجبل، حين قال:

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 131-132.

[2]- المصدر نفسه. ص 361.

"حبك لوطنك يصفو ويسمو حتى يصبح حبا وتصوفا"[1]. أو بمعنى آخر إنه الوله .. وقد تملك الشاعر هذا اللون من حب الوطن بعد أن فُرضت عليه الغربة بعيدا عن الوطن لسنوات، بسبب مواقفه المبدئية الرافضة للاستبداد.

وفي هجير الغربة اللافح، يتفجر نبع حب الشاعر لوطنه فيبلغ مداه البعيد، وهو يقول:[2]

ويا رب تدري الشام أني أحبها

وأفنى وحبي للشآم يــدوم

فهذا اللون من الحب للوطن لا يفنى بموت الشاعر، بل ولا تستطيع يد المنون أن تمتد إليه حتى بعد أن يرحل صاحبه عن هذه الدنيا. وآية هذا اللون الرائع من الحب أن الوطن يدري حقيقته..!

وقد بلغ حب الشاعر لوطنه وهو في الغربة، حدا جعله يهفو إلى نزْرٍ يسير من ترابه كي يشمه ويضمه إلى صدره، لعله يخفف من نار الحنين الملتهبة بين جوانحه، إلى الوطن، فيقول :[3]

يا شام يا لِدَة الخلود وضم مجدكما انتساب

مَن لي بنزر من ثراك وقد ألح بي اغتراب

وأضمه فترى الجواهر كيف يكتنز التراب

هذا الأديم شمــائل غر وأحلام عـــذاب

---

[1]- هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة، ص 116.

[2]- ديوان بدوي الجبل، ص 190.

[3]- المصدر نفسه، ص 72.

هذا الأديم أبي وأمي والبداية والمـــــآب

وهو بهذا الحب الذي يجعل وطنه قرين الخلود، يذكرنا بقول الشاعر أحمد شوقي[1]:

وطني لو شغلت بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي

ثم يفيض قلب الشاعر حنانا على كل مدينة من مدن وطنه، مع الدعاء بطلب السقيا لثرى وطنه، على طريقة الشعراء العرب القدامى الذين نظروا إلى المطر باعتباره صنو الحياة، فدعوا بسبب ذلك بالسقيا لقبور موتاهم .. فيقول[2]:

سقى الله عند اللاذقية شاطـــــئا

مراحا لأحلامي ومغنًى وملعبا

وجاد ثرى الشهباء عطرا كأنه

على القبر[3] من قلبي أريق وذُوِّبا

وحيّا فلم يخطئ حماةَ غمامُه

وزف لحِمْصَ العيش ريان طيبا

ونضَّر في حوْران سهلا وشاهقا

وباكر بالنعمى غنيا ومُتْرِبــــــــا

وجلجل في أرض الجزيرة صيِّب

[1]- الشوقيات ج 2 ، دار الكتاب العربي، بيروت (لبنان)، ط 2 (1992). ص 46

[2]- ديوان بدوي الجبل، ص 165-166.

[3]- قبر المرحوم سعد الله الجابري، انظر ديوان بدوي الجبل ، هامش ص165.

يزاحم في السقيا وفي الحسن صيبا

وتوظيف بدوي الجبل للمطر بهذه الصورة التي يشمل خيره النجوع والمدن والناس، يذكِّر بقصيدة "أنشودة المطر" لبدر شاكر السياب التي لا ينعم بمطره كل الناس ..! يقول السياب[1]:

ومنذ أن كنا صغارا، كانت السماء

تغيم في الشتاء

ويهطل المطر،

وكل عام – حين يعشب الثرى– نجوع

وينزه الشاعر بدوي الجبل حبه لوطنه الذي سما وصفا ــ حتى غدا حبا صوفيا ــ عن المن، وعن كل غرض غير شريف، فيقول:[2]

دياري وأهلي بارك الله فيهما

ورد الرياح الهوج أحنَّ من الصَّبا

وأقسم أني ما سألت بحبهـــا

جزاء ولا أغليت جاهـــا ومنصبا

والحق أن المحب الولهان ينزه حبه عن كل ما يكدره، وإلى هذا المعنى يشير الشاعر بدوي الجبل وهو يقول[3]:

تنزه الحب عن منٍّ وعن نكد

[1]- ديوان بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت، لبنان (1971). ص 479
[2]- ديوان بدوي الجبل، ص 169.
[3]- المصدر نفسه. ص 296

وقد ينغص حسن النعمة النكد

ولأن بدوي الجبل ما تغرب عن وطنه إلا لأنه أراد لهذا الوطن أن يكون معافى من كل أسباب التخلف، مصونا بكل القيم التي تضمن له بلوغ المجد؛ كان من الطبيعي أن يتعلق قلبه بوطنه أكثر وهو في الغربة، فيقول[1]:

تطوِّحني الأسفار شرقا ومغربا

ولكن قلبي بالشآم مقيـــــم

و بعد سنوات من الغربة، عاد الشاعر إلى وطنه وراح يلثم أديمه، وفاضت نار ولهه على حصباء هذا الأديم. ولكن ذلك لم يطفئ حبه الصوفي لوطنه، لأن في قلبه من جمر هذا الحب ما لا يزال متوقدا. يقول الشاعر[2]:

حلفت بالشام هذا القلب ما همدا

عندي بقايا من الجمر الذي اتقــدا

لثمتُ فيها الأديم السمح فالتهبتْ

مراشفُ الحور من حصبائها حسدا

عاد الشاعر فضمه وطنه إلى صدره مثلما تضم الأم ولدها بعد طول فراق .. ويبقى تعلق الشاعر بالمبادئ والقيم التي من أجلها تغرب كعهده معها أقوى وأسمى، وفي ذلك يقول[3]:

ضمتنيَ الشام بعد النأي حانية

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 180

[2]- المصدر نفسه. ص 170

[3]- المصدر نفسه. ص 178.

كالأم تحضن بعد الفرقة الولدا

ردَّتْ إليَّ شبابي في متارفه

وهيأتْ للصيال الفارسَ النجدا

وقد عمقت العودة إلى الوطن قيمة التسامح في تجربة الشاعر، حيث تسامى صاحبها على الجراح، وطهر قلبه من ذكرى كل الخصوم الحاقدين، فيقول[1]:

قلبي الذي نضَّـــر الدنيا بنعمته

رأى من الحقد أقساه وما حقدا

إني لأرحم خصمي حين يشتمني

وكنت أُكبره لو عفَّ منتقـــــدا

قرَّتْ عيونُ العدى والأصفياء معا

فلستُ أملك إلا العطر والشَّهَــدا

إلا أن هذه السماحة وذلك التسامي على الجراح، لم يمنعا الشاعر من التساؤل باستغراب ودهشة، عن "طينة" هؤلاء الذين روعوه عن وطنه وأهله، وأضمروا الرغبة في الفتـــك به لو استطاعوا، بسبب آرائــــه المنحازة إلى قيم الحـــق والعـــدل والكرامـــة. وجعلوه يكتوي ــ ولسنوات ــ بنار الشوق إلى الوطن والولد ..! وفي ذلك يقول[2]:

من روع البلبل الهاني وأجفله

عن أيكه وسقاه الحتف لو وردا؟

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 172.
[2]- المصدر نفسه. ص 171.

جلانيَ الظلم أشلاء ممزقة

واحتزَّ أكرمهن القلـــــب والولدا

ب ــ حب البراءة :

إن البراءة عند الشاعر بدوي الجبل تعني الطفولة والطبيعة ..

فأما الطفولة، فهي في تجربته الشعرية مرادفة للحياة المنزهة عن كل أشكال الفساد. ولهذا نجد الشاعر مغرما بعالم الطفولة إلى حد بعيد .. وهذا الغرام يتوافق مع معانقة الشاعر لمنظومة القيم التي شكلت رؤيته الوجودية، وجعلت حركته في الحياة تتلون بتلك القيم.

ففي قصيدة الشاعر "البلبل الغريب"[1]، قطعة شعرية رائعة، لم أعثر في كل ما قرأت عن الطفولة أجمل منها.

فقد كان الشاعر في غربته يحيا ــ في كل لحظات حياته ــ مع ما تختزنه ذاكرته من شؤون الوطن وذكريات الأحبة. ومن هؤلاء الأحبة الذين يملأون عليه أقطار نفسه، حفيد له تركه وراءه، كان لا يزال في شهوره الأولى. فجاءت هذه القطعة الشعرية بدافع الإحساس الفطري بالشوق الجارف إلى هذا الحفيد الوليد، الذي خيل إليه ــ على طريقة الشعراء الرومانسيين ــ أن عناصر الطبيعة وفي مقدمتها النجوم المتلألئة، تتودد إلى الحفيد الجميل..! وقد وفي ذلك يقول الشاعر[2]:

وسيما من الأطفال لولاه لم أخف

على الشيب أن أنأى وأن أتغربا

---

[1]- انظر القصيدة في ديوان بدوي الجبل، من ص 158 إلى ص 169.
[2]- المصدر نفسه. ص 160-161.

تود النجوم الزهر لو أنها دمى

ليختار منها المترفات ويلعــبا

وعندي كنوز من حنان ورحمة

نعيميَ أن يُغرى بهن وينهــبا

ثم راح يرصد حركات هذا الحفيد وسكناته، وانفعالاته في كل حالات يقظته ومنامه؛ في غضبه ورضاه، صحته ومرضه. وهو يدرج في مراقي العمر، في مناغاته وحبوه وخطوه، وانعكاس كل تلك الحالات على البيت العائلي وعلى الشاعر على وجه الخصوص، فيقول[1]:

يجور وبعض الجور حلو محبب

ولم أر قبل الطفل ظلما محبــبا

ويغضب أحيانا ويرضى وحسبنا

من الصفو أن يرضى علينا ويغضبا

وإن نالــه سُقْــم تمنيت أنــني

فداء لــه كنت السقيــم المعذبــا

ويوجز فيما يشتهي وكأنــــه

بإيجــازه دلاً أعــاد وأسهبــــا

يزف لنا الأعياد عيدا إذا خطا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 160 - 161

وعيدا إذا ناغى وعيدا إذا حبـــا

كزغب القطا لو أنه راح صاديا

سكبتُ له عيني وقلبي ليشربـــا

وأوثر أن يروى ويشبع ناعمـــا

وأظمأ في النعمى عليه وأسغبـــا

وألثم في داج من الخطب ثغره

فأقطف منه كوكبا ثم كوكبـــــا

ينام على أشواق قلبي بمهـــده

حريرا من الوشي اليمانيِّ مُذْهَبا

وأسدل أجفاني غطاء يظلـــه

ويا ليتها كانت أحن وأحدبـــا

ولا ريب أن أجواء الغربة هي التي أثارت لدى الشاعر كل هذه التفاصيل الدقيقة والبريئة في حياة الطفل، وأوحت بها إليه، فجسدها في هذه الأبيات الجميلة.

ومن خلال هذا الحب الجارف من الشاعر لحفيده، يمتد حبه إلى الطفولة حيثما وجدت، فيتضرع إلى الله سبحانه أن يصون براءة الأطفال وينعم عليهم بالهناء الدائم، وأن يحببهم إلى القلوب كلها، فلا يريهم وجها مقطبا، وأن يفيض ــ من أجل الطفولة وحدها ــ بركات السلم في كل مكان. وفي ذلك يقول[1]:

---

[1]- ديوان بدوي الجبل، ص 161-162.

ويا رب من أجل الطفولة وحْدها

أفض بركات السلم شرقا ومغربـــا

وصن ضحكة الأطفال يا رب إنها

إذا غردت في موحش الرمل أعشبا

ويا رب حبب كل طفل فلا يرى

وإن لج في الإعنات وجها مقطــبا

وهيئ له في كل قلب صبابة

وفي كل لقيا مرحبا ثم مرحبــــــا

وقد سئل الشاعر ذات مرة، عن الطفولة، فأجاب بقوله:" حين أقول الأطفال، أقول الملائكة .. منزهون عن كل رجس، وفيهم فتنة وجمال .. وأن الزهرة والفراشة أقل جمالا من الأطفال"[1]..!

وسئل عن الحلم الذي يداعب خياله ويتطلع إليه بوجدانه، فأجاب بقوله[2]:

ويا رب من أجل الطفولة وحدها

أفض بركات السلم شرقا ومغربا

مما يدل على أن البراءة عند الشاعر لا وجود لها في قاموسه إلا عند الأطفال ومن دار في فلك براءتهم ..!

[1]- انظر ملحق جريدة الثورة الثقافي، دمشق، ع1 .
[2]- انظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

والشاعر بدوي الجبل، حينما اكتشف أن البراءة في عالم الناس عزيزة، لأسباب منها الظلم الذي أصابه ـــ ممن لم يتوقع منهم أن يظلموه ـــ فإنه لم يفقدها في الطبيعة التي لم تفقد عذريتها ونقاءها..! ولذلك فإنه حين يشعر بالوحشة من الناس يفر إلى الطبيعة، فيحس في أحضانها بالراحة التي فقدها بين بني جنسه، فيقول وهو يتحدث عن نفسه[1]:

تعاف القصور وجناتهـــــا

وتأوي إلى دوحة الزيزفون

فتشرب ماء الغدير نقيـــــا

وتسكر من أَرَجِ الياسميــــن

وتسمع لحن الطيور شجيـــا

رقيقا على مائسات الغصـــون

أضف إلى ذلك أن هذه الأبيات ـــ التي تتحدث عن أن روح الشاعر تعاف حياة القصور، وتجد راحتها بين عناصر الطبيعة ـــ قد وردت في قصيدة بعنوان "الروح الثائرة"[2]، للدلالة على أن الشاعر إن كان قد فقد البراءة في البشر وفي نمط حياتهم، فإن في الطبيعة عالما رحبا من البراءة يُغنيه عن الرضا بحياة أولئك البشر.

وليس أدل على التماهي بين الشاعر وبين عناصر الطبيعة، أنه حين مات بلبله رثاه بقصيدة عنوانها "البلبل الصريع"[3]. وهي قصيدة حزينة تعكس تأثر الشاعر العميق، وكأن

[1]- ديوان بدوي الجبل، ص 473.
[2]- انظر القصيدة في ديوان بدوي الجبل، من ص 473-إلى ص 477.
[3]- انظر القصيدة في المصدر نفسه، من ص 478 إلى ص 484.

الفقيد عزيز من العقلاء تخطفه الموت .. بل نراه يشرك الطبيعة من حوله في مصابه فيسبغ حزنه على عناصرها، على عادة الشعراء الرومنسيين. وفي ذلك يقول[1]:

بلبلي مات حبيسا باكـــــيا

لوعة الشعر على ذاك الحبيس

فَقَدَ الصبحُ أناشيد الهـــوى

بعده وانفرط العقد النفـــــيس

ما لأغصان الربى من بعده

تتهادى عاريات وتمـــــيس؟

وعروس الزهر هل يضحكها

مشرق الشمس وقد مات العريس؟

وقد غمر حب الشاعر كل ما في الطبيعة من عناصر، فدفعه هذا الإحساس النبيل إلى التضرع إلى الله سبحانه بأن يشمل بحفظه كل ما في الوجود من كائنات صغيرة أو ضعيفة، فيقول[2]:

فيا رب لا أقوى من الطير عشُّه

ولا راع أسراب الظباء غريم

ولا أوحشتْ رملَ الفلاة جآذر

ووِردٌ يُندِّي حرَّها وفُغـــــوم

[1]- المصدر نفسه. ص 478.
[2]- ديوان بدوي الجبل. ص 190

وكل غمام مـــرَّ في الرمل ديمـــة

وكل كِناسٍ للظباء مَديــــــم

ويا رب في الإنسان والطير لا احتمى

بغيرك مقصوصُ الجناح ظليم

وصن كل زرع أن ينازع خصبه

هجير وريح لا ترق حَطــوم

ج- حب المرأة:

إن حب المرأة حاضر في تجربة بدوي الجبل الشعرية بقوة. وحب الشاعر لها نابع من براءة الروح وصدق القلب .. وعن هذا المعنى يقول البدوي[1]:

طفولة الروح أغلى ما أُدِل به

والحب أعنفه عندي وأوفـــاه

قلبي الذي لوَّن الدنيا بجذوته

أحلى من النور نعماه وبؤساه

غِـــرٌ وأرفع ما فيه غرارته

وأنذل الحب جل الحب، أدهاه

فهو حب عذري يأبه للروح، ويراعي أشواقها بالدرجة الأساس.

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 391.

وأما عن رؤية الشاعر للمرأة، فيقول عنها، بأنها "نعمة الله على الخيال والفن والعاطفة .. وإنني لا أستطيع أن أتصور أدبا لا يستمد عذوبته وخياله من ابتسامة المرأة وحنانها وحبها، أما وزوجة وحبيبة"[1].

ويصوغ رؤيته هذه للمرأة شعرا فيقول[2]:

ما أحوج العقل الحكيم وهمُّــه

وسع الحياة لصبوة ومــراح

ولمن تدلِّله وتسكر روحـــــه

عند الهجير بظلها النَّفَّـــاح

أنثى إذا ضاقت سريرة نفسه

طلعت بآفاق عليه فِســـاح

تسقي الهمومَ إذا وردتْ حنانُها

بمعطَّرٍ كالسلسبيل قـــراح

وتردهــن عرائسا مجلــوة

كندى الصباح وكن غير صباح

وأما عن حقيقة هذا الحب العذري الذي انحاز له الشاعر بدوي الجبل، فيراه من

1- هاشم عثمان، بدوي الجبل، آثار وقصائد مجهولة، ص 79.
2- ديوان بدوي الجبل. ص 313 - 314 .

أسرار الغيب، وبالتالي يصعب تحديد طبيعته. وفي ذلك يقول[1]:

الخافقان وفوق العقل سرهما

كلاهما للغيوب الحب والله

وأقصى ما استطاع الشاعر أن يقوله، أن هذا الحب هو سر الكون، ولكنه سر جميل؛ فهو مزيج من الغبطة والحزن الهادئ، لأن المحب لا يخلو من الإحساس بالخوف من أن يأتي يوم يفقد فيه حبه. فيقول عن هذا الحب[2]:

قد سرى في الكون حتى لم يدع

في قلوب الناس قلبـــا مغلقـــا

هو حزن هادئ في غبطة

وهْوَ لو ذقت نـــــعيمٌ في شقـــا

ولكنه حب يدفع بالحياة إلى كل خير. على عكس ذلك اللون الآخر من الحب وهو الحب الماجن الذي ينحاز إلى رغبات الجسد بالدرجة الأولى، ولا يقيم وزنا للقيم الجميلة ــ التي ينبغي أن تراعى كالصدق والعفاف والوفاء ــ فتكون نتيجته مدمرة للفرد والأسرة والمجتمع والحياة. وإلى ذلك يشير الشاعر بقوله[3]:

وبعض الهوى كالنور إن فاض يتألق

وبعض الهوى كالغيث إن فاض خربا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 386.
[2]- المصدر نفسه. ص 440.
[3]- المصدر نفسه. ص 159.

وقد كان لتجربة بدوي الجبل الشخصية أهميتها في انحياز تجربته الشعرية بقوة إلى الحب العــذري القائم على المشاعر الجميلة، كالبــراءة والوفاء والإخلاص. وإلى هــذه المشاعر التي تسكن وجدانه الشاعر، يشير وهو يخاطب حبيبته بقوله[1]:

كأن همسك في رياه وشــوشة

دار النسيم بها بين الأزاهيــر

تَنْدَى البراءة فيه فهْو منسكب

من لغو طفل ومن تغريد عصفور

وفضلا عن أن هذه المعاني ممزوجة بعناصر الطبيعة الجميلة، فإن نشوة تعلق الشاعر بحبيبته لا تكتمل إلا حين يكون معها بين أحضان الطبيعة، فيشاركها الفرحة الغامرة وتشاركه. وفي ذلك يقول[2]:

أنا نشوان ومن خمر الهــوى

قد ترشفــتُ رحيقا بابليــا

في ظـــلال الورد أحسو خمرتي

مشركا في كأسيَ الزهر النديا

نهلــةٌ مني ومنــه نهلـــــة

هكذا نرتشف الكأس هنيــــا

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 413.

[2]- المصدر نفسه، ص 455.

وعندما يكون الشاعر بعيدا عن حبيبته، فإن طيفها الأسمر المعطر بالطبيعة يغذيه بالأمل، في غدوه ورواحه وفي نومه ويقظته، ويمنحه التجلد على مكاره الحياة، فيقول[1]:

يرافقني سرابك أريَحِيّــا

فأُغمر بالرحيق وبالملاب

سراب أسمر القسمـــات هانٍ

نديٌّ اللمْـــح ورديٌّ الحباب

يزوِّق لي الرمال جَنًى وظلا

ويغمز بالكؤوس وبالشراب

محا حقد الهجير على الصحارى

ووحدتيَ المريرة واغترابي

وأما عن موطن هذه المرأة التي لا يفارقه خيالها أنى ارتحل، فيشير إلى أنها من عالم النور الذي يعرفه بفطرته، ويعلم أنها قد خلقت له وخلق لها .. وفي ذلك يقول[2]:

من موطن النور هذا الحسن أعرفه[3]

حلــــو الشمائل قدْسي الأسارير

ففي السماء على مطلول زُرقتها

أرى مساحب ذيْل منك مجــــرور

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 398.

[2]- المصدر نفسه. ص 415.

[3]- الشاعر هنا يشير إلى زوجته (زلفاء) - انظر ملحق جريدة الثورة الثقافي، دمشق، ع1 - والتي قال فيها: "لم أحب امرأة في حياتي حبي لزوجتي". هاني الخير يحدثونك عن أنفسهم، ص 25.

وبناء على هذه المعاني المتسمة بالكثافة، فضلا عن شفافية الأسلوب الذي حملها، يحق لي أن أقول مع الدكتور نذير العظمة بأن موضوع حب المرأة في تجـــربة بدوي الجبـــل الشعرية "لا يمكن أن تدرج في إطار الشعر التقليدي الكلاسيكي .. إنها توحد العابر العاطفي بالخالد الإنساني"[1].

[1]- نذير العظمة، الله والمرأة والوطن في شعر بدوي الجبل، وقائع الندوة العربية عن الشاعر العربي الكبير بدوي الجبل، ص 72.

الفصل الخامس/ الشكل الفني لتجربة بدوي الجبل الشعرية

- تمهيـد
- أولا/ بنية القصيدة
- ثانيا/ اللغة الشعرية
- ثالثا/ الصورة الشعرية
- رابعا/ موسيقى الشعر

تمهيد

من المسلَّم به في ميدان الأدب، أن النصوص الأدبية ترتكز في وجودها على مكوِّنين مهمين، هما:

ـ الموضوع، أو المعنى الذي يتضمنه النص.

ـ والشكل الفني الذي عالج الأديب من خلاله الموضوع.

مع العلم أن هذين المكونين متمازجان في النص الأدبي. غير أن تمازجهما لا يحول دون تحليل كل منهما على حدة.

وعليه، فإن أهمية المعاني التي تضمنتها تجربة بدوي الجبل الشعرية ـ والتي انتهيت من تحليلها في الفصول الثلاثة الأخيرة من الرسالة ـ ليست راجعة إلى ارتباطها بتجارب الشاعر في الحياة، ولا إلى تفاعل الشاعر الصادق معها فحسب. وإنما هي راجعة كذلك إلى طريقة عرض تلك المعاني. وأعني بالطريقة الشكل الفني، من بنية ولغة شعرية وصور فنية وإيقاع موسيقي.

فما خصائص الشكل الفني لتجربة بدوي الجبل الشعرية..؟

لمعرفة تلك الخصائص، جاء هذا الفصل الذي تناولتُ فيه كل قضية من القضايا الفنية الأربع المركزية ـ التي أشرت إليها آنفا ـ بالتحليل. وذلك على الشكل الآتي:

أولا/ بنية القصيدة

اتسمت القصيدة الشعرية عند بدوي الجبل ـ مثلما بينت سابقا ـ بكونها قد تجاوزت في معانيها، نطاق الحدث وتعاملت مع أثر الحدث، فصارت من ذلك النوع من القصائد الذي يشبه "مدينة تتعدد أبوابها بتعدد روادها، ويمكن أن نطلق عليها القصيدة (الكنز)،أي أنها تتفتح عن أكثر من معنى وتأخذ أكثر من تصور، ويمكن أن نبصر في مداها بعدا سياسيا، وبعدا اجتماعيا، وبعدا ذاتيا. ولا يُظن أن هذه الأبعاد أغراض متعددة في القصيدة. بل كلما قرأت القصيدة هبت عليك رياح جديدة بمعان جديدة"[1].

إن قصائد الشاعر بدوي الجبل حين نقرأها للوهلة الأولى، يخيل إلينا أنها تعالج أغراضا بعينها. ولكننا حين نعيد قراءتها بوعي أكثر، نكتشف أن ما تتضمنه أعمق من أن يكون مجرد أغراض مرتبطة بوقائع محددة لا تتجاوزها، وإنما هي معان لا غنى للإنسان والحياة عنها لأنها نبعت أساسا من الوجدان الذي تفاعل مع أثر تلك الوقائع، ثم تحكمت في نسجها العفوية بعد ذلك.

وانطلاقا من هذه العفوية، قامت بنية القصيدة في تجربة بدوي الجبل الشعرية. ويشرح الشاعر رؤيته لبنية القصيدة ـ التي تجسدت في تجربته ـ قائلا: "لا أؤمن بوحدة الشعر، فالمعاني هي التي تملي نفسها. والذي يريد وحدة الشعر، كأنه يصنعه

[1]ـ صابر عبد الدايم، التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث. ص 34

صنعة، ولا يبدعه إبداعا. والصنعة مهما تأنّقت لا تكون إلهاما، ولا ضوءا ولا عطرا"[1].

والحق أن رؤية بدوي الجبل لبنية القصيدة صائبة إلى حد بعيد؛ لأن الذي ينظم قصيدة وفي تصوره مخطط مسبق يرى ضرورة صبها فيه، فتتحقق فيها الوحدة ببعديها الموضوعي والعضوي أو لا تتحقق، إنما هو صانع. والصنعة غير الإبداع..!

وتتناغم رؤية بدوي الجبل هذه، مع بعض مذاهب النقد الأدبي الأوربي الحديث، كالرمزية التي ترى في تعدد موضوعات القصيدة، وافتقارها إلى الوحدة العضوية أو الموضوعية "دليلا على الشاعرية المطبوعة التي تدرك بفطرتها أن لغة الشعر الوجداني غير لغة العلم والفلسفة، وترى أن بسط الأفكار بطريقة منطقية يكسبها صراحة، والصراحة والمنطق من خواص العلم والفلسفة لا من خواص الشعر، فالشعر وليد الخيال والعاطفة. ومن الذي ينكر أن الأمور تجري في ميدان العاطفة والوجدان على غير النهج الذي تجري عليه في ميدان المنطق وأسلوبه؟"[2].

وقد استمد الشاعر بدوي الجبل رؤيته لبنية القصيدة أساسا من طريقته في الإبداع الشعري .. وعن هذه الطريقة يقول: "أنا لم أحاول في حياتي أن أنظم شعرا، وإنما تمتلئ نفسي على مهل، وأعرف أن نفسي تمتلئ قليلا قليلا بصور أجهلها، ومعان أجهلها. وقد يطول هذا معي أسابيع. ثم يمر شطر بيت، وقد يكون صدرا،

[1]- بدوي الجبل الأعمال النثرية. ص 93

[2] - درويش الجندي، الرمزية في الأدب العربي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ،القاهرة (د ط.د ت). ص 159

وقد يكون عجزا، فأثبته. ثم تتوالى علي الصور والمعاني، والخيالات، والنغم، والمفردات، دون ترتيب. فأثبت كل ما يأتي، وأكون في حال أقرب إلى الغيبوبة منها إلى الصحو"[1].

ويُفهم من هذا القول أن الشاعر بدوي الجبل لا يتعَّمد ـ في نسج قصائده ـ وضع مخطط مسبق يصب فيه تلك القصائد. وإنما يترك نفسه على طبيعتها، حتى إذا أتاه الشعر دون افتعال استحضاره، يأتي بناء القصيدة عنده هو الآخر قائما على العفوية. ورب سؤال يطرح هنا وهو: ألم يتأثر الشاعر بدوي الجبل بالشعراء العرب القدامى، مثلما أشرت إلى ذلك في الفصل الأول من هذه الرسالة..؟ وبالتالي، ألم يكن من بين ما تأثر به، هو ذلك البناء الذي تميزت به القصيدة العربية القديمة من حيث تعدد موضوعاتها، فاتخذها البدوي نموذجا صب فيه قصائده..؟

ويجيب بدوي الجبل، معترفا بأنه قد تأثر فعلا بالشعر العربي القديم في عصور ازدهاره، ولكن كما قال: "إن التأثير لا يعني التقليد ولا المشابهة، فالشاعر الأصيل لا يقلد ولا يشابه، الشعر كالحسن، كل شاعر له طابعه المميز ودنياه المميزة"[2].

ومن المسائل المهمة التي ينبغي أن أثبتها في هذا السياق، أن الشاعر بدوي الجبل كان ينحاز ـ في رؤيته للشعر ـ إلى القيم الفنية وحدها؛ فيراها هي الفيصل في جودة العمل الشعري أو رداءته، ولا ينحاز إلى هذه المدرسة الشعرية أو تلك. وفي

---

[1]ـ بدوي الجبل الأعمال النثرية . ص 92

[2]ـ هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار و قصائد مجهولة ص 109

ذلك يقول: "أنا لا أؤمن بوجود مدارس شعرية؛ فالشعر إما أن يكون رفيعا أو لا يكون، ولا وسط. وهناك شعراء لا مدارس"[1].

والشاعر يعبر بموقفه هذا عن انفتاحه على الجماليات الفنية ـ وغير الفنية ـ في كل الآداب[2]، بغض النظر عن اسم المدرسة الشعرية التي تبنت تلك الجماليات، وأنه لم يصطنع ترجمة تلك السمات الفنية في قصائده، فجاءت متناغمة مع طبيعة تجربته الشعرية المرتكزة على العفوية.

و بناء على ما سبق، فقد جاءت بنية قصائد بدوي الجبل على ثلاثة أنواع؛ نوع يقوم على تعدد المعاني وعليه جاءت أغلب قصائده، حيث تنعدم فيها الوحدة الموضوعية، ولا تتوفر حتى على الوحدة المنطقية. كما تنعدم فيها الوحدة العضوية. ونوع ثان يتوفر على الوحدة الموضوعية، أو وحدة المعنى و يفتقد للوحدة العضوية. ونوع ثالث يتوفر على الوحدة الموضوعية والعضوية معاً. وما يوحِّد هذه الأنواع الثلاثة، أن مقدماتها ونهاياتها تتوافق مع مضمون التجربة التي عبرت عنها تلك القصائد.

ويندرج في النوع الأول، قصائد الشاعر المطولة، التي تتجاوز كل منها الثمانين بيتا. ومن هذه القصائد، قصيدة "من كسعد؟"[3]، التي كتب تحت عنوانها هذا ما يلي: "كان سعد الله الجابري دنيا من البطولة والوطنية والمروءة والصراحة والعفة

---

[1]ـ نجيب البعيني. شعراء عرب معاصرون ص 239

[2]ـ سبق الحديث في الفصل الأول من هذه الرسالة، عن اهتمام الشاعر بالاطلاع على كل جديد في ميدان الأدب وغير الأدب.

[3]ـ ديوان بدوي الجبل من ص 224 إلى ص 234.

والوفاء وكان بينه وبين الشاعر من الصداقة والود ما هو أقرب من كل قربى"[1]..

وتتشكل القصيدة من ست وتسعين بيتا، موزعة على ثلاثة عشر مقطعا.

وقد جاء مطلع القصيدة منسجما مع الأثر النفسي العميق الذي خلفته وفاة سعد الله الجابري في وجدان الشاعر. وأما معاني القصيدة، فتدور حول القيم التي عاش لها سعد ومات من أجلها. كما جاءت الخاتمة متناغمة مع التجربة.

ومطلع القصيدة هو[2]:

سأل الصبح عن أخيه المفدى

أيها الصبح لن تشاهد سعدا

وهو مطلع يعبر عن الألم الذي لم يصب الشاعر فحسب، بل أصاب الصبح أيضا..! والصبح هو بداية النهار وفيه من الجمال ما فيه. إلا أن صبح ذلك النهار ـ الذي تخطف فيه الموت سعد الله الجابري ـ لم يكن كحاله في سائر الأيام .. لقد بدا حائرا لأنه لم يجد أخاه سعدا. وحين سأل عنه، جاءه الجواب من الشاعر الحزين: " أيها الصبح لن تشاهد سعدا" بعد اليوم..!

وليس من شك أن في البيت لفتة جميلة، وهي أنه إذا كان الشعراء الرومانسيون يرون في الطبيعة أمهم الرؤوم، فإن بدوي الجبل ـ وهو واحد منهم ـ يرى أن ما يربط كذلك بين الإنسان المكافح من أجل سيادة قيم الحق والخير، وبين عناصر الطبيعة هي علاقة الأخوة الحانية !

[1]ـ ديوان بدوي الجبل هامش ص 224
[2]ـ المصدر نفسه. ص 224

ثم راح الشاعر يرسم صورة شخصية سعد الآسرة؛ من طلعة تفرح العيون، وحديث يؤثر في السامعين، وأناقة، وظرف، ودعابة عفيفة، ورجولة وحزم.

وفي القصيدة أبيات من الحكمة تتوافق والتجربة، تتضمن روحا نقدية موجهة إلى أولئك الذين لا يتذكرون أبناء أمتهم العظماء إلا بعد موتهم، كقوله[1]:

إن دين العظيم في كل شعب

لا يوفى وحقه لا يؤدى

إن من ينكرونه و هْو حـــي

ربما ألهوه رمزا ولحدا

ثم يعاتب الشاعر الجيل الجديد من أبناء الوطن، على عدم وفائه للجيل الذي بذل كل شيء في سبيل عزة الوطن ولم يبخل عليه حتى بروحه، فيقول[2]:

ما لأبنائنا تجنــوا علينـــــــا

وغفرنا ما كان سهوا وعمدا

حاسَبونا على هنات المعالي

ثم غالـوا بها حسابـا وعـدا

نحن روادكم طلعنا الثنايا

وزحمنا الصعاب غوْرا ونجـدا

وبنيْنـا لكم و نعلـم أنَّـــا

لن نُملَّـى به بقـاء وخُلـــــدا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 231

[2]- المصدر نفسه. ص 231

وهذا التذكير بمآثر الجيل المنقذ للوطن من مخالب الاستعمار، ليس الغرض منه المن على الجيل الجديد، وإن تضمن فخرا، ولكن المراد منه ألا يبخس هذا الجيل الجديد حقوق آبائه عليه بجرة قلم، مثلما يفعل ذلك بعض مرتزقة السياسة في كل مكان و زمان..!

ففي القصيدة بكاء، وحكمة، وفخر، وغضب. الغرض منها إبراز قيم الحياة الكريمة التي عاش من أجلها الفقيد ومات عليها. ولذلك جاءت الخاتمة معبرة عن الثورة التي أحدثها (سعد الله الجابري) في حياته، وأن هذه الثورة يجب أن تستمر، من خلال التماهي مع تلك القيم، لأن صاحبها تمسك بها فعاش للوطن ولم يعش لنفسه .. وقد أجملت الخاتمة هذه المعاني، التي قال فيها الشاعر[1]:

ثورة في الحياة والموت جلّت

ثورة الحق أن تقر وتهدا

وهكذا سارت جل قصائد الشاعر بدوي الجبل، التي شبهها سيف الدين القنطار بقوله: "هي كالقصور المشيدة، تتعدد حجراتها و أجنحتها، فتتناظر مقاصيرها و شرفاتها، ويوحد بين أركانها التناظر والتشابه والزخرفة وحسن التقسيم"[2].

ومن قصائد النوع الثاني، قصيدة "كافور"[3]، التي توفرت فيها الوحدة الموضوعية؛ فهي تعالج موضوع الحاكم العربي الذي وصل إلى سدة الحكم بالقوة الغاشمة، وليس عن طريق الاختيار الحر والنزيه من قبل الشعب. وفي القصيدة

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 234

[2]- سيف الدين القنطار، بدوي الجبل دراسة في حياته و شعره. ص 128

[3]- ديوان بدوي الجبل. من ص 146 إلى ص 150

تحليل لشخصية هذا الحاكم الذي لا تتوفر فيه شروط القيادة. ولكن القصيدة لا تتوفر على الوحدة العضوية، لأننا نستطيع أن نتصرف في أبياتها بالتقديم أو التأخير، دون أن يخل ذلك ببنيتها.

وأما النوع الثالث، فهو قليل في تجربة بدوي الجبل الشعرية، مقارنة بالنوعين السابقين .. ومنه قصيدته " وذرني حتى أحيي الصباحا"[1].التي يناجي فيها الشاعر الموت.. وقد صاغ هذه المناجاة بطريقة اتسمت بالوحدة العضوية، بحيث يصعب التصرف في أبيات القصيدة بالتقديم أو التأخير أو الحذف، فضلا عن توفرها على وحدة الموضوع المشار إليه.

وقد دلت هذه الأنواع الثلاثة التي قام عليها بناء القصيدة عند بدوي الجبل، أن هذا الأخير قد غلبت عليه العفوية وهو يبني قصائده. ولو لم يكن الأمر كذلك لجاءت قصائده على لون بنائي بعينه.

[1]ـ ديوان بدوي الجبل. ص 462

ثانيا/ اللغة الشعرية

تتمازح العناصر الفنية في العمل الشعري إلى الحد الذي يصعب البت في أيٍّ منها أكثر أهمية في النص. إلا أن اللغة تمثل الأداة الجوهرية بالنسبة إلى تلك العناصر، وذلك لأن "الشعر يعيش في لغته، ولا يمكن فصله بأي حال عن ألفاظه الأصلية التي كُتب بها"[1].

وهذه الأهمية التي تمثلها اللغة في الشعر، تقودني إلى الحديث عن الأسلوب باعتباره طريقة الشاعر في استخدام اللغة للتعبير عن تجربته. "وقديما قال (بوفون): إن الأسلوب هو الرجل نفسه، وكذلك عرف (فلوبير) الأسلوب بأنه طريقة الكاتب الخاصة في رواية الأشياء"[2]. بمعنى أن الأسلوب "ليس مجرد طريقة للكتابة يتعلمها من يشاء، و لكنه يرتبط عند كل كاتب بالإلهام الخاص الذي يدفعه إلى الكتابة"[3]. وهذا الارتباط هو الذي يجعل الأسلوب يختلف من أديب إلى أديب، ومن شاعر إلى شاعر. وتغدو الصياغة اللغوية للعمل الإبداعي هي الفيصل في اختلاف القصائد ذات الغرض الواحد[4].

ويتعامل الشاعر المُجيد مع لغته بعفوية في صياغة قصائده؛ لأن هذه العفوية في الصياغة، نابعة في الحقيقة من عفوية التجربة ومن صدقها وحرارتها. وهذا ما أشار إليه الشاعر بدوي الجبل، وهو يتحدث عن طريقته في التعامل مع الكلمات الشعرية التي نسج بها تجربته الشعرية، فقال بأن تلك الكلمات "تمر في شعري دون

---

[1]- اليزابيت درو، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه. ترجمة ابراهيم الشوش، منشورات مكتبة منيمنة، بيروت، 1961. ص 335.

[2]- عز الدين اسماعيل، الأدب وفنونه. دار النشر المصرية، مطبعة الاعتماد القاهرة(1955). ص 26

[3]- المرجع نفسه ص 26

[4]- انظر محمد حسن عبد الله، مقدمة في النقد الأدبي. ص 239

أن أتعب في انتقائها أو ألجأ إلى المعاجم للتفتيش عنها. إنها في سريرتي كامنة مع الشعر ومع نغمه"[1].

وقد وُفق الشاعر بدوي الجبل في صياغة تجربته الشعرية، فجاءت لغته معبرة عن طبيعة شخصيته وذوقه المتأثرين بثقافته وبالحياة التي خبرها؛ فاتسمت لغته بالجمال، وبالجزالة والرقة ـ تبعا للمعاني التي عبرت عنها ـ كما أن أسلوب الشاعر كان معبرا عن نفسيته المتشبثة بمنظومة القيم التي تربى عليها؛ فانعكس ذلك على معجمه الشعري الزاخر بألفاظ المعالي. واتسم أسلوبه أيضا بالوضوح والإحكام النابعين من رؤية الشاعر للشعر، فجاءت ألفاظه سهلة، بحيث لا يضطرنا إلى مراجعة المعاجم لفك طلاسمها، إلا قليلا.

وتتبدى هذه الخصائص الفنية في لغة بدوي الجبل الشعرية، من خلال الظواهر الفنية الآتية:

1- الجدة:

وأعني بها تميز الصياغة الشعرية لتجربة بدوي الجبل الشعرية، بجملة من التراكيب اللغوية الجديدة التي لم يُسبق إليها الشاعر، وهي:

1- "الذل المتأنق" .. في قوله[2]:

تُغضي على الذل غفرانا لظالمها

تأنق الذل حتى صار غفرانا

---

[1]- هاشم عثمان، بدوي الجبل آثار و قصائد مجهولة. ص 123.

[2]- ديوان بدوي الجبل ص 80.

فالشاعر يتحدث عن الشعوب المنهزمة نفسيا أمام أعدائها، فتجمِّل ذلها بشعار التسامح والسلام، فيصير أنيقا..!وهي إنما تغطي تفريطها الكبير في حقوقها التي سطا عليها أولئك الأعداء..!

2- "من بدعة الأقدار، عنف الجبناء"..! في قول الشاعر[1]:

عنف باريس شجاني أمره

بدعة الأقدار عنف الجبناء

والبدوي يشير إلى الهزيمة المدوية التي حلت بفرنسا بعد أن اكتسحها الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية، ورغم ذلك فإنها تمارس "العنف الجبان" ضد الشعوب المستضعفة في أكثر من بلد في إفريقيا وآسيا..!

3- "بدعة الذل أن يصاغ من الإنسان إله" .. في قوله[2]:

بدعة الذل أن يصاغ من الـ

فرد إلـه مهيمـن ديـان

لأن الحاكم لا يتحول إلى إله مع شعبه إلا حين يخضع له الشعب خضوعا مطلقا، وعندها يحسب الحاكم نفسه بأنه أكبر من أن يكون إنسانا، و ينسى الشعب المستكين بأن من يحكمه مجرد إنسان..!

4- "بدعة العار أن يصير الحر عبدا"..! - وهي تقابل العبارة السابقة - وذلك في قول الشاعر[3]:

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 101.
[2]- المصدر نفسه. ص 107
[3]- المصدر نفسه. ص 227

ما على العبد أن يُســوَّد عــار

بدعة العار أن ترى الحر عبدا

5- ومن تلك العبارات الجديدة عبارة "الضغائن الثملة"، في قول بدوي الجبل[1]:

وأنا الذي غنى الشآم فهزهـــا

منه البيان العبقري المُونِق

وجبهتُ بالحق العنيف عدوها

وعدوها ثمِلُ الضغائن أخرق

لأن الضغائن حين تسيطر على النفس وتتملك العقل، يصير معها صاحبها أخرق التصرفات كأنه سكران ..!

6- ومن تلك العبارات الجديدة "المحنة المدللة"، في قول الشاعر وهو يتحدث عن الشام[2]:

دللتُ محنتها بسحر قصائدي

أيام يستخذي الكمي فيُطرق

وهي عبارة تشير إلى الموقف الوجودي والنفسي للشاعر تجاه المحن والأحزان وهو ما كنت قد تحدثت عنه في الفصل السابق من هذه الرسالة.

7- ومن هذا القبيل عبارة "الأحزان المعطَّرة"، في قوله[3]:

وناولَني من أرز لبنان نفحة

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص140

[2]- المصدر نفسه ص 140

[3]- المصدر نفسه ص 159

فعطَّر أحزاني وندى و خضبا

وهي عبارة تعكس كذلك رؤية الشاعر للحزن، وطبيعة إحساسه به.

8- ومن هذا القبيل، عبارة "النحيب المعطر"، و "اللوعة المُزيَّنة"، في قول الشاعر[1]:

وفي الكعبة الزهراء زينتُ لوعتي

وعطر أبواب السماء نحيبــي

9- ومن هذا القبيل كذلك عبارة "الهموم المعطَّرة"، في قوله[2]:

وهمومي معطرات عليها

من شبابي الطموح والريعان

10- بل إن من همومه المعطرة، "ما يغمر الكون بالعطر"، وفي ذلك يقول[3]:

من همومي ما يغمر الكون بالعطـ

ـر ومنها مزاهر وقيــان

11- ومن هذا القبيل عبارتا "الأحرار عطر السجون"، و"عطر المنايا"، اللتان وردتا في قول الشاعر[4]:

نحن عطر السجون عطر المنايا

نحمل الجرح مطمئنا عميقا

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 61
[2]- المصدر نفسه. ص 105
[3]- المصدر نفسه ص 105
[4]- المصدر نفسه ص 255

وذلك لأن الأحرار وهم يساقون إلى السجون من قبل ظالميهم، إنما يسطرون تاريخ وطنهم الجميل والجديد، فهم بذلك عطر السجون..! وحين يسقطون شهداء في هذا الطريق، فهم عطر المنايا، لأنهم عند الله في أرفع مقام..!

12- ومن هذا القبيل "عطور الحق" في قوله[1]:

مصارع بعطور الحق زاكيـــة

كأنما سكبوا فيها الذي اعتقدوا

للتأكيد على أن الحق في رؤية البدوي الوجودية و في تجربته الشعرية، أحد أهم القيم الجميلة التي تُضفي على صاحبها جمالا في حياته وعند مماته..!

13- ولأن الحق جميل، فإن الهموم الناجمة عن سلوك طريق الحق، هي "هموم حسان " تشبه الغواني الحسان..! كما يقول الشاعر[2]:

والهموم الحسان تفعل في الأنـْ

فس ما تفعل الغواني الحسان

14- وهذه الهموم الحسان ، هي "رفيق أريحي" للسائر في طريق الحق..! يقول الشاعر[3]:

رضيتْ نفسُك الهموم رفيقا

أريحيا على الشدائد جلدا

1- ديوان بدوي الجبل. ص 218
2- المصدر نفسه ص 105
3- المصدر نفسه ص 225

15- وأن ما يُبذل من همٍّ في هذا الطريق هو "هم عبقري".. كما في قول البدوي[1]:

بورك الهم عبقريـا جوادا

لا كهم أعطى قليلا وأكدى

16- وأن انتظار النتائج من وراء كل هذه الهموم، إنما يدخل في "الرجاء المعسول". و ذلك في قول الشاعر[2]:

همس الفردوس هل من نبأ

عن ربى الغوطة معسول الرجاء

17- ومن هذا القبيل، عبارات "الأحزان الوضيئة"، و"الأحزان المتبرجة" و"الأحزان المنقَّبة"..!، في قول الشاعر[3]:

ويا رب أحزاني وِضَاءٌ كأنني

سكبت عليهن الأصيل المذهَبا

وقد تبهر الأحزان وهْي سوافر

ولكن أحلاهن حــزن تنقبــا !

18- و"الأحزان الرشيقة "..! في قوله[4]: رشيقة الأحزان والقدِّ ...

1- ديوان بدوي الجبل. ص 225
2- المصدر نفسه. ص 98
3- المصدر نفسه. ص 163 - 164
4- المصدر نفسه. ص 407

19- ومن العبارات الجديدة، الدالة على تسامي الشاعر بدوي الجبل على الخطوب رغم ضراوتها، وتدليله للآلام و تجميله لها، عبارة "اللهيب الأريحي العذب الأنيق"..! و ذلك في قوله[1]:

سلم الجمر لي و عاش بقلبي

أريَحِيَّ اللهيب عذبا أنيقا

20- ولأن اللهيب في تجربة البدوي بهذا الجمال، فإن الجمرات المنشئة له، "جمرات خضر" ! وفي ذلك يقول الشاعر[2]:

ألملمُ الجمرات الخضر من كبدي

وأستردُّ الصبا والحب والكبدا

وهذا ما جعله يدعو في البيت السابق بأن يسلم له الجمر..!

21- ومن هذا القبيل عبارة " اللجة الخضراء"، في قول الشاعر[3]:

سخرتْ بالسفينة اللجة الخضـ

راء و اختار قبره الربَّان

إشارة منه إلى المقاومة السورية الباسلة التي جرفت غطرسة المحتل، وأرغمته على الانسحاب من الوطن، واضطر قادة العدو إلى الإذعان للهزيمة من خلال قبولهم الانسحاب.

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 247

[2]- المصدر نفسه. ص 170

[3]- المصدر نفسه. ص 113.

22 ـومن هذه العبارات الجديدة، عبارة "نشوة اليأس"؛ و ذلك في قول البدوي:[1]

شاعر الحزن أين من سحره شاعر الهناء؟

إن لليـأس نشـوة ضل عن مثلها الرجـاء

للدلالة على أن الإنسان المتسامي على الآلام المنتصر على الأحزان إذا بدأ اليأس يتسلل إلى نفسه، فذلك معناه أن الفرج قريب.. وقد استمد الشاعر بدوي الجبل هذا المعنى من القرآن الكريم. حيث يقول الله عز وجل:" حتى إذا استيأس الرسل و ظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرُنا..."[2].

إن العبارات الجديدة السابقة في لغة بدوي الجبل الشعرية، قد جاءت من قبيل الانزياح عن نسقها الوضعي، وهذا "الذي يجعل اللغة شعرية، لأن الكلمات تتجاوز في تشكيلها اللغوي منطق اللغة العادية، هذه اللغة التي يكون هدفها منطقية المعنى، ولا تحفل بمنطقية الانفعال"[3].

2-الاقتباس والتضمين:

إن تعلق الشاعر بدوي الجبل بالقرآن طيلة حياته قد انعكس في تجربته الشعرية، حيث استلهم من لغته الكريمة من الألفاظ و المعاني الشيء الكثير.

وإذْ كنت قد وقفت فيما سبق، على معانٍ قرآنية أثرت في رؤية البدوي الوجودية وفي تجربته الشعرية، فإن اقتباس بدوي الجبل من ألفاظ القرآن الجميلة، ورفد لغته الشعرية بها، هو ما يحتاج الآن إلى إضافة. خاصة وأن

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 472.

[2]- سورة يوسف الآية 110.

[3]- عصام شرتح، ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2005. ص 97.

اقتباسه هذا جاء عفويا. من ذلك قول الشاعر، وهو يتحدث عن أمله في نهضة الأمة[1]:

ما للسفينـــــة لم ترفع مراســــيَها

ألـم تهيء لها الأقـــدار رُبانا؟

شُقي العواصف والظلماء جارية

باسم الجزيرة مجرانا و مرسانا

مستلهما لغته المعبرة عن هذا المعنى من الآية القرآنية الكريمة: "وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم"[2].

والشاعر حين يقول: "باسم الجزيرة"، فهو يعني الجزيرة العربية، باعتبارها مهد نزول القرآن الكريم على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وعندما أراد الشاعر أن يعبر عن يقينه بأن انتصار العرب والمسلمين على أعدائهم قادم لا محالة - رغم الهزائم التي لحقت بهم، ورغم التخلف الذي فرض عليهم ـ لجأ إلى القرآن الكريم مستلهما من آياته هذا اليقين، فيقول[3]:

لئن أطفئت يا مي نيران يَعْرُبُ

هوانًا فإنا ســوف نضرمـها إنــا

ولابـد من يوم أغــــرَّ محــجَّل

تطير الجبال الراسيات به عهنا

---

[1]- ديوان بدوي الجبل ص 86

[2]- سورة هود الآية 41

[3]- ديوان بدوي الجبل ص 448

فجاءت لغة البيت الثاني مقتبسة من قوله تعالى: "وتكون الجبال كالعهن المنفوش"[1].

وعندما أراد الشاعر أن يعبر عن حجم التضحية التي يبذلها المخلصون لوطنهم وأمتهم، لتحريرهما من الضعف و التخلف والهزيمة، يقول[2]:

بورك الهم عبقريا جوادا

لا كهم أعطى قليلا و أكدى

فهذا "الهم المبارك" المسخر للوطن وللأمة ـ فضلا عن أنه عبقري ـ فهـــو جواد لا يشبه ذاك الذي أنحى القرآن عليه باللائمة في قوله تعالى: "أفرأيت الذي تولى. وأعطى قليلا وأكدى"[3].

وحينما تحدث الشاعر عن إحدى القيم التي تمثلت في زميله في النضال (سعد الله الجابري)، والتي استطاع من خلالها - ومن خلال منظومة القيم الأخرى التي تمسك بها- أن يسهم في انعتاق وطنه من الاحتلال الأجنبي. قال[4]:

من كسعد و للنديِّ احتدام

جمرة الحرب عنفوانا ووقدا

حمم كالجحيم مستعرات

ردهـا حلمـه سلامـا وبـردا

---

[1]- سورة القارعة الآية 5
[2]- ديوان بدوي الجبل ص 225
[3]- سورة النجم الآيتان 33-34
[4]- ديوان بدوي الجبل ص 227

مستعيرا تشبيهه لحِلم زميله في النضال من قوله تعالى: "قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم"[1].

ولما أراد بدوي الجبل أن يبرز أجواء التسامح الديني التي طبعت حياة نصارى المشرق العربي بالمسلمين على امتداد العصور، قال[2]:

وللأذان و للناقوس من قدم

عهد على الحب والغفران ينعقد

مقتبسا ذلك من قوله تعالى:"...ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا و أنهم لا يستكبرون"[3].

وهكذا كان النفس القرآني حاضرا في تجربة بدوي الجبل الشعرية، فأسبغ على أسلوبه-إلى جانب التضمين- جمالا يغذي الذوق، وقوة تؤثر في النفس.

ويتجلى التضمين في لغة بدوي الجبل الشعرية، من خلال الكثير من الألفاظ التراثية التي تشرَّبها الشاعر من قراءاته الغزيرة في دواوين الشعراء العرب القدامى.

ومن تلك الألفاظ(الوغى، النزال، القراع، الطعان، الضراب، الثأر، الذمام، الخيام، الديار، العرين، اللوى، البيض، الصورام، السمر، الصمصام، السيف، الرماح، المُرَّان، المرهفات، السنان، الحُسام، الأسد، الردى، الفارس، الضيغم، الخود، الجياد، المنايا، الخطوب، الأسر، البلاء، الجدود، الكليم، الأعوجيات،

[1]- سورة الأنبياء الآية 69
[2]- ديوان بدوي الجبل ص 294
[3]- سورة المائدة الآية 82

الكميّ، الظبي، البيض، البهاليل، الغطاريف، القساور، البدر، الدهر، النمير، الصاب، الصبا، الصهباء، السلافة، الدوح، القطا، البان، الآس، الكعاب، الرباب، الملاب، الرضاب، الورقاء، الريم، الجؤذر، الظباء....).

وقد استطاع الشاعر بدوي الجبل أن يوظف هذه الألفاظ التراثية في التعبير عن المعاني ذات الصلة بقضايا عصره؛ لأنها ألفاظ كانت " ترد عليه سهو الخاطر فيدونها دون قصد منه"[1].. وهي تدلنا ـ من جانب آخر ـ على معطى فني، سبق للشاعر بشارة الخوري ـ المعروف بالأخطل الصغير ـ أن أشار إليه حين قال:" إن الشعراء في سورية كأصابع الكف الواحد عددا وحجما، وبدوي الجبل إحدى هذه الأصابع، و في نفسه شاعران، إذا انتصر أحدهما للقديم اعترضه نصير الجديد، فما خرجت القصيدة من نفسه إلا وعليها طابع الشاعرين"[2]. وإن كنت أتحفظ على لفظة "الاعتراض" التي استخدمها الشاعر بشارة هنا، لأن بدوي الجبل كان منتصرا من حيث المبدأ والتطبيق، للقيم الفنية التي تضمن النجاح للتجربة الشعرية، بغض النظر عن كون تلك القيم قديمة أو جديدة.

3ـ الاستفهام:

من الظواهر الفنية في تجربة بدوي الجبل الشعرية، أن أسلوب الاستفهام في لغة هذه التجربة، جاء معبرا عن حيرة الشاعر التي تملكته في بعض فترات حياته. من ذلك حيرة الشاعر من موقف أمته إزاء المصائب الكبرى التي تهددها

---

[1]ـ طارق عريفي، التصوف في شعر بدوي الجبل، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية 1997 ص 188

[2]ـ هاني الخير، يحدثونك عن أنفسهم ص 16

بالفناء، وهي تعيش على هامش حركة الناس في الأمم الأخرى حيث يحيون حياة الجد. فيقول[1]:

فيم التخاذل لا فُلَّتْ جموعكم

والدهر يزحف بالأرزاء والنوب؟

مالي وللناس جدَّ الناس كلهم

وضاع قومي بين الجدِّ و اللعب؟

ويستغرب الشاعر كيف تعيش أمته في هذه الحال، وأوطانها مكتسحة ومواريثها مغتصبة؟!..و يستغرب أكثر حين يلتفت فلا يرى شباب الأمة يثبون نحو المعالي من الأمور كشباب الأمم الأخرى. فيقول[2]:

هل لابن دِجلة حق غير مغتصب

أم لابن جِلِّقَ إرث غير منتهب؟

أين الشـباب و فتيـان غطـارفة

كالأسْد في الغيل ما واثبْتها تثِب؟

وتستبد الحيرة بالشاعر، حين يرى الرزايا في كل الأمم قديما وحديثا تُنجب في نفوس أبنائها الهمم العالية إلا في أمته..؟!

وقد عرفتُ الرزايا وهي مُنجبة

[1]- ديوان بدوي الجبل ص 470
[2]- المصدر نفسه. ص 470

فكيف لم تلد الجُلّى رزايانا؟[1]

وتتملك الحيرة الشاعر كذلك، حين يموت بعض القادة المخلصين لوطنهم و أمتهم. ومصدر حيرته أن هؤلاء قد سخروا أعمارهم ومهجهم لإنقاذ أمتهم من كل العلل، وأن تعويضهم من الصعوبة بمكان. وفي ذلك يقول الشاعر، وهو يخاطب أحد أولئك الراحلين[2]:

من يعُلُّ النديَّ بعدك بالشهـْـ

دِ المصفّى ومن يسدُّ الفُتوقا؟

وتبلغ حيرة الشاعر مداها، وهو يرى أولئك القادة المخلصين لأوطانهم وأمتهم، قد امتدت إليهم مخالب الفتك، إما بالموت يتخطفهم، وذلك من أقدار الله التي لا ترد. وإما بالجحود من قبل بعض أبناء الوطن، يقذف بهم إلى غياهب النسيان. وهذا مما يدمي الضمائر الوفية الأبية. فيقول متسائلا بحيرة[3]:

ما لقومي غال الحِمام فريقا

منهم والعقوق غال فريقا؟

وعندما يغيب هؤلاء القادة ـ بالموت أو بالجحود ـ ويتصدر المشهد لون من "الزعماء" لا علاقة لهم بالقيادة. حينها تسقط الأوطان في مهاوي الهزيمة على جميع المستويات المادية والمعنوية. وهنا تزداد حيرة الشاعر أكثر فأكثر. وفي ذلك يقول[4]:

---

[1]ـ ديوان بدوي الجبل. ص 136

[2]ـ المصدر نفسه. ص 256

[3]ـ المصدر نفسه. ص 253

[4]ـ المصدر نفسه ص 203

كيف يغشى الوغى ويظفر فيها

حاكم مترف وشعب فقير؟

ومصدر حيرة الشاعر هنا، أن هناك معادلة حضارية ـ يستغرب كيف غابت عن جماهير الأمة و قادة الرأي فيها؟ـ وهي أن التفكير في الإقلاع الحضاري، أو الأمل في الانتصار على الأعداء، لا يمكن أن يكونا بلا مقدمات. ومن أهم تلك المقدمات شيوع العدل في الأمة .. فلا تتورم بطون حكامها من التخمة، بينما تموت شعوبهم بسبب الجوع..!

ويلتفت الشاعر إلى حكام الأمة، فلا يرى فيهم إلا ما يدعو إلى الحيرة الشديدة؛ لأنهم لا يتوفرون على أدنى شروط القيادة، ولولا أنهم قد وثبوا على صهوة الحكم بالقوة لما سمع بهم أحد..! و في ذلك يقول الشاعر مخاطبا الحاكم العربي[1]:

من أنت؟ لا المجد الأصيل ولا الشمائل اللّدان

من أنت؟ إن ذكـــر العظام و رنَّح الدنيا افتتان

من أنت؟ لــولا صولة الطغيان، أنت إذن فلان

و قد تجسدت حيرة الشاعر الكبرى، عندما حلت بالأمة العربية والإسلامية، الهزيمة في الخامس من شهر جوان عام سبع وستين وتسعمائة وألف، أمام العدو الصهيوني ـ والتي مثلت النتيجة الطبيعية لهزيمة الأمة في ميادين الحياة الأخرى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعلمية ـ فجاءت أسئلة الشاعر في هذا السياق،

[1]ـ ديوان بدوي الجبل. ص 150

معبرة عن مشاعر الحيرة والقلق والحسرة التي أدمت وجدانه، وهو لا يكاد يصدق أن مدينة القدس قد استبيحت، وأن المسجد الأقصى قد اغتصب فلم يعد معمورا بجموع المهللين المكبرين. واختفت تلاوة آيات القرآن فيه، لأنه أصبح مكانا مهجورا من رواده .. يقول الشاعر[1]:

هل درت عدن أن مسجدها الأقـ

صى مكان من أهله مهجور؟

أين مسرى البراق والقدس و المهـْ

دُ و بيت مقدس معمــــور؟

أين آيُ القرآن تُـتلى على الجمـْ

ع و أين التهليل والتكبيــر؟

ولا شك أن تكرار أسماء الاستفهام في هذه الأبيات الشعرية ـ والتي قبلها مباشرة ـ يعكس عمق حيرة الشاعر.

4- التكرار:

ومن الظواهر الفنية في لغة بدوي الجبل الشعرية ظاهرة التكرار، التي "تخدم النظام الداخلي للنص و تشارك فيه، لأن الشاعر يستطيع، بتكرار بعض الكلمات، أن يعيد صياغة بعض الصور من جهة، كما يستطيع أن يكثف الدلالة الإيحائية للنص من جهة أخرى"[2].

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 195-196

[2]- منذر عياشي، مقالات في الأسلوب. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1 (1990). ص 83.

بمعنى أن من أهم وظائف التكرار، أن الشاعر يلجأ إليه للتعبير عن كثافة الأحاسيس التي تمور في وجدانه، فيغنيه عن الإفصاح عن تلك الأحاسيس بشكل مباشر.

وقد اتخذت ظاهرة التكرار في شعر بدوي الجبل عدة مظاهر، وهي تكرار الحروف والأسماء والأفعال والجمل. فمن المظهر الأول تكرار ياء النداء في بعض قصائده. كقوله في غربته مناجيا وطنه[1]:

يا شآمي يا قبلة الله للدنيا

ويا راحها المصفّى العتيقا

فجاء حرف النداء (ياء) مكررا ثلاث مرات، للدلالة على الوله الذي سكن وجدان الشاعر تجاه وطنه.. ولذلك ورد في البيت التالي مباشرة ـ تكرار لفظة (هواك) التي تؤكد هذا الإحساس بالوله، فقال[2]:

أترع الكأس من هواك لتروى

كبدي من هواك لا لتذوقها

واستخدم الشاعر ياء النداء مكررة في سياق تكرار بعض الجمل، كقوله[3]:

يـا لَذل الإسـلام إرث أبي حفْـ

ص بديـــد مضيـــع مغمـــور

يا لذل الإسلام لا الجُمْعة الزهـْ

راء نـــعمـــى ولا الأذان جـهيـر

---

[1]- ديوان بدوي الجبل ص 247.

[2]- المصدر نفسه. ص 247

[3]- المصدر نفسه. ص 195 - 196

يــا لذل الإســـلام والقدس نـهـبٌ

هتكت أرضـــــه فــــأين الغيــور؟

للتعبير عن الإحساس بالطعنة النجلاء التي أصابت كبرياءه و كبرياء كل عربي وكل مسلم بعد أن احتلت فلسطين، واستبيحت القدس في حرب جوان 1967.

ومن هذا القبيل قول الشاعر[1]:

فيــــا جنة الفردوس لو لم يعث بـــهــــا

شيــاطين إنــس روعوا الإنس والجنا

ويــــا جنة الفــردوس لكن قـــطوفهــا

بـــغير أكف الصيـــد من أهلها تُجنــــى

فجاء تكرار "يا جنة الفردوس"، للدلالة على حالة التأزم النفسي التي تملكت الشاعر بعد أن سقطت سورية في يد المحتل، بعد موقعة ميسلون.

وقد تأتي ياء النداء المكررة مقترنة بلفظ (رب)، لتعبر على أن السبل حين تنقطع بالشاعر فيقع في الحيرة والعجز الشديدين لا يجد ملجأ يفر إليه إلا الله فيتوجه إليه بالدعاء طالبا منه الحماية والمدد، فيقول[2]:

ويــــا رب إن القلب ملـــكك إن تشــأ

رددت محـــيل القـــلب ريـــان مخصـــبا

ويـــــا رب هذي مــــهجتي و جراحــها

ســـيبقـــــين إلا عنــــك ســــرا محجــبا

ومن مظاهر التكرار في تجربة بدوي الجبل الشعرية، تكرار الأسماء، كتكرار لفظ (ثكل) في قوله[3]:

ثـكـــل الأمومة في التسـعين حــين بكـى

عـــند الملائـــك في جنـــاتهم ســجـــــدوا

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 444

[2]- المصدر نفسه. ص 162-163

[3]- المصدر نفسه. ص 300-301

ثُكــــل الأمـــومة عـــند الله حـرمـتــه

كـحرمــــة الحـــق لا ســـتر ولا بـُـعُــــد

ثـُكــــل الأمـومـــة حـــفَّ الأنبيـــاء به

يـهـــدهـــدون مــــن الآلام و احتـــشـــدوا

للدلالة على آلام أمٍّ تقدم بها العمر طويلا، تُفجع في ابنها الذي رحل عن هذه الدنيا. وحين تكون الآلام من أم في مثل عمرها، فإنها تكون آلاما لا قبل لها بها؛ حتى إن الأنبياء عليهم السلام في جناتهم أحسوا بجسامة ما أصاب هذه الأم فتحركوا لمواساتها..!

وتكرار لفظة (غربة) خمس مرات في بيتين متتاليين، في قول الشاعر[1]:

غـــربتـــي قد سئمت غربـة روحـــي

ومـلـــلـــت الــــتغريـــب والـــتـــشـــريـــقا

غـربتـي غـربتي علـى النأي والـقُرْ

بِ أرانــــي إلـــى دجـــاهـــا مــــســــوقــا

وحين نعلم أن البيتين قد وردا في قصيدته (غربة الروح)[2] يرثي فيها ـ وهو في غربته الطويلة ـ صديقه في النضال (فارس الخوري)[3] الذي تخطفه الموت ولم يره منذ سنوات، ندرك أن تكرار لفظة الغربة بهذه الكثافة، إنما جاء للدلالة على الإحساس المضاعف بالغربة التي كان يحياها..!

ومن هذا القبيل تكرار ضمير (أنا) في قول البدوي[4]:

ذهـــب العـــمر ولم تمـسك يـدي

بـيــــن أتــــرابـــي صفـــيـــا أو خـــليلا

أنـــــا فــــي الــكـــون شـقي حائـــر

لا أرى نــــورا و لا أهـــــدى ســــبيـــلا

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 249

[2]- المصدر نفسه. من ص 247 إلى ص 258

[3]- المصدر نفسه. ص 247

[4]- المصدر نفسه. ص 439.

أنـــا طيـــر لـم يـغـرد فاسمعـوا

بـــالدجـــى مـــنـــه نـــواحـــا و عـــويـلا

للتعبير عن الإحساس القاتم بالغربة الذي تملكه، بعد أن لمس طبيعة الأخلاق التي سادت بين الناس في مجتمعه من التملق و الكذب و النفاق، و هي غير تلك القيم التي تربى عليها.

ومن مظاهر التكرار تكرار الأفعال، الذي يترجم عمـق الإحساس و قوتـــــه، وحضوره، في تجربة بدوي الجبل الشعرية، كقول الشاعر عندما أراد أن يعبر عن الفرح الغامر الذي سكن روحه، حين تناهى إلى علمه ظهور شريف مكة الحسين بن علي، فعلق عليه آماله الكبيرة لتحقيق نهضة المسلمين[1]:

يا بن أقمار العلى من هاشم

وأبي البيض الملوك الفاتحين

يعـــرف البيت إذا طاف به

أنه ابن الطـــائفين العـاكفين

يعـــــرف البيت إذا مر به

أنه ابن الطيبين الطاهريــن

تعــــرف الأستار إذ يلثمها

أنه ابن الساجدين الراكعيــن

تعــرف البيض و ما أغمدها

أنه ابن الطاعنين الضاربين

فجاء تكرار الفعل (يعرف) و(تعرف) للتعبير عن ذلك الفرح الذي سكن فؤاد الشاعر وعن تلك الآمال التي فرضت حضورها في خياله.

وتبقى بعد هذا، الإشارة إلى أنني قد لاحظت أن الشاعر قد جانبه الصواب، في توظيف بعض الألفاظ من حيث دلالتها على المعاني المناسبة للسياق الذي وردت فيه، وهي:

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 485 - 486

أـ قول الشاعر[1]:

أبوابـــكم هجرت فلا نور هناك و لا ازدحام

قد كان يؤنسها الضياء فصار يوحشها الظلام

فلو قال: "سكناكم " هجرت، لكان أدق في الدلالة على المعنى.

ب ـ وقـو لـه ـ و هو يشير الى جرائم العدو الصهيوني ـ [2]:

دينه الحرق و الإبادة و الحِقْ

دُ وشتم الأعراض والتشهير

فلو قال: "وهتك الأعراض" لكان أفضل، لأن جرائم الصهاينة ليست من قبيل القول، وإنما هي أفعال..!

ج ـوقول الشاعر[3]:

خيالك يا سمراء مَــــرَّ بغربتـــــي

فحيـا ورحبنـا طويلا ورحبـا

فكان الأوفق أن يقول: "حَلَّ"، بدلا من "مَرَّ"؛ لأنه قال بعد هذا البيت[4]:

أرى طيفك المعسول في كل ما أرى

وحدتُ ولكن لم أجد منه مهربا

فدل على أن طيف تلك السمراء قد فرض نفسه عليه في كل وقت، وحيثما يمَّم وجهه.

د ـ وأضيف إلى هذه الأخطاء، أنه إذا كان الشعر إيحاء وليس شرحاـ وهو كذلك ـ فإن بدوي الجبل يلجأ أحيانا ـ بعد الإيحاء ـ إلى الشرح. انظر إليه وهو يقول[5]:

في رماد الضعيف نار فمهلا

---

[1]ـ ديوان بدوي الجبل. ص 434

[2]ـ المصدر نفسه. ص 199

[3]ـ المصدر نفسه. ص 159

[4]ـ المصدر نفسه. ص 159

[5]ـ المصدر نفسه. ص 518

إن ظلم القوي يذكي الضراما

وقد كان يكفيه هذا البيت في الدلالة على المعنى الذي يتضمنه، وهو تحذير الأقوياء الظالمين ـ إن استمروا في ظلمهم ـ من ثورة الضعفاء المظلومين. ولكنه راح يشرح هذا المعنى ـ وتلك ليست وظيفة الشعر ـ قائلا[1]:

أنا أخشى من الضعيف عليكم

بعـد حين تمــردا وانتقامــا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 518

ثالثا/ الصورة الشعرية

تعد الصورة الشعرية من السمات الأساسية التي قام عليها الشعر في كل الآداب قديما وحديثا. وترتكز على اللغة في التعبير عن طبيعة الإحساس المسيطر على الشاعر أثناء نسج تجربته. ومن هنا كان تعريف الصورة بأنها "رسم قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة"[1].وليس المراد بهذه الكلمات، تلك التي يُعَبَّر بها عن الحقائق والمسائل العقلية، وإنما تلك التي يستطيع من خلالها الشاعر رسم مشاعره النابضة، فيلجأ في هذه الحال إلى لغة المجاز، كالتشبيه والاستعارة والكناية والمقابلة والرمز والأسطورة.

وعليه، فإن الأسئلة التي تطرح نفسها في هذا السياق هي: ما خصائص الصورة في تجربة بدوي الجبل الشعرية؟ وما الأدوات التصويرية التي ارتكز عليها في إبداع صوره؟ وما مصادر الصورة عنده؟

إن الصورة الشعرية في شعر بدوي الجبل، قد تأثرت بالمصادر التي قامت عليها تجربة الشاعر[2]، فلونتها بطابعها المميز .. و قد لجأ الشاعر في نسج صوره إلى لغة المجاز، و بخاصة التشبيه والاستعارة والكناية والرمز.

وتميزت الصورة في تجربة بدوي الجبل الشعرية بجملة من السمات، تجمعها خاصيتان مهمتان وهما، التقليد والابتكار.

1- الصورة التقليدية

وأعني بها تأثر الشاعر في نسج جانب من صوره، بقراءاته في الشعر العربي القديم، وإن كان هذا النوع من التصوير قليلا في تجربته مقارنة بصوره المبتكرة.

فانظر إلى الشاعر وهو يصور براءة الطفولة وجمالها ووداعتها، حيث يستعين بعناصر من بيئة الصحراء رغم وجوده في بيئة أخرى بعيدة؛ فيقول[3]:

وهانٍ بنعماء الطفولة ما درى

أهَادَنَ دهرٌ أم ألَحَ خصيمُ

غرير يُبين القول بل لا يُبينه

---

[1]- سيدي لويس، الصورة الشعرية، ترجمة أحمد نصيف الجنابي ومالك ميري و سلمان حسن ابراهيم، دار الرشيد للنشر، بغداد، العراق(1982) ص 21.

[2]- انظر الفصل الأول من هذه الرسالة.

[3]- ديوان بدوي الجبل ص 186.

طَفورٌ كأطلاء الظباء بَغُوم

وإذا ما تذكرنا أن الشاعر، حين شبه الطفل هنا بأولاد الغزلان في وثبها وصوتها، كان موجودا في جنيف[1]، لعلمنا مدى تأثير الثقافة البدوية التراثية في تجربته.

وعندما يتحدث الشاعر عن حبيبته وعن أوصافها، نجد أن هذه الأوصاف لا تختلف عن تلك التي تناولها الشعراء العرب القدامى، كقوله[2]:

وفي عين سلمى قد تلوت قصيدة

من الشعر لم تترك لضراتها حسنا

وللشـــعر آيٌ في النــهود قرأتها

وفي الشفة اللمياء و المقلة الوسنى

ومن هذا القبيل قوله[3]:

وللطبيعة شعـر راح يسكرنـــي

فهل جرت في قوافيه ابنة العنـب

قرأته في النجوم الزُّهر عن كثب

وفي صفاء العيون النُجل عن كثب

فأوصاف "الشفة اللمياء"، و"المقلة الوسنى"، و"ابنة العنب"، و"العيون النجل" قديمة في شعرنا العربي.

وفي تصوير الشاعر لمعارك التحرير التي خاضها أبناء الشعب السوري ضد الاحتلال الفرنسي، لم يخل تصويره من النفَس التراثي. انظر إليه مثلا وهو يستعير أوصاف القدماء في رسم صمود الشعب وثباته مثل أوصاف "الضرب والطعان"، كما في قوله[4]:

كتب المجدُ ما اشتهت غرر المجدْ

[1]ـ البيتان من قصيدة عنوانها (حنين الغريب). وقد ذيلها الشاعر بهذه الإشارة :"جنيف 1- 11-1963". انظر ديوان بدوي الجبل. ص 191

[2]ـ المصدر نفسه. ص 444

[3]ـ المصدر نفسه. ص 470 - 471

[4]ـ المصدر نفسه ص 108-109

دِ ونحن الكتاب والعنـــــوان

شرف الشوط بالمُجلى من الخيْـ

ل ويخزى بغيره الميـــدان

قد سقينا من قلبنا الموت حتـــى

نبت الضربُ في الربى والطّعان

وبعد إلحاق الهزيمة بالمحتل، وإرغامه على الجلاء، نجد تلك الظلال التراثية تفرض نفسها على الشاعر، فيستعير أوصاف القدماء ـ كـ"الأسنة والصِّفاح" ـ وهو يزهو ببطولة الشعب السوري و انتصاره على العدو. يقول الشاعر[1]:

جلونا الفاتحين فلا غُـدُوًّا

نرى للفاتحين ولا رواحا

إذا انقصفت أسنتنا وصلنا

بأيدينا الأسنة والصفاحـا

وتعرف هذه الحصباء منا

دما سكبا وهامات وراحا

وفي تصوير الشاعر لقوافل الشهداء الذين لم يبخلوا بدمائهم و أرواحهم من أجل تحرير الوطن، نجد تلك الأوصاف التراثية حاضرة؛ كتشبيهه لأحبائه هؤلاء بأنهم "ليوث" و "شموس"، وأن الموت "شل سرحهم"، وذلك في قوله[2]:

ضم الثرى من أحبائي ليوث شرى

وغاب تحت الثرى شموس هدى

لِداتي الصيد شل الموت سرحهم

ليت النجوم وروحي للذات فدى

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 115.
[2]- المصدر نفسه. ص 177-178

ولما فرضت الغربة القسرية على الشاعر، وفقد أغلب أحبته بفعل الموت، راح يصور ـ وهو في تلك الأجواء ـ حالة من حالاته النفسية الأليمـة، مستعيـرا الألفـاظ التقليدية مثل (الهيجاء، السيف، الزرد، الرشق، الظبى) لتصوير حالته، قائلا[1]:

أصبحتُ أعزل والهيجاء دائــرة

لا السيف رد الأذى عني ولا الزَّرَد

أردُّ رشق الظبى عن مهجتي بيد

وتمسح الدمع من نزف الجراح يد

2- الصورة المبتكرة

رغم تأثر بدوي الجبل بالقدماء، وحضور اللغة التقليدية في نسج صوره السابقة، إلا أنه لم يبق أسير التراث. حيث جـــدد في صوره الشعرية، إلى الحد الذي نحـس، ونحن نقرأ ألفاظه كأنها كائنات متحركة معطرة جميلة.

وقد ساعده على هذا التجديد، عاملان مهمان هما:

أ ـ قراءاته لكل ما هو جديد في ميدان الشعر والأدب.

ب ـ انحيازه ـ من حيث المبدأ ـ إلى الخصائص الفنية التي تجعل من الشعر شعرا، بغض النظر عن المدارس الشعرية التي تتبنى تلك الخصائص.

والصورة المبتكرة في تجربة بدوي الجبل الشعرية، تتجسد في المنحى الرومانسي الذي سلكه الشاعر في نسج هذه الصورة. مع العلم أن هذا المنحى هو الغالب عليها، بالإضافة إلى صور أخرى مبتكرة تأثر في نسجها بالمدرسة الرمزية.

فإذا كانت الصورة الشعرية في الاتجاه الكلاسيكي خاضعة لقواعد الفكر أكثر من كونهـا تعبيـرا عن خلجات الوجـدان[2]، فإن الأمـر على العكس من ذلك فـي الاتجـاه الرومانسي، حيث أن الصورة فيه "تكـون شعوريـة تصويريـة لا عقلية فكريــة"[3]، بمعنى أن الفكرة في شعر هذا الاتجاه، تستشف من خلال الصورة.

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 297

[2]- انظر محمد غنيمي هلال، دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده، نهضة مصر للطباعة والتوزيع، القاهرة، (د ط.د ت)، ص 71.

[3]- المرجع نفسه. ص 80.

ومن أبرز خصائص الاتجاه الرومانسي ـ كما هو معلوم ـ هروب الشاعر "من المدينة إلى الريف و إلى الطبيعة والترنم بجمالها"[1]..و أن الشاعر "يرى الطبيعة من خلال مشاعره، ويضفي على الطبيعة صبغة نفسه"[2] .

ومما تجب الإشارة إليه، أن الصورة الرومانسية في تجربة بدوي الجبل الشعرية قد نقلت نبض مشاعر صاحبها، ولم تخل في كل أنماطها من اندماج الشاعر بمظاهر الطبيعة المختلفة .. ولأن الشاعر قد وُلد وترعرع وعاش في أحضان الطبيعة الفاتنة الجمال[3]، فقد كان ذلك عاملا مهما في صبغ صوره بهذه الخصيصة.

ويكفي لبيان حضور الطبيعة الطاغي في صور بدوي الجبل الرومانسية، أن الشاعر، وهو في معرض البكاء على موت بعض أحبته، كانت الطبيعة بجمالها الفتان حاضرة، ولكنها حزينة متألمة هي الأخرى. وفي ذلك يقول الشاعر[4]:

حنَّت الغوطة الرؤوم لسعد

ورواح له عليها ومغدى

طالما باكر الرياحين فيها

وسقاها الندى حنينا ووجدا

وشكى همه فيا لك شكوى

نوَّرت في الربى أقاحا ورندا

فالغوطة ـ الحنون الرؤوم ـ كانت تحن لـ (سعد الله الجابري) في حياته؛ لأنه كان يغدو عليها ويروح. وقد اشتد حنينها إليه بعد موته؛ لأن من طبعه أنه كان يباكر الرياحين فيها قبل أن تستيقظ من نومها، فيسقيها من حنينه ووجده، كما أنه كان يبث همومه إلى الطبيعة فتنبت في رباها الأزهار الجميلة والأشجار الطيبة الرائحة.. !

وفي معرض تصوير هذه العلاقة الرائعة بين الفقيد والطبيعة، تتداعى إلى روع الشاعر صورة أخرى جميلة، تتمثل في رؤية الفقيد للموت. وفيها يقول الشاعر[5]:

قال لي والربيع غاف عل الزهْــ

[1]ـ محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه ج 2. ص71.
[2]ـ محمد غنيمي هلال، دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده. ص 81
[3]ـ انظر زهر المارديني، بدوي الجبل حكاية شاعر ص 23.
[4]ـ ديوان بدوي الجبل ص 228.
[5]ـ المصدر نفسه. ص 228- 229

ر يذيع الأحلام عطرا ونَـــدًّا

والغروب النديان في الغوطة المِعْـــ

طار يحنو على الظلال فتندى

ما أحـــب الحياة في غوطة الشـــا

م وأفجع بالموت هجرا وفقدا

فلأن الربيـع في طبيعـة الشام، يغفو على الزهـر فينشر عطـره ونـداه، وأن الغـروب فيها يحنو على الظلال فتقطر ندى جميلا؛ فإن فاجعة الموت إنما تكون في هجر هذه الطبيعة الأخاذة الجمال.. !

وأما فاجعة الطبيعة ـ كما يصورها الشاعر ـ فتتبدى حين يغتال الموت من كان لها محبا، فتضل تذكره. وحين تذكره، تذرف دموع الحزن في مواطن الحزن، أو دموع الفرح عندما يكون الموت من أجل الوطن.. !وفي ذلك يقول، وهو يشخص ربى ميسلون، في ذكرى جلاء العدو عن وطنه[1]:

شهـداء الحـق لا أبكيـــكمُ

جلت الغوطة عن ضعف البكاء

جلَّ هذا الـدم أن يُرثـــى له

عار سقَّاكيــه أوْلــى بالرثـــــاء

الربى في ميسلون استعبرت

أين دمع الحزن من دمع البكاء؟

ويرسم الشاعر صورة، نلمس من خلالها سر هذا التماهي بين الطبيعة والإنسان في وطنه وأمته، فيقول[2]:

كل روض في الـشرق من دم آبا

ئي منـــدّى معطــر مطلــول

ولبانــاتُهم عــــلى كـــل صحرا

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 99- 100

[2]- المصدر نفسه. ص 240.

ءَ غديرٌ صـــافٍ وظـــل ظلـيل

حيث يحنو الصفصاف نُعمى على الوا

نــي ويبــكي على الشهيد النخيل

إن السـر يكمـن في هذا الوفـاء المنقطـع النظيـر من أبناء الأمـة لأرضهـم وسمائهـم، وطبيعة بلدانهم، وعشقهم لكل ذرة تراب في أوطانهم؛ ولذلك لم يبخلوا عليها بدمائهم حين اكتسحها العدو بجيوشه، فبادلتهم الطبيعة حبا بحب ووفاء بوفاء، وتمازجت تلك الدماء الزكية بكل روض من رياض أقطار الأمة فعطرتها وزينتها، وصارت آمالهم في تحرير الأمة وتحقيق نهضتها على لسان كل غدير صاف وفي فم كل ظل ظليل. وغدت أشجار الصفصاف تحنو على المتعبين منهم، فيستعيدون في ظلالها النشاط. وراح يبكي على الشهيد النخيل.. !

وعلى هذا الأساس فإن الطبيعة إذا كانت في صور الشعراء الرومانسيين ـ مثلما أشرت من قبل ـ هي الصـدر الحنـون الذي يجدون فيـه راحتهم، كما تجـد عناصـر الطبيعـة راحتهـا حيـن يناجونهـا. فإن هذا الأمـر قد تجسـد في صـور بدوي الجبـل الرومانسيـة؛ لأن العلاقـة بين الشاعـر وبين الطبيعـة كانت علاقة جدليـة، حيث أنه يجد راحته في أحضان الطبيعـة كما أن عناصر الطبيعـة تجـد راحتهـا في شعـر الشاعر، مثلما نلمس ذلك في الصورة التاليـة التي يشخـص فيهـا بدوي الجبل تلك العناصر؛ فإذا بورود الشام تنتشي وهي تستمع إلى الشعر، وتطرب للمعاني الجميلة التي يتضمنها، فتجزي بالظلال الوارفة الندية. يقول الشاعر[1]:

ورود الشام تُسكـــرها القوافي

وتهفـــو للتوجع والعتاب

وتطـــرب للندي من المعاني

فتجـزي بالظلال وبالملاب

وحين نتذكر رؤية الشاعر للألم[2]، ندرك براعة خياله الذي صور له أن عناصر الطبيعة تهفو هي الأخرى للألم.. ! أو أن تلك العناصر تصغي مشدوهة لهذا اللون من الشعر. وفي ذلك يقول[3]:

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 418

[2]- انظر الفصل الرابع من هذه الرسالة.

[3]- ديوان بدوي الجبل. ص 516

بردى والورود في ضفتيه

مصغيات لشعره و الخزامى

وعندما تغرَّب الشاعر عن وطنه وعن طبيعة وطنه، صارت الطبيعة في صوره الشعرية غريبة هي الأخرى ومشردة.. ! كقوله[1]:

أنا والربيع مشردان وللشـــذى معنا ذهـــاب

لا الأيْك بعد غيابنا غَرد الطيوب ولا الرباب

والنور يسأل والخمائل والجمال متى الإياب؟

ثم يلتفت الشاعر إلى الشجر في ذلك الفصل من الشتاء[2] ـ الذي أبدع فيه شعره هذا ـ ويخاطبه على طريقة الشعراء الرومانسيين في تشخيص عناصر الطبيعة، فيسبغ عليه أحزانه[3]:

بيني وبين الدوح في أحزانه النسب القراب

من كل موحشة فأين الطيب والوهج المذاب؟

وهو في غربته، بعد أن غدر به بعض أبناء الوطن، يلتفت الشاعر فيرى أن الوفاء قد غاب مع أحبته الذين رحلوا عن هذه الدنيا، فيحن إلى قبورهم ويخالها شخوصا حبيبة تُحضن و تُلثم، فيقول[4]:

وقبور إخواني وما أبقى من السيف الضراب

أشتاق أحضـــنها و ألثمـــها وللدمع انــسكاب

وقد بلغ الشاعر بدوي الجبل درجة عالية من روعة التصوير حين شخص أحجار قبور أحبته وجعلها تشاركه ألمه وتفجعه و بكاءه، حين يقول[5]:

أدعو قبور أحبائي لتسمعني

---

[1]ـ ديوان بدوي الجبل. ص 78.

[2]ـ البيتان وردا في قصيدة عنوانها "ابتهالات"، أبدعها الشاعر وهو في جنيف في شهر فيفري 1964. انظر ديوان بدوي الجبل. ص 78

[3]ـ المصدر نفسه ص 74.

[4]ـ المصدر نفسه ص 72.

[5]ـ المصدر نفسه. ص 270- 271.

وهل تجيب دعاء الثاكل الحفـــر

أحنو على كل قبر من قبورهم

أبكيه حتى بكى من لوعتي الجحر

وإذا كان القاسم المشترك في رسم الصور الرومانسية السابقة هو الاستعارة، فإن الشاعر لجأ إلى غيرها من الوسائل البلاغية في نسج صوره هذه. وإن كانت الاستعارة عنده هي الأكثر توظيفا في هذا المضمار.

من ذلك استخدام الشاعر للتشبيه، كرسمه لهذه الصورة الطريفة، التي نلمس فيها جمال الطبيعة بجبالها الشاهقة الشاهدة على جلال الله[1]:

كأنما الشم من لبنان في سفر

البدر يقرب والجوزاء تبتعد

كأنها هُجَّدٌ طال الوقوف بهم

حتى انجلى للقلوب الواحد الأحد

كأنهم من جلال الله قد شُدِهوا

عند اللقاء فما خروا وما سجدوا

وقد ينسج الشاعر صوره عن طريق تشبيه المادي بالمعنوي، كهذه الصورة التي يشبه فيها بدوي الجبل حبيبته بالأحلام الرائعة[2]:

سمراء كالأحلام جفناها وجفن الليل سود

وقد يلجأ الشاعر إلى تشبيه المعنوي بالمعنوي، مثل الصورة الآتية التي يشبه فيها الهموم بالأماني الجميلة[3]:

وهموم كأنهن الأمانـــيُّ

جمالاً ونشـــوة وسُموقـا

وهي صورة تجسد رؤية الشاعر بدوي الجبل للهموم والأحزان.

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 293.

[2]- المصدر نفسه ص 153.

[3]- المصدر نفسه. ص 256

كما رسم بعض صوره المبتكرة بوسيلة الكناية. مثل قوله[1]:

فلكي ثابتٌ ولا خير في الأفْـ

لاك يُملي نظامَـها الدوران

كناية عن ثبات مواقفه النابعة من ثباته على المبادئ والقيم. وهي صورة فيها ابتكار وجمال وحركة.

ومن هذا القبيل قوله ـ وهو يصور جانبا من جوانب شخصية زميله في النضال الوطني (فارس الخوري)ـ [2]:

هدرتْ بالندي خطبتُك الشَّمّـ

اءُ والريقُ لا يَبلُّ الحُلوقا

كناية عن التأثر الذي بلغ مداه بخطب الفقيد ـ حين كان رئيسا للوزراء ـ إلى درجة أن من كان ينصت له لا يستطيع أن يبلع ريقه مخافة أن تفوته كلمة واحدة من خطب الفقيد المؤثرة.. !

وقد يلجأ الشاعر إلى أكثر من وسيلة بلاغية لرسم الصورة الواحدة المبتكرة، كالكناية والاستعارة والتشبيه، كقوله[3]:

فمن رأى بنت مروان انحنت تعبـا

من السلاسل يرحمْ بنت مروانا

أحنو على جرحها الدامي و أمسحه

عطرا تطيب به الدنيا وإيمانا

حيث استطاع الشاعر من خلال هذه الوسائل البلاغية، أن يرسم صورة معبرة عن وطنه " بنت مروان" كناية عن سورية[4] . وبعد أن شخص هذا الوطن، جعله ينحني

---

[1]ـ ديوان بدوي الجبل. ص 106.

[2]ـ المصدر نفسه ص 256.

[3]ـ المصدر نفسه. ص 81.

[4]ـ من المعلوم ـ من التاريخ بالضرورة ـ أن مروان بن الحكم، قد حكم سورية ، وسائر بلدان العالم الإسلامي، بعد معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد.

من قهر قيود الاحتلال التي أدمت كيانه المنهك؛ فغدت جراحه عطرا يستنفر إيمان الأوفياء لنصرته وتحريره، وليسجلوا صفحة خالدة في تاريخ مقارعة الغاصبين.

وقد يرسم بدوي الجبل صوره دون اللجوء إلى الوسائل البلاغية، كهذه اللوحة الشعرية التي تجسد يقين الشاعر في تحقيق وحدة الأمة العربية والإسلامية، مستعينا في رسمها ببعض عناصر الطبيعة المعبرة[1]:

يا بناة الحدود لا تعرف الصحْـ

راء في زحمة الأعاصير حدا

لا تـُــــغروا فإن في النفس كبرا

يتنـزَّى و إن في الصدر حقدا

وســجـايا الــرمال فيـنا فما يُرْ

قبُ إلا طغيانها حين تهـــدا

ومن الغرائب التي صادفتني، أن الباحث السوري (تيسير جريكوس) لم يشر في رسالته الأكاديمية الموسومة بـ "الصورة الفنية في شعر بدوي الجبل"[2] إلى هذا البعد الرومانسي في صور بدوي الجبل الشعرية. وكانت تلك مفاجأة لي.. !

ولبدوي الجبل لون آخر من الصور الشعرية الطريفة، نسجها عن طريق تراسل الحواس، الذي يكثر توظيفه في الشعر الرمزي، بل وصار مألوفا في الشعر المعاصر.

وتراسل الحواس، كما هو معلوم. يعني تبادل معطيات هذه الحواس؛ كأن يوصف المرئي بأنه مسموع، أو يوصف المشموم بصفات الملموس، أو العكس.

وقد لجأ الشاعر بدوي الجبل إلى توظيف هذه الوسيلة في رسم صوره الشعرية، منذ اللحظة التي صارت فيها العلاقة بين الشاعر والطبيعة علاقة جدلية. فمن هذا القبيل قول الشاعر[3]:

نُنَضِّر الوردَ والريحانَ أدمعُنا

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 144.

[2]- رسالة ماجستير بجامعة تشرين (اللاذقية، سورية)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، 1993م.

[3]- ديوان بدوي الجبل ص 81.

وتسكب العطرَ والصهباءَ نجوانا

ففضلا عن أن المسموع يصير مشموما و مشروبا حين تكون النجوى عطرا و صهباء، فإن ما يُجمِّل الورد والريحان هو الدموع، لا لأن هاتين النبتتين جميلتان في ذاتهما.. !

وقد يكون المنظور مسموعا في تجربة الشاعر. وهو ما نلمسه في هذه الصورة التي تتحول فيها العين من حاسة للنظر إلى صوت جميل ندي مؤثر مسكر ! فيقول فيها[1]:

تلك الدموع قصيدة قد جوَّدتْ

عيناك يوم فراقهم إنشادها

فإذا تلتــــها الــــعين وهْي ندية

سكر الزمان بلحنها فأعادها

وقد يغدو المسموع المتلوُّ ـ كالشعر ـ مشموما عند بدوي الجبل. كما في قوله، وهو يقدم باقة من شعره لحبيبته[2]:

أنشقي أزهار شعري غضة

إنني ألقيتُــــها بين يديك

ويغدو الأنين في تجربة الشاعر عطرا، وذلك في قولهـ وهو يخاطب حبيبته ـ[3]:

وأنّة بُحْــتِ بها للدجــى

فعطر الليلَ عبيرُ الأنين

ومن هذا القبيل قول الشاعر وهو يصور صهيل الخيل[4]:

عقر الله بعد فارسها الخيْـ

ل ولا عطر الفتوح الصهيل

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 510 - 511

[2]- المصدر نفسه ص 441

[3]- المصدر نفسه. ص 368.

[4]- المصدر نفسه ص 237.

وقد يصير هذا الصهيل ماء عذبا يروي ظمأ الصحراء. كما في قول الشاعر[1]:

وللجياد صهيل في شكائمها

تكاد تشربه الصحراء ألحانا

أو في قوله، وهو يصور صوت حبيبته خمرا معتقة يرشفها قلبه[2]:

رشفتُ صوتك في قلبي معتَّقة

لم تُعتصر وضياء غير منظور

وقد يكون المشروب مشموما، كما في هذه الصورة التي يمزج فيها الشاعر بين الخمر والعطر والأرجوان[3]:

من غوالي دموعنا الخمر والعطْ

رُ ونُعمى دمائنا الأرجوان

إن صور بدوي الجبل السابقة، فضلا عن أنها تخلو من الزخرف المتكلف، فإن الشاعر قد استطاع أن ينسجها على أشكال بديعة من الصوت واللون والبصر والشم؛ فاتسمت بالحركة والحياة وخلت من الجمود، الأمر الذي جعل بعض دارسي الشعر السوري الحديث، يذهب إلى القول ـ بحق ـ بأن هذا الشاعر "مصور لا يجارى، وواصف لا يقرن به واصف"[4].

---

[1]- ديوان بدوي الجبل. ص 85.

[2]- المصدر نفسه ص 413

[3]- المصدر نفسه ص109

[4]- أحمد الجندي، شعراء سورية، ص 52

رابعا/ موسيقى الشعر

ارتقى الإنسان، على امتداد العصور، عقليا ومعرفيا وماديا. ولكنه لم يتغير على المستوى النفسي؛ بدليل أن النوازع التي حركت آباءه وأجداده هي نفسها التي تحركه. وهذا ما مكن للتجارب الشعرية الناجحة أن تبقى، لأن لها صلة بهذا الجانب الثابت في النفس الإنسانية. وقد كان لموسيقى الشعر الدور الذي لا يستهان به في ذلك؛ عندما راحت تناغي هذا الجانب الذي استعصى على التحول في النفس الإنسانية، فطبعت ـ أي الموسيقى ـ القصيدة الشعرية الناجحة أولا: بالخلود. وعبرت ثانيا: عما لم تستطع اللغة المعجمية التعبير عنه .. ومن هنا كان تأثير الشعر في الإنسان أكثر من تأثير النثر.

ولأهمية عنصر الموسيقى في الشعر، توافق النقاد قديما وحديثا على اعتباره أحد أهم عناصر القصيدة .. فقد أجمع النقاد العرب القدامى في تعريفهم للشعر بأنه " الكلام الموزون المقفى". وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، حين عد " الوزن أعظم أركان الشعر و أولاها به خصوصية"[1]. فكان "الفرق بين الشعر والنثر بالوزن على كل حال"[2].

ولم يشذ النقاد العرب في العصر الحديث ـ في معظمهم ـ عما تواضع عليه النقاد العرب القدامى، ورأوا ان موسيقى الشعر "وسيلة من وسائل التعبير والإيحاء، لا تقل أهمية عن التعبير اللفظي، بل لعلها تفوقه"[3].

وهذا الذي ذهب إليه النقاد العرب قديما وحديثا، في موقفهم من مركزية الموسيقى في الشعر، يقاسمهم فيه النقاد الغربيون. فقد أقر (كولردج) "أن الوزن هو الشكل المميز للشعر وصفته الجوهرية"[4] ..واعتبر (ريتشاردز) الوزن بأنه "ليس مجرد تلاعب بالمقاطع، و إنما يعكس الشخصية بطريق مباشر ولا يمكن فصله عن الألفاظ التي تكونه"[5].

وعليه فإن موسيقى الشعر ـ فضلا عن كونها أهم ما يميز الشعر عن النثر ـ فإنها حين تكون نابعة من عفوية التجربة، تمنح القصيدة ثراء لا يخفى على المتلقي.

---

[1]ـ ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر ونقده ج1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. المطبعة التجارية. القاهرة (دط.دت). ص134

[2]ـابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة. المطبعة الرحمانية مصر، ط1 (1932). ص 271.

[3]ـ محمد مندور، الشعر المصري بعد شوقي ج3، دار نهضة مصر القاهرة (دط.دت) ص 385.

[4]ـ مصطفى بدوي، كولردج، دار المعارف القاهرة (دط.دت) ص 198.

[5]ـريتشاردز، العلم والشعر، ترجمة مصطفى بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة (دط.دت) ص 48.

فما موقع هذه السمة الفنية المركزية في تجربة بدوي الجبل الشعرية؟

وللإجابة عن هذا السؤال، لابد من الإشارة إلى أن موسيقى الشعر حين تطلق يراد بها الموسيقى الخارجية والموسيقى الداخلية.

1- الموسيقى الخارجية

وتطلق على الوزن الذي يمثل الإطار الخارجي للقصيدة ويمنعها من التبعثر[1].وينتهي بالقافية التي تشكل "فاصلة موسيقية تنتهي عندها موجة النغم في البيت، وينتهي عندها سيل النغم، ثم يبدأ البيت من جديد كالموجة تصل إلى ذروتها وتنتهي لتعود من جديد"[2].

وتعكس الموسيقى الخارجية "شخصية الشاعر في التجديد أو تقليد ما سار عليه غيره من الشعراء"[3].

وقد تراوحت موسيقى شعر بدوي الجبل الخارجية بين التقليد والتجديد. فأما التقليد فيتمثل في أن الشاعر قد صب قصائده الشعرية في بحور الشعر العربي المعروفة، وفي عشرة بحور منها على وجه التحديد .. وهي:

البسيط، ويمثل 23% من ديوان الشاعر. والخفيف 19%. والطويل 15%. والكامل11%. والرمل 8%. والوافر6%. والرجز4%. والسريع 3%. والمجتث 1%. والمتقارب 1%.

وقد وردت هذه البحور في شعر بدوي الجبل تامة، إلا في البسيط والرمل والكامل فقد جاءت قصائدها مجزوءة في الأول والثاني مرتين، وفي الثالث أربع مرات.

وأما جديد موسيقى شعر بدوي الجبل الخارجية، فيتمثل في تلوين الشاعر لبعض قصائده بالقافية المتعددة، بمعنى أنه لم يلتزم القافية الموحدة على طول خطه الشعري. كما أنه لم يتدرج من القافية الموحدة إلى القافية المزدوجة ثم المتعددة، بل انتقل من القافية الموحدة إلى القافية المتعددة.

---

[1]- انظر رجاء عيد، الشعر والنغم، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة(1975) ص 21.

[2]- محمد زغلول سلام، تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، دار المعارف، القاهرة (دط.دت) ص 40.

[3]- ابراهيم عبد الرحمن محمد، الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية، مكتبة الشباب. القاهرة (1979). ص263

وقد استخدم الشاعر القافية المتعددة في قصائده الآتية: (الشاعر والبؤس)[1]، (أي أمر ساءها)[2]، (يا قمر)[3]، (مي في وطنها)[4]، (نشوة اليأس)[5]، (الروح الثائرة)[6]،(البلبل الصريع)[7]، (لا تحبيني)[8]، (عاطفتي)[9]، (لا تذكري الماضي)[10]، (أغنية البردوني)[11]، (شعاع العيون)[12]، (دموع ودموع)[13]، (أنا وهي)[14].

وقد لاحظت أن هذه القصائد ـ المتعددة القوافي ـ قد تحققت فيها الوحدة الموضوعية. ومعلوم أن الالتزام بوحدة القافية في قصيدة طويلة، كثيرا ما يسهم في إقامة حاجز بين الشاعر وبين الانطلاق في معالجة موضوع واحد في قصيدته، فيلجئه هذا الالتزام إلى تناول أكثر من موضوع. وقد أشار الدكتور شكري عياد إلى هذه المسألة بقوله:" أما إذا التزمت القافية الواحدة في قصيدة طويلة، فإن الوحدة المعنوية أو الشعورية توشك أن تكون مستحيلة، لأن استمرار التوقع على نمط واحد يحدث عند المنشئ والمتلقي كليهما فتورا يحتم اللجوء إلى تغيير الموضوع"[15].

ولما كان الشاعر بدوي الجبل ملتزما بوحدة القافية في جل قصائده، وكانت قصائده ذات نفس طويل، فإن من عيوب القافية في القصائد الطوال أنها قد تلجئ الشاعر إلى استكمال بيته بكلمة تجتلب اجتلابا من أجله. وهذا ما وقع للشاعر البدوي في لاميته الموسومة بـ**"أين الرعيل من أهل بدر"**[16]، حين اضطره هذا الالتزام إلى الوقوع في المطب الذي أشرت إليه، وذلك في قوله[17]:

أي بدْع في ثورة من محب

قد يثور المقيد المكبول

---

[1]- ديوان بدوي الجبل من ص 439 إلى ص 442.
[2]- المصدر نفسه من ص 452 إلى ص 454.
[3]- المصدر نفسه من ص 455 إلى ص 456.
[4]- المصدر نفسه من ص 457 إلى ص 461.
[5]- المصدر نفسه ص472.
[6]- المصدر نفسه من ص 473 إلى ص 477.
[7]- المصدر نفسه من ص 478 إلى ص 484.
[8]- المصدر نفسه من ص 491 إلى ص 493.
[9]- المصدر نفسه من ص 494 إلى ص 499.
[10]- المصدر نفسه من ص 500 إلى ص 503.
[11]- المصدر نفسه ص 504.
[12]- المصدر نفسه من ص 537 إلى ص 541.
[13]- المصدر نفسه من ص 542 إلى من 546.
[14]- المصدر نفسه من ص 547 إلى ص 551.
[15]- شكري محمد عياد، موسيقى الشعر العربي، دار المعرفة، القاهرة، ط2 (1978) ص 161.
[16]- ديوان بدوي الجبل من ص 235 إلى ص 246.
[17]- المصدر نفسه ص 245.

إذ المقيد هو" المكبول".

وأما عن محاولة إيجاد علاقة حتمية بين هذا البحر الشعري أو ذاك، وبين موضوعات بعينها، فقد ثبت من خلال التجارب الشعرية ـ وبخاصة في عصور ازدهار الشعر العربي ـ كما يقول الدكتور شوقي ضيف، أن " حقائق شعرنا تنقض ذلك نقضا تاما، إذ القصيدة تشتمل على موضوعات عدة، ولم يحاول الشعراء أن يخصصوا الموضوعات بأوزان لها لا تنظم إلا فيها، فكل موضوع نظم في أوزان مختلفة، وكل وزن نظمت فيه موضوعات مختلفة"[1].

ومن خلال معالجتي لهذه القضية في تجربة بدوي الجبل الشعرية، تأكدتُ من وجاهة هذا الذي أشار إليه الدكتور شوقي ضيف. فقد لاحظت ـ مثلا ـ أن أحد أخطر الموضوعات الشعرية التي عالجها بدوي الجبل في تجربته، هو موضوع هزيمة العرب في حرب جوان 1967 أمام العدو الصهيوني، وأسبابها، وتداعياتها على الأمة ككل ، وعلى الشاعر نفسه؛ بحيث كادت أن تودي بحياته بسبب قصيدته "من وحي الهزيمة" ـ التي سبقت الإشارة إليها في الفصول السابقة ـ وقد جاءت قصيدته هذه عل وزن البحر الخفيف. ثم إن بدوي الجبل عالج موضوعا آخر مغايرا تمام المغايرة لموضوع "من وحي الهزيمة"، ويتعلق بالتغزل بعيون حبيبته، وجمال شعاع تلك العيون، فخصص لهذا الموضوع قصيدة طويلة بعنوان "شعاع العيون"[2] صبها في وزن البحر الخفيف كذلك.

وما يمكنني قوله في علاقة الوزن بالموضوع الشعري، أن هناك عوامل كثيرة تسهم في انسكاب هذا الوزن أو ذاك من سريرة الشاعر، لعل من أهمها حالة الشاعر النفسية منذ تخلُّق التجربة في وجدانه وإلى لحظة ميلادها، وكذا طبيعته النفسية ـ ولكل شاعر طبيعة نفسية خاصة ـ بالإضافة إلى عالمه اللاشعوري. وهذا العامل الأخير لا نعرف عنه إلا ما يعرفه ابن الصحراء الأمي عن علوم الذرة والفضاء !

ولعل ما يحسم الجدل حول مسألة الوزن والموضوع، أن نتذكر أهمية الموسيقى الداخلية في هذا المقام، والتي ترسم، من خلال تمازجها مع الموسيقى الخارجية، أحاسيس الشاعر ونبضه الوجداني ومدى صدق تجربته الشعرية.

2. الموسيقى الداخلية:

إذا كانت الموسيقى الخارجية تقوم على الوزن والقافية، فإن الموسيقى الداخلية تكمن في الألفاظ التي ينسج بها الشاعر تجربته الشعرية. وتناغم الموسيقى الداخلية مع الموسيقى الخارجية، متأت من هذا القاسم المشترك بينهما وهو الألفاظ التي يرتكز عليها هذان اللونان الموسيقيان.

---

[1] شوقي ضيف، في النقد الأدبي ص 152.

[2]ـ ديوان بدوي الجبل. من ص 537 إلى ص 541.

وعلى هذا الأساس فإن الموسيقى الداخلية تطلق على "الانسجام الصوتي الداخلي الذي ينبع من هذا التوافق الموسيقي بين الكلمات ودلالتها حينا، أو بين الكلمات بعضها وبعض حينا آخر"[1]. كما تتمثل " في تناغم الحروف وائتلافها"[2]، أو توظيف الأصوات التي تتكرر في ثنايا الأبيات ـ بالإضافة إلى ما يتكرر في القافية ـ فيجعل القصيدة أشبه بفواصل موسيقية متعددة الأنغام مختلفة الألوان[3]، فتنقل ـ بطريقة موحية ـ حالة الشاعر النفسية وطبيعة مشاعره التي "تعلو أو تهبط، تقسو أو ترق، تنفصل أو تتحد"[4]. وذلك بفضل استخدامه للغة استخداما فنيا جميلا.

والاستخدام الفني الجميل للغة ـ في هذا السياق ـ يعني أن الشاعر عندما يتخير الألفاظ المناسبة لمعانيه، فإن "موسيقى ألفاظه حين يطرق المعنى العنيف غيرها في المعاني الهادئة الرقيقة"[5]. كما أن تقسيم المعنى إلى عنيف وهادئ يستتبع تقسيم "الحروف إلى قسمين: أحدهما ينسجم مع المعنى العنيف والآخر يناسب المعنى الرقيق الهادئ، ومرجع هذا التقسيم في الحروف صفاتها ووقعها في الآذان"[6]

وقد وفق الشاعر بدوي الجبل في اختيار ألفاظ لغته الشعرية المعبرة بموسيقاها عن المعاني المتباينة التي عالجتها تجربته الشعرية. كما وفق في رصد الحروف المكونة للألفاظ، والمنسجمة من خلال إيقاعها مع تلك المعاني؛ فعكست ـ موسيقى الألفاظ والحروف ـ طبيعة ما يعتمل في وجدان الشاعر من أحاسيس متباينة، ودلت من ناحية أخرى على صدق تجربته الشعرية التي قامت على العفوية.

أ ـ دلالة موسيقى الألفاظ

لما كانت للألفاظ وما ينتج عنها من موسيقى علاقة بالمعاني، فقد كان هذا من أهم ما يشد المتلقي ويؤثر فيه.

ومما يندرج في دلالة موسيقى الألفاظ، ظاهرة التكرار التي وردت في تجربة بدوي الجبل الشعرية بكثافة وتنوع، شكلت لوازم موسيقية متعددة الدلالات.

---

[1]ـ ابراهيم عبد الرحمن محمد، الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية ص 263.
[2]ـ رجاء عيد، الشعر والنغم ص 21.
[3]ـ انظر إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ط 6(1988) ص 45.
[4]ـ رجاء عيد الشعر والنغم ص 15.
[5]ـ إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر ص 43.
[6]ـ المرجع نفسه ص 43.

ويدخل في هذه الظاهرة تكرار بيتين متتاليين خمس مرات ـ في بداية قصيدة البدوي " دموع ودموع" وفي ثناياها ـ ليشكل بإيقاعه، بين مقاطع النص، دلالة مهمة أستطيع تحديدها من خلال الأبيات التالية التي أقتطفها من القصيدة[1]:

غن يا بلبل فوق الدوح غــن

أنت أولى بالهوى والشعـر مني

لك سحر مثل سحري عجبٌ

أتُــرى عندك حزنا مثل حزنـي؟

فترنم بأناشيد الهــــــــوى

ناعما ما شئت من غصن لغصن

غن يا بلبل فوق الدوح غن

أنت أولى بالهوى والشعر عني

لستَ تدري الهم بالدنيا فخذ

أيها الطير دروس الهم عني

تــاج هارون خبــــا لألاؤه

فبكت دجلة حزنا والفرات

وذرى الزهراء خرت بعدما

طاولت زُهر النجوم النيرات

لا بنو العباس في زحم الوغى

لا ولا أبناء حمدان الأبــــاة

غن يا بلبل فوق الدوح غــن

أنت أولى بالهوى والشعر مني

لست تدري الهم بالدنيا فخذ

[1]- ديوان بدوي الجبل ص 542- 543 - 544.

أيها الطير دروس الهم عني

وتتجلى دلالة إيقاع الألفاظ في هذا النص من خلال تكرار اللازمة الممثلة في البيتين المشار إليهما سابقا، وما تضمناه من ألفاظ "غن، مِنِّي، حزني، الهم" - المتكررة مع تكرار اللازمة - بالإضافة إلى ما في النص من ألفاظ دالة على الألم كـ " بكت، خرت" وسواها. ليعكس هذا التكرار بإيقاعه ما يعتلج في وجدان الشاعر من صراع بين شعورين: شعور بضرورة المقاومة والتمرد من خلال لفظة " غن"، التي تكررت أكثر من غيرها في القصيدة، والشعور بالاستسلام وذلك من خلال الألفاظ الأخرى المقابلة للفظة الغناء. ولكن تكرار لفظة الغناء - أكثر من غيرها - تجعل منها رمزا لانتصار مشاعر المقاومة في ضمير الشاعر الذي عُرف طيلة حياته برفضه للهزيمة، وتعاليه على الاستسلام لكل عوامل الهدم في الحياة، من ظلم واستعمار وتخلف.

وتتضمن ظاهرة التكرار، في تجربة بدوي الجبل الشعرية أيضا، تكرار بعض الأساليب الإنشائية كالاستفهام والنداء. وغني عن البيان أن " الموسيقى الداخلية تكشف عنها الأساليب الإنشائية"[1] كذلك. ومن هذا القبيل قول الشاعر[2]:

هل درت عدن أن مسجدها الأقـ

صى مكان من أهله مهجور؟

أين مسرى البراق والقدس والمهـ

د وبيـت مقدس معمـور؟

أين آيُ القرآن تتلى على الجمـ

ع و أين التهليل والتكبير؟

يا لذل الإسـلام إرث أبي حفـ

ص بديـد مضيع مغمـور

يا لذل الإسلام لا الجمعة الزَّهْـ

راءُ نُعمى ولا الأذان جهير

1- إبراهيم عبد الرحمن محمد، الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية ص 271.
2- ديوان بدوي الجبل ص 195 - 196

يا لذل الإسلام والقدس نَهْبٌ

هُتكت أرضه فأين الغيور؟

فتكرار الاستفهام والنداء بهذه الكثافة في هذه الأبيات ينبئ من خلال إيقاعه، عن الحيرة التي استبدت بوجدان الشاعر، بعد الهزيمة القاسية التي حلت بالأمة العربية أمام الكيان الصهيوني في حرب جوان 1967م.

كما تكرر أسلوب النفي في تجربة الشاعر، حيث وظفه في دحض دعاوى أعداء الحياة، أو إثبات مواقف لابد من إثباتها، كقوله:[1]

وما ضرني أسرٌ ونـــــفسي طليقة

مجنحة ما كف من شأوها أسر

وما حاجتي للنور والــــنور كامن

بنفســي لا ظــل عليه ولا ستـــر

وما حاجتي للأفق ضحيان مشرقا

ونفسي الضحى والأفق والشمس والبدر

وما حاجــتي للكائنـــات بأســرها

وفـــي نــــفسيَ الـــدنيا وفي نفسيَ الدهر

فتكرار ما النافية ـ وما في مدها من إيقاع ـ خمس مرات في هذه الأبيات الأربعة، بالإضافة إلى تكرار لفظة " حاجتي" ـ وما في مدها من إيقاع كذلك ـ والمضافة إلى " ما " في ثلاثة مواضع، يدلان على تدفق مشاعر الشاعر المتحدية لمن أراد إلحاق الهزيمة النفسية به بعد اعتقاله ووفاة والده وهو في المعتقل[2]..

وتذكرنا هذه الأبيات برائية[3] أبي فراس الحمداني ـ الذي تأثر به الشاعر بدوي الجبل من بين من تأثر من فحول الشعراء العرب[4] ـ والتي يقول فيها[5]:

وما حاجتـي بالمال أبغي وفوره

---

[1]ـ ديوان بدوي الجبل. ص 259 ـ 260

[2]ـ انظر الفصل الأول من هذه الرسالة.

[3]ـ انظر ديوان أبي فراس الحمداني، دار الهدى، عين مليلة الجزائر (2006م) من ص 60 إلى ص 63

[4]ـ انظر الفصل الأول من هذه الرسالة.

[5]ـ ديوان أبي فراس الحمداني. ص 62

إذا لم أفِر عرضي فلا وفر الوفر

وقد ورد التكرار كذلك في شعر بدوي الجبل، من خلال ألفاظ غير مضافة. كتكرار لفظة " أنا " في قول الشاعر[1]:

وأنا البلبل في الأيك وفي الأسر يغني

أنا والأنجم أغفينا على مهد وحضن

أنا إن أدْنُ من الله فإن الشـوق يدنــي

فدل هذا الضمير ـ أنا ـ بإيقاعه المتكرر عن شعور الشاعر بالأمان النفسي الذي لا حد له، بعد انحيازه إلى قيم الحق والإيمان والصبر على المكاره، وآية هذا الشعور، إحساس الشاعر بالتناغم مع عناصر الكون.. !

ب ـ دلالة موسيقى الحروف:

اتسمت موسيقى الحروف في شعر بدوي الجبل في عمومها بالجلبة، بسبب انغماس الشاعر في الصراع ضد أعداء الحياة منذ نعومة أظفاره؛ فعبرت هذه الموسيقى عن انفعال الشاعر بلا ابتذال.

وفي هذا السياق، وظف بدوي الجبل مجموعة من الحروف الانفجارية ـ كما يسميها الدكتور إبراهيم أنيس ـ[2] للتعبير عن ذلك الانفعال.

فمن هذا القبيل قول الشاعر ـ في معرض التشفي ـ في فرنسا التي اكتسحتها الجيوش الألمانية في الحرب العالمية الثانية، وهي التي لطالما استعرضت عضلاتها على بعض البلاد العربية وبعض بلدان العالم الثالث .. فيقول[3]:

إني لأشمــت بالجبـــار يصرعـــه

طاغ ويرهق ظلما وطغيانا

عشرين عاما شربنا الكأس مترعة

من الأذى فتمليْ صرفها الآنا

ما للطواغيت في باريس قد مُسخوا

---

[1]- ديوان بدوي الجبل ص 412.

[2]- انظر إبراهيم أنيس موسيقى الشعر ص 43.

[3]- ديوان بدوي الجبل ص 82 و 84.

على الأرائك خداما وأعوانا

فقد رصد الشاعر للتعبير عن مشاعر التشفي المتفجر من وجدانه كالبركان، حروف "الجيم، والباء المشددة، والطاء والظاء والقاف والخاء والصاد" ـ التي تكررت مرات ـ فشكل من خلالها أداة إيقاعية للتعبير عن ذلك الإحساس.

وفي اللحظة التي انهار فيها جدار الخوف من المستعمر لدى الشعب، استطاع أن يرتقي سلم الاستقلال باقتدار، بعد أن اقتحم على العدو معاقله فدكها وأرغمه على الرحيل .. وقد استخدم الشاعر للتعبير عن هذه الحالة النفسية المتمردة ـ لدى الشعب ـ جملة من الحروف القوية. وفي ذلك يقول[1]:

انتزعنا الملك من غاصبه

وكتبنا بالدم الغمر الجلاء

وسقانا كأسه مترعة

وسقيناه وفي الكأس امتلاء

واقتحمناه حديدا ولظى

وجزيناه اعتداء باعتداء

سكرتْ مما ارتوت من دمه

غُصَصٌ حرَّى وثارت ظماء

ويضاف إلى الحروف القوية ـ التي أشرت إليها سابقا ـ حرف الراء المجهور المكرر في هذا المقطع، والذي أسهم بإيقاعه مع إيقاع الحروف القوية الأخرى ـ الصاد، الجيم، القاف، الطاءـ في إبراز الإحساس بالتمرد على العدو الذي كانت نهايته إلحاق الهزيمة به.

وفي معرض التذكير بفضل أولئك الذين سطروا هذا النصر ـ والشاعر واحد منهم ـ رصد بدوي الجبل حروفا قوية الإيقاع كذلك، نسج بها عباراته، مشهرا إياها في وجه كل من قد يتجرأ عليهم ذات يوم بالتجريح .. وفي ذلك يقول[2]:

نحن كنا الزلزال نعصف بالشَّرْ

---

[1]ـ ديوان بدوي الجبل. ص 99.

[2]ـ المصدر نفسه. ص 254 - 255.

ق نَرُجُّ الشعوب حتى تفيقا

فابتدعنا من الرؤى واقع الحـقّ

ومن غمرة الظلام البريقــا

نقحَم الغامض الأشـم من المجْـ

دِ ونأبى الممهـد المطروقـــا

نحن كالشمس جرحها وهج الدُّنْـ

يا غروبا منــورا وشروقـــا

وقد أسهمت القافية بقوة إيقاعها أيضا في إبراز إحساس الشاعر بضرورة الحذر من التطاول على هؤلاء ـ الذين وهبوا بجهودهم ودمائهم الاستقـلال للوطـن ـ عند الحديث عنهم.

وفي المواقف الرقيقة، يلجأ الشاعر إلى نسج لغته بالحروف التي تناسبها، كهذا الموقف الذي يتذكر فيه ـ وهو في الغربة ـ حفيده الصغير[1]:

وسيما من الأطفال لولاه لم أخف

على الشيب أن أنأى و أن اتغربا

وعندي كنوز من حنان ورحمة

نعيمــيَ أن يغــرى بهــن وينهبا

وإن نالــه سقم تمنيت أننـــي

فــداء لــه كنت السقيم المعذبا

ينام على أشواق قلبي بمهــده

حريرا من الوشي اليماني مذهبا

وأسـدل أجفانــي غطاء يظله

ويا ليتهـا كانت أحـــنَّ و أحدبا

[1] ديوان بدوي الجبل. ص 160- 161.

فنلاحظ تكثيف الشاعر لحرفي الحاء والنون اللذين يعكسان في هذا المقام بإيقاعهما الحنين إلى الطفل الحفيد والحزن على فراقه. وحرف الشين الذي يترجم الإحساس بالاشتياق إلى حد الاشتعال تجاه الصغير البعيد، وكذا حرفي الميم ـ وهما من مخرج واحد بهما تنطبق الشفاه ـ حيث يوحي وقعهما بمعنى استحالة وصول الشاعر ـ في ذلك الحين الذي أبدع فيه هذا النص ـ إلى حفيده، بفعل القهر الذي مورس في حقه من قبل أعداء الحياة، ودفعه مكرها إلى الارتماء في جحيم الغربة .. بالإضافة إلى حرف السين الذي يشيع بوقعه ـ مع الحروف السابقة ـ إحساس الشاعر العميق بالحنين والشوق إلى الحفيد البعيد.

وعند الحديث عن وطنه ـ وهو بعيد عنه ـ تتملك الشاعر الأحاسيس السابقة نفسها، فيلجأ إلى توظيف الحروف المهموسة التي تعكس بإيقاعها مشاعره تلك، كقوله[1]:

تبادهنـــي عند البحيـرة دُمَّـــــرٌ

وروض على أفيائها وشميم

ووُرْقٌ على شط البحيـــرة حُــوَّم

وورق على قلب الغريب تحوم

خيال جلا ليَ الشام حتى إذا انطوى

تنـــازع قلبي عَبْــرة ووجــوم

فرغم ما في هذه الأبيات من إشارة إلى صورة خارجية مرئية، تتمثل في البحيرة والروض على الأفياء، والرائحة الطيبة، والحمام الجميل على شط البحيرة، إلا أن حركة الشاعر النفسية كانت لها الغلبة في هذا الموقف؛ بفعل حضور " دمر" ـ السورية ـ وحضور الشام في هذه الساعة بالذات، فأشاح الشاعر بنفسه عن تلك المناظر الجميلة المحيطة به، بعد أن تملكه الحنين إلى بلده ـ بفعل ذلك الحضور ـ فجاءت حروف الأبيات ـ كالنون والحاء والميم والشين وكذا حروف المد ـ فترجمت بإيقاعها الرقيق هذا الإحساس.

ولأن إحساس الشاعر بالحنين إلى وطنه قد حوّل تلك المناظر الجميلة السابقة في

[1] ديوان بدوي الجبل ص 185.

وجدانه إلى عناصر تعزف لحن الألم، لذلك يلتفت إلى دوح البحيرة فيشكو إليه همومه وأحزانه، ولكنه يكتشف بأن الدوح هو الآخر لا يقل عنه ألما وحزنا؛ فيتبادلان الشكوى مما أصابهما معا.. ! وفي ذلك يقول[1]:

يطارحني دوح البحيرة شجوه

كلانا مُعَــنًّــى بالزمان هضيم

وأشكو له البلوى ويشكو كأننا

حميـم يساقيــه العزاء حميـم

وقد أسهمت حروف الهمس الواردة في البيتين بكثافة ـ كالنون والميم والحاء ـ بإيقاعها في ترجمة ألم الشاعر الصادق العميق.

[1]ـ ديوان بدوي الجبل. ص 188.

الخاتمـــــــة

الخاتمة

وأخيرا وبعد أن انتهيت من إنجاز هذه الرسالة، فقد توصلت إلى النتائج المهمة الآتية:

ــ إن مصطلح التجربة الشعرية جديد في النقد العربي الحديث، بمعنى أن نقدنا القديم لم يعرفه وإن عرف مضمونه؛ وذلك أن نقادنا القدامى كانوا قد تحدثوا عن تجارب الشعراء في الحياة وما ينتج عنها من معان ــ كالحكمة مثلا ــ تحتاجها الحياة الإنسانية. وأن اعتبار التجربة في الحياة أساس للتجربة الشعرية هو ما أجمع عليه نقاد الأدب في العصر الحديث. كما أجمعوا على أن منبع التجربة الناجحة هو النفس، حين تتحقق الاستجابة النفسية الصادقة للشاعر تجاه حدث ما من أحداث الحياة أو مجموعة أحداث. ثم تأتي بعدها خبرة الشاعر اللازمة بوسائله اللغوية والتصويرية والموسيقية لصياغة تلك التجربة في شكل قصيدة. ويجب أن يقوم الشاعر بترجمة تجربته بصورة غير مباشرة؛ لأن الشاعر الحق لا يعكس أحداث الحياة كما هي في الواقع، وإنما كما أحسها بروحه وأبرزها لنا حياة جديدة.

ــ وبدوي الجبل صاحب شاعرية لم يختلف حول أهميتها الدارسون في حياته وبعد وفاته. كما أنه ذو رؤية شعرية يتوافق فيها مع رؤية التيار الوجداني في الشعر العربي الحديث، وتتمثل في أن الشعر تجربة معبرة بالأساس عن وجدان الشاعر. وقد ارتكزت شاعرية بدوي على مصدرين مهمين هما: المصدر الثقافي والمصدر النضالي.

ــ وأما عن مضمون التجربة الشعرية عند بدوي الجبل، فيدور في أغلبه حول قضايا وطنه وأمته. كما أن هذا المضمون قد فجرته ينابيع الأحاسيس التي كانت تتفاعل في وجدانه، فارتقت تجربته من حدود الحدث إلى أبعاد إنسانية رحبة. وجاءت معانيها لهذا

السبب، غير موقتة بالزمن من ناحية، ومتسمة بالطرافة في بعضها على الأقل، من ناحية أخرى.

ــ ولأن الشاعر كان منحازا إلى القلب شعريا ووجوديا، فقد انعكس انحيازه هذا على الموضوع الشعري عنده؛ فجعله يتسم بالوجدانية وبالتناغم مع منظومة القيم. وبالتالي كان من الطبيعي أن أختار عناوين للمضامين التي عالجتْها تجربة الشاعر تكون أكثر دقة في الدلالة على علاقة هذه المضامين بمنظومة القيم النابعة عند الشاعر من القلب، وذات علاقة كذلك برؤيته الشعرية. فجاءت تلك العناوين هكذا: الوفاء والانتماء، والإيمان والحرية، والحزن والحب.

ــ فأما عن الوفاء والانتماء فهما قيمتان هيمنتا على وجدان الشاعر، لأن وطنه وأمته كانا يتخبطان في محنة الاحتلال ومعاناة الضعف والتخلف والتشرذم.

ــ ومن هنا نفهم سر ذكر الشاعر لوطنه سورية فيما يقرب من نصف قصائده الشعرية. وبالرغم مما كان يعانيه وطنه فإن ثقته في يوم يسترجع فيه استقلاله لم تتزعزع. وقد استمد ثقته هذه من قراءته الواعية لتاريخ وطنه ومن وعيه بأن أبناء وطنه كلما ازدادوا وفاء لهوية بلدهم وانتماء له، فإن استقلال هذا البلد عن المستعمر الغاصب سيكون هو النتيجة الحتمية

ــ وقد تحقق ما كان الشاعر مؤمنا به حين أُرغم المستعمر على الرحيل. ومع هذه الصفحة الجديدة التي فتحت في تاريخ وطنه، يلفت الشاعر الأنظار إلى قضية في غاية الأهمية، وهي أن مرحلة ما بعد تحرير الوطن تحتاج إلى طراز خاص من القادة ليتحقق بناء الوطن بصورة سليمة، وحتى لا يتحول الاستقلال إلى غنيمة بين أيدي الانتهازيين؛ فيشير إلى أن هؤلاء القادة يجب أن تتوفر فيهم جملة من المناقب السامية ــ تضاف إلى منقبتي الوفاء والانتماء ــ لخصها في لفظة المروءة الجامعة لكل المناقب الجميلة.

ـ وأما عن الشق الثاني من الوفاء والانتماء في تجربة الشاعر والمتعلق بأمته العربية الإسلامية ، فإن معانيهما المرتبطة بسورية قد ترددت في هذه التجربة بنفس القوة حين تعلق الأمر بأمته. والسر في ذلك أن منظومة القيم التي شكلت وجدان الشاعر وجعلته يتعلق بوطنه الصغير، هي نفسها التي جعلته يرتبط بوطنه الكبير .. ولأن الأمة العربية والإسلامية كانت تتخبط في نفس الظروف الخطيرة التي مست سورية، فقد كان من أهم الأماني التي فرضت نفسها على وجدان الشاعر، شوقه الجارف لأن تعانق أمته ذرى المجد بعد أن تنتفض على الاستعمار الغربي الذي اكتسح ديارها، وعلى كل عوامل الضعف والتخلف.

ـ وتحقيق تلك الغاية لا يتأتى إلا بالحرية. والحرية في تجربة الشاعر غير منفصلة عن منظومة القيم التي شكلت وجدانه، وعلى رأسها الإيمان بالله تعالى. وهذه القيم نابعة عند الشاعر من الإسلام؛ والتي حين يتمسك بها الناس، تنعكس على حياتهم فتشيع فيها الرشد والنور.

ـ والحرية في تجربة بدوي الجبل الشعرية مرتبطة أشد الارتباط بالإيمان؛ لأنها تتحقق في حياة الإنسان وفي واقع الوطن والأمة، حين يتم تبني المبادئ الإسلامية قولا وعملا، فتقود إلى التحرر من كل ما يرفضه الإسلام من ظلم وقهر وضعف وتخلف.

ـ ومن النتائج المهمة في هذه القضية؛ أن تحرير الأوطان من الاستعمار الخارجي في تجربة الشاعر، لا يعني أنها قد نالت حريتها بالضرورة، اللهم إلا إذا انتهى أمر الحكم فيها إلى بنيها جميعا ودون أن تقع تحت وصاية جهة بعينها تسعى تحت ذرائع شتى لفرض رؤيتها على الجميع، فتغرق الأوطان في مستنقع من المآسي والأزمات.

ـ ولأن الحرية قيمة محبوبة لدى كل إنسان سوي، وأن طريقها مفروش بالآلام والأحزان، فقد كان من الطبيعي أن تتناول تجربة الشاعر قيمتي الحزن والحب. وقد

جاءت فيها مترابطتين كترابط الإيمان والحرية من قبل. فالحزن في هذه التجربة نابع من الآلام التي أصابت الشاعر وهو يكافح من أجل سيادة القيم التي شكلت رؤيته الوجودية. وقد أسهم العامل الديني الذي تغذت منه شاعريته في نظرته إلى الآلام باعتبارها أمرا لا مفر منه من أجل بلوغ المجد، فغدا الحزن النابع من الآلام مرحبا به نفسيا، بل ومحببا طالما أنه يقود إلى المجد؛ فالتقى الحب لهذا السبب بالحزن في تجربة بدوي الجبل الشعرية.

ــ إن أهمية المعاني السابقة التي تسامت على عامل الزمن، ليست راجعة إلى ارتباطها بتجارب الشاعر بدوي الجبل في الحياة ولا إلى تفاعله الصادق معها فحسب، بل هي راجعة كذلك إلى طريقته في عرضها. وأعني بالطريقة، الشكل الفني للتجربة الشعرية من بنية ولغة وصور وإيقاع.

ــ فعلى مستوى البنية، جاءت قصائد بدوي الجبل على ثلاثة أنواع؛ نوع يقوم على تعدد المعاني أو الأغراض. حيث تنعدم فيه الوحدة الموضوعية والعضوية، ولا تتوفر على الوحدة المنطقية. ونوع ثان يتوفر على الوحدة الموضوعية ويفتقد للوحدة العضوية. ونوع ثالث يتوفر على الوحدة الموضوعية والعضوية معا. وما يوحد هذه الأنواع الثلاثة أن مقدماتها ونهاياتها تتوافق مع مضمون التجربة التي عبرت عنها تلك القصائد.

ــ وأما اللغة الشعرية، فقد جاءت معبرة عن شخصية الشاعر وعن ثقافته، وتأثرت في الوقت نفسه بالحياة التي خبرها. وقد اتسمت لغته بالرقة مرة وبالجزالة مرة أخرى، وذلك تبعا للمعاني التي عبرت عنها. كما أن أسلوب الشاعر كان معبرا عن نفسيته المتشبثة بمنظومة القيم التي تربى عليها، فانعكس ذلك على معجمه الشعري الزاخر بألفاظ المعالي.

ـ والصورة الشعرية في تجربة بدوي الجبل، ارتكزت على المصادر التي ارتوت منها شاعرية الشاعر، فاتسمت بسمتين هما التقليد والابتكار. فأما الصورة التقليدية فقد تأثر بدوي الجبل في نسجها بقراءاته في الشعر العربي القديم. غير أن هذا اللون قليل في تجربة الشاعر مقارنة بصوره المبتكرة. وأما الصورة المبتكرة، فإن أي باحث منصف حين يقف عليها يحس وكأن ألفظها التي نُسجت بها كائنات حية معطرة جميلة. ومما ساعد الشاعر على التجديد في صوره، اطلاعه على كل جديد في ميدان الشعر، وانحيازه من حيث المبدأ إلى الخصائص الفنية التي تجعل الشعر شعرا بصرف النظر عن المدارس الشعرية التي تتبنى تلك الخصائص. وقد اتسمت هذه الصور المبتكرة في الكثير من أنماطها بالعلاقة الجدلية بين الشاعر وبين عناصر الطبيعة، فاندمج فيها واندمجت فيه.

ـ وأما عن موسيقى الشعر، فبعد تحليلها من خلال بعديها الخارجي والداخلي، فقد اتضح:

ـ أن الموسيقى الخارجية في تجربة بدوي الجبل الشعرية قد تراوحت بين التقليد والتجديد. فأما التقليد فيتمثل في أن الشاعر قد صب قصائده في بحور الشعر العربي المعروفة. وأما التجديد فيكمن في تلوين الشاعر لبعض قصائده بالقافية المتعددة.

ـ وأما عن الموسيقى الداخلية، فقد شكلت أهمية واضحة في هذه التجربة، حيث استطاع الشاعر من خلالها أن يترجم نبضه الوجداني وصدق أحاسيسه المتباينة، وذلك عن طريق الاستخدام الجيد للغة الشعرية على مستوى الألفاظ والحروف حين طرق المعاني القوية أو المعاني الهادئة؛ فوظف لكل من المعنيين ألفاظه وحروفه القوية الانفجارية أو الهادئة المهموسة، ونقلت في الحالتين ما كان يعتمل في وجدان الشاعر من أحاسيس صادقة.

وقد استطاع الشاعر أن يوفر شروط النجاح الفني لتجربته الشعرية حين انتصر للقيم الفنية التي يجب أن تحكم الشعر حتى يكون ناجحا وخالدا، مثلما نجح قبل ذلك على مستوى المضامين التي عالجتها تلك التجربة، عندما انتصر للقيم السامية التي تتوق إليها النفس الإنسانية في كل عصر.

المصادر والمراجع

أئثيب

أولا/ المصادر

1ــ القرآن الكريم

2ــ ديوان بدوي الجبل. دار العودة، بيروت لبنان، 1978م

3ــ بدوي الجبل. الأعمال النثرية. إعداد وتوثيق هاني الخير، مكتبة الشرق الجديد، دمشق 2001

4ــ ابن الأثير ضياء الدين. الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية. تحقيق حفني شرف، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، 1958م

5ــ ابن رشيق القيرواني. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ج1. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المطبعة التجارية القاهرة (دط.دت)

6ــ ابن سنان الخفاجي. سر الفصاحة. المطبعة الرحمانية مصر ط1 1932م

7ــ ابن طباطبا محمد بن أحمد. عيار الشعر. تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة 1956م

8ــ أبو فراس الحمداني. الديوان. دار الهدى، عين مليلة (الجزائر)، 2006م

9ــ أبو هلال العسكري. كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة 1952م

10ــ أحمد شوقي. الشوقيات ج2. دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط2(1992م

11ــ بدر شاكر السياب. الديوان. دار العودة، بيروت لبنان 1971م

12ــ عبد القاهر الجرجاني. أسرار البلاغة. مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت لبنان 2007م

13ـ القاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز. الوساطة بين المتنبي وخصومه. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، القاهرة 1966م

ثانيا/ المراجع

1ــإبراهيم أنيس. موسيقى الشعر. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط6 (1988م)

2ـ إبراهيم عبد الرحمن محمد. الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية. مكتبة الشباب، القاهرة 1979م

3ـ أحمد الجندي. شعراء سورية. دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، دط. دت

4ـ أحمد كمال زكي. النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته. دار النهضة العربية، بيروت لبنان 2009م

5ـ أدونيس. سياسة الشعر. دار الآداب، بيروت لبنان، ط2 (1996م)

6ـ أكرم جميل قنبس. بدوي الجبل شاعر العربية والعرب. دار المعرفة دمشق ط1 (1990م)

7ـ أكرم زعيتر. مقدمة ديوان بدوي الجبل، دار العودة، بيروت لبنان 1978م

8ـ أكرم زعيتر. بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1 (1987م)

9ـ إليزابيت درو. الشعر كيف نفهمه ونتذوقه. ترجمة إبراهيم الشوش. منشورات مكتبة منيمنة، بيروت لبنان 1961م

10ــ إمام عبد الفتاح إمام. الطاغية دراسة فلسفية لصور الاستبداد السياسي. من سلسلة عالم المعرفة، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، رقم 183 رمضان 1414هــ، مارس/ آذار 1994م

11ــ إيليا الحاوي. بدوي الجبل شاعر الأناشيد والمراثي ج1. دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان ط1 (1981م)

12ــ حسين خمري. الظاهرة الشعرية العربية الحضور والغياب. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001م

13ــ درويش الجندي. الرمزية في الأدب العربي. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة (دط.دت)

14ــ ديب علي حسن. بدوي الجبل رحلة الشعر والحياة. دار الساحل للتراث، بيروت لبنان 1999م

15ــ رجاء عيد. الشعر والنغم. دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1975م

16ــ ريتشاردز. العلم والشعر. ترجمة مصطفى بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة (دط. دت)

17ــ زهير المارديني. بدوي الجبل حكاية شاعر. بيسان للنشر والتوزيع، بيروت لبنان ط1 (1997م)

18ــ سالم المعوش. في الأدب العربي الحديث. منشورات الجامعة المفتوحة طرابلس ليبيا، ط1 (1993م)

19ــ سامي الدهان. الشعراء الأعلام في سورية. دار الأنوار بيروت لبنان ط2، (1968م)

20ـــ سامي الدهان. الشعر الحديث في الإقليم السوري. جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العليا، القاهرة 1960

21ـــ سامي الكيالي. الأدب العربي المعاصر في سورية. دار المعارف القاهرة، مصر ط2. (دت)

22ـــ سيف الدين القنطار. بدوي الجبل دراسة في حياته وشعره. منشورات وزارة الثقافة دمشق 2000م

23ـــ سيف الدين القنطار. الأدب العربي السوري بعد الاستقلال. منشورات وزارة الثقافة دمشق 1997م

24ـــ سيد قطب. النقد الأدبي أصوله ومناهجه. دار الشروق بيروت لبنان، ط5 (1983م)

25ـــ سيدي لويس. الصورة الشعرية. ترجمة نصيف الجنابي ومالك ميري وسلمان حسن إبراهيم، دار الرشيد للنشر، بغداد العراق، 1982م

26ـــ شكري عياد. موسيقى الشعر العربي. دار المعرفة، القاهرة ط2 (1978م)

27ـــ شكري فيصل. مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي. دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط7 (1996)

28ـــ شوقي ضيف. في النقد الأدبي. دار المعارف، القاهرة ط6، دون تاريخ

29ـــ صابر عبد الدايم. التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث. مكتبة الخانجي، القاهرة ط1 (1990م)

30ـــ ضياء الصديقي وعباس محجوب. فصول في النقد الأدبي وتاريخه دراسة وتطبيق. الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة مصر، 1989م

31ـــ طه حسين. ألوان. دار المعارف، القاهرة 1970م

32ـــ طه مصطفى أبو كريشة. أصول النقد الأدبي. مكتبة لبنان ناشرون، ط1 (1996م)

33ـــ عبد الله يوركي حلاق. عشت مع هؤلاء الأعلام. حلب سورية 1988م

34ـــ عبد المحسن طه بدر. حول الأديب والواقع. دار المعارف، القاهرة ط2، د.ت

35ـــ عز الدين إسماعيل. الأدب وفنونه. دار النشر المصرية، مطبعة الاعتماد، القاهرة 1955م

36ـــ عصام شرتح. ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2005م

37ـــ عمر الدقاق. فنون الأدب العربي المعاصر في سورية (1870ـــ1970). منشورات دار الشرق، لبنان بيروت (دط.دت)

38ـــ كمال الدين عبد الرزاق القاشاني. اصطلاحات الصوفية. تحقيق محمد كمال جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1981م

39ـــ كولردج. النظرية الرومنتيكية في الأدب والنقد سيرة ذاتية لكولردج. ترجمة عبد الحكيم حسان، دار المعارف، القاهرة، 1971م

40ـــ محمد حسن عبد الله. مقدمة في النقد الأدبي. دار البحوث العلمية، الكويت ط1 (1975م)

41ـــ محمد زغلول سلام. تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري. دار المعارف، القاهرة (دط.دت)

42ـ محمد عبد المنعم خفاجي. دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه ج2. دار الجيل، بيروت لبنان، ط1 (1992م)

43ـ محمد غنيمي هلال. النقد الأدبي الحديث. دار العودة، بيروت لبنان، 1982م

44ـ محمد غنيمي هلال. دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده. نهضة مصر للطباعة والتوزيع، القاهرة (دط.دت)

45ـ محمد مندور. الشعر المصري بعد شوقي ج3. دار نهضة مصر القاهرة (دط.دت)

46ـ مصطفى بدوي. كولردج. دار المعارف، القاهرة (دط.دت)

47ـ منذر عياشي. مقالات في الأسلوب. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1 (1990م)

48ـ ميشال خليل جحا. الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. دار العودة، بيروت لبنان، ط1 (1999م)

49ـ نبيل سليمان. بدوي الجبل مختارات شعرية. المجلس الأعلى للثقافة، دمشق 2002م

50ـ نبيل سليمان. الكتابة والاستجابة. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000م

51ـ نجيب البعيني. شعراء عرب معاصرون. دار المناهل، بيروت لبنان، ط1 (1991م)

52ـ نذير العظمة. الله والمرأة والوطن في شعر بدوي الجبل. وقائع الندوة العربية عن الشاعر العربي الكبير بدوي الجبل، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق 2007م

53ـ هاشم عثمان. بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة. رياض الريس للكتب والنشر، بيروت لبنان، ط1 (1998م)

54ـ هاني الخير. يحدثونك عن أنفسهم. منشورات وزارة الإعلام، دمشق 2000م

55ـ وزارة الثقافة السورية. بدوي الجبل مختارات. دمشق، 2004م

الرسائل الجامعية

1ـ تيسير جريكوس. الصورة الفنية في شعر بدوي الجبل. رسالة ماجستير، جامعة تشرين اللاذقية، سورية. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية 1993م

2ـ طارق عريفي. التصوف في شعر بدوي الجبل. رسالة ماجستير، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1997م

3ـ عصام شرتح. لغة الشعر عند بدوي الجبل. رسالة ماجستير، جامعة حلب، سورية. كلية الآداب، قسم اللغة العربية 2002م

الدوريات

1ـ جريدة الثورة، دمشق، عدد: 2661 (13ـ11ـ1971)

2ـ مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق. الجزءان الأول والثاني، المجلد السابع والخمسون، يناير/ نيسان 1982

3ـ ملحق جريدة الثورة الثقافي، دمشق، عدد:01 (11ـ03ـ1976)

فهرس الرسالة

الفهرس | رقم الصفحة